اللواء الركن محمود شيت خطاب

لا إله إلا الله محمد رسول الله

الإسلام والنصر

دار قتيبة

الإسلام والنصر

تأليف

اللواء الركن محمود شيت خطاب



الإسلام والنصر

الطبعة الأولى - دار الفكر
١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م

الطبعة الثانية
١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م

دار قتيبة
للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق - ص.ب ١٣٤١٤



بسم الله الرحمن الرحيم

ولينصرن الله من ينصره إن الله
لقوي عزيــز

(قرآن كريم)



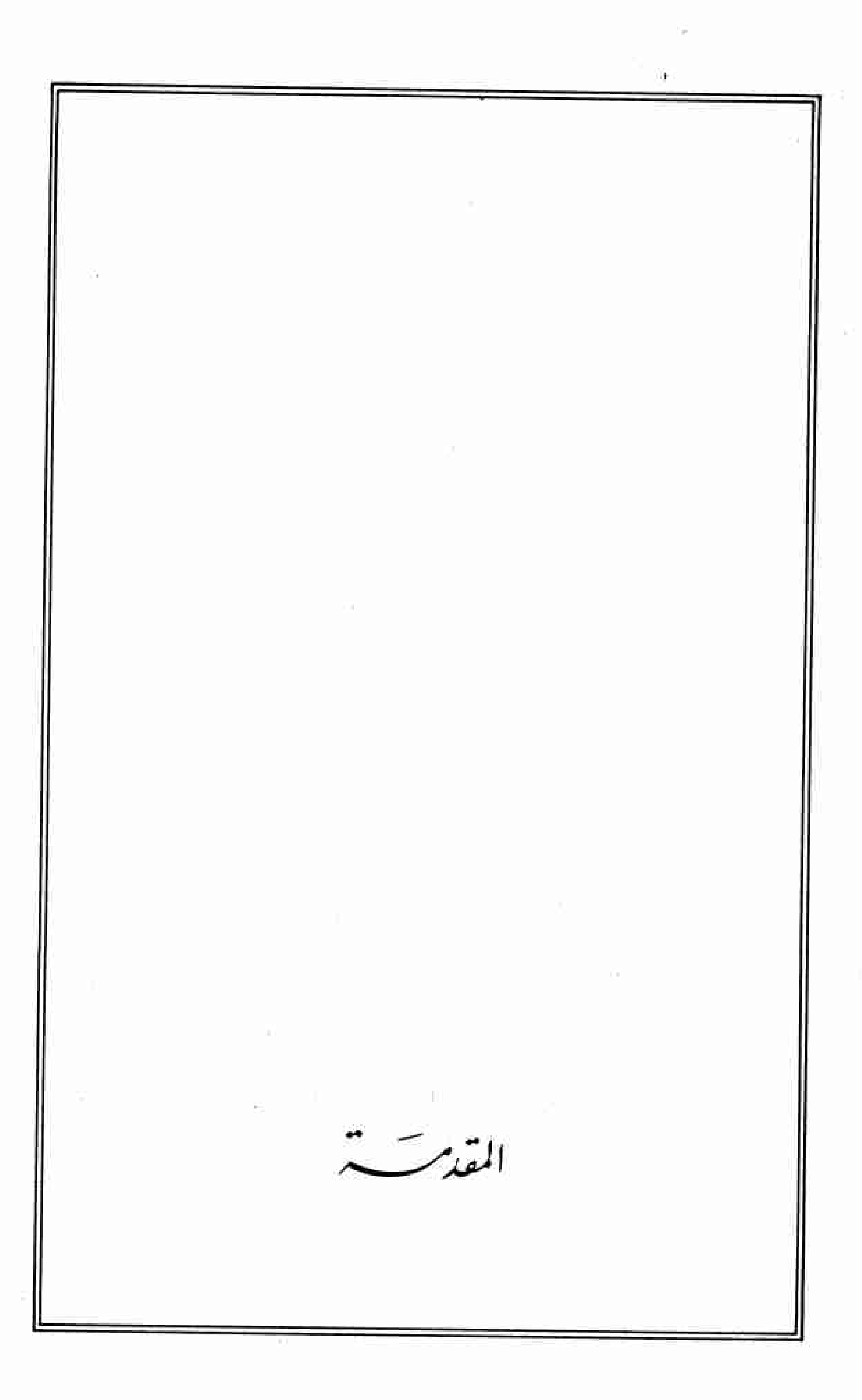





الإهداء

إلى الذين يتكلمون بالدم ويجاهدون بأموالهم وأنفسهم
في سبيل الله



المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدلله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين .

كنت أصلي الجمعة في أواخر عام ١٣٩١ هـ في جامع أبي بكر الصديق بمصر الجديدة في القاهرة ، فسمعت خطيب المسجد يتلو فصل : التربية المثالية .

وقبلها كنت أصلي صلاة الجمعة في مسجد قطز ، فسمعت خطيب المسجد يتلو فصل : الأخلاق المحاربة .

واستلمت رسائل كثيرة من الضباط العرب في مختلف الأقطار العربية يذكرون أنهم وجدوا ضالتهم المنشودة في هذه الفصول لالقائها محاضرات على جنودهم في دروس التوجيه المعنوي .

كما استلمت رسائل كثيرة أيضاً من شباب وشيوخ ، يطالبونني فيها بالمزيد من هذه البحوث ، لأنها تعالج القضايا الإسلامية بأسلوب جديد .

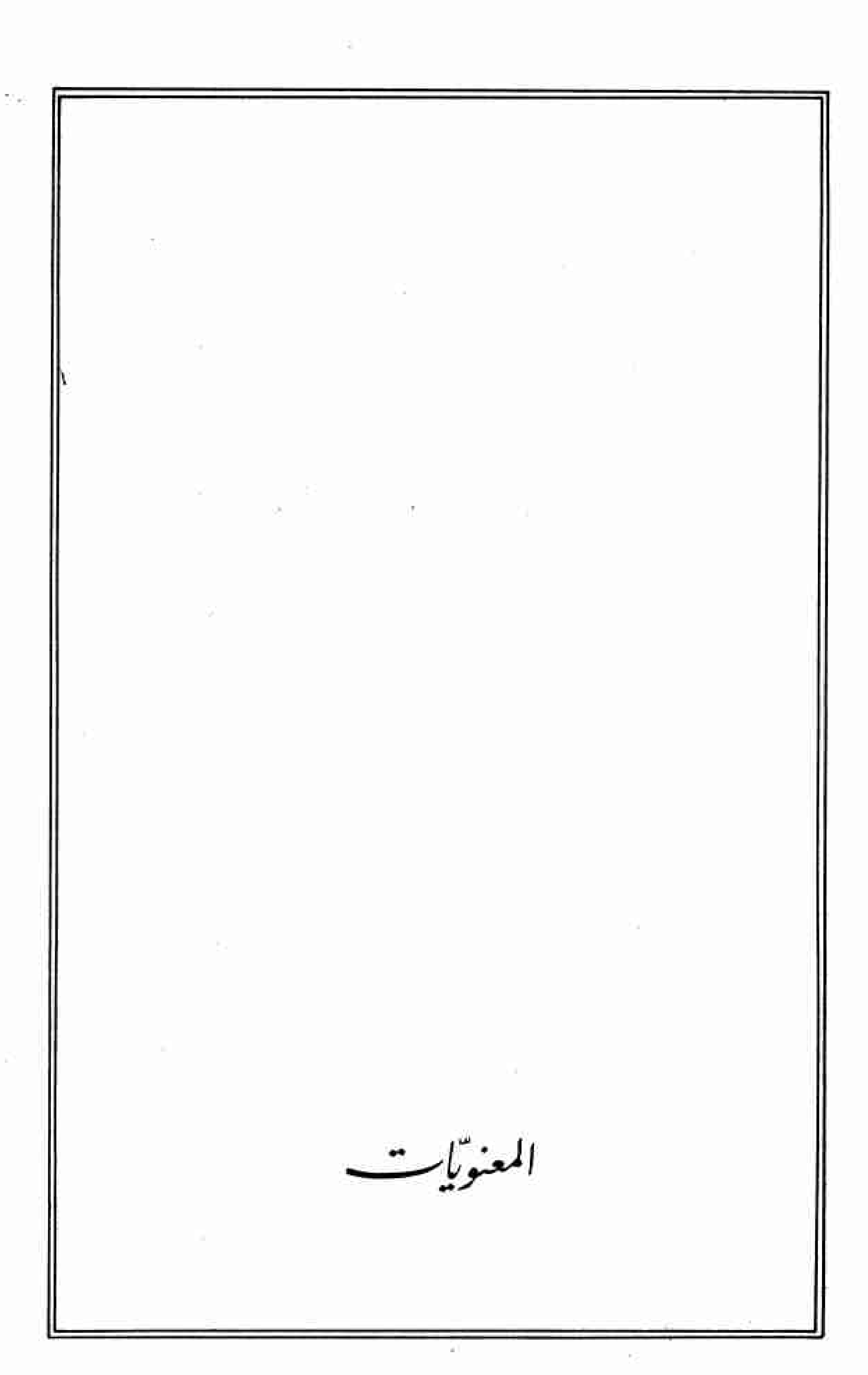
وحين أخص مجلة من المجلات بنشر أحد هذه الفصول ، أجد أن المجلات والصحف الأخرى تتناقله وتنشره على أوسع نطاق .

وكمثال على ذلك ، فقد أحصيت اثنتي عشرة مجلة نشرت فصل :

الإسلام والحرب النفسية ، وهو بحث ألقي في مؤتمر مجمع البحوث الاسلامية سنة ١٣٩٠ هـ . وما يقال عن هذا الفصل ، يقال عن الفصول الأخرى .

لذلك أردت أن أجمع هذه الفصول في كتاب ، ليكون مصدراً للخطيب في جامعه والضابط في ثكنته ، والأستاذ في جامعته والمعلم في مدرسته والشباب في كل مكان من أرجاء الوطن العربي .

والله أسأل أن يفيد بهذه الفصول وأن يجعلها خالصة لوجهه الكريم .



المعنويّات

١

أ ـ قبيل معركة اليرموك الحاسمة بين العرب المسلمين والروم في العام الثالث عشر من الهجرة[1] (٦٣٤ م)، قال رجل من المسلمين لخالد ابن الوليد : « ما أكثر الروم وأقل المسلمين » ! فقال خالد : « ما أقل الروم وأكثر المسلمين ! إنما تكثر الجنود بالنصر وتقل بالخذلان »[2] .

ومعنى ذلك ، أن الجيش ليس بعَدَده وعُدده بقدر ما هو بمعنوياته ، والجيش الذي لا يتحلى بالمعنويات العالية لا قيمة له في الحرب ، والفئة القليلة ذات المعنويات الرصينة ، تغلب الفئة الكثيرة ذات المعنويات المنهارة .

وقد كان نابليون بونابارت يقول : « قيمة المعنويات بالنسبة للقوى المادية تساوي ثلاثة على واحد » ، أي أنّ الجيش تكون قيمته ٧٥٪ في الناحية المعنوية و٢٥٪ في الناحية المادية .

وقد أيّد نابليون في قولته هذه كبار القادة العسكريين في الماضي ،

---

(١) إبن الأثير ٢ / ١٥٧ .

(٢) الطبري ٢ / ٥٩٤ .

والكثير من القادة العسكريين في الوقت الحاضر .

غير أن اللواء (فوللر) في كتابه : (الأسلحة والتاريخ) ، يخالف هذا الرأي ، لاختراع الأسلحة النووية والهيدروجينية ، وللتحسينات الهائلة التي طرأت على وسائل قذف هذه الأسلحة وعلى أساليب استعمالها .

وليس هناك شك ، في أنّ الأسلحة الحديثة ذات تأثير في الناحية المادية للجيوش الحديثة ، إذ جعلت نسبة هذه الناحية بالنسبة إلى الناحية المعنوية ٥٠٪ لكل منهما .

أي أنّ الناحية المعنوية لا تزال ذات قيمة عظيمة ، حتى بعد ظهور الأسلحة الجهنمية الحديثة ، وأنّ المعنويات كانت ولا تزال وستبقى عاملاً حاسماً من عوامل النصر .

لقد كان الجيش الايطالي في الحرب العالمية الثانية **(١٩٣٩ ـ ١٩٤٥)** مجهزاً بأحسن التجهيزات ، ومسلحاً بأفتك الأسلحة ، ومنظماً وفق أحدث أساليب التنظيم ، ومدرباً وفق أحدث أساليب التدريب ؛ إلا أنّ معنوياته لم تكن عالية بالرغم من كل ذلك ، لهذا كان الحلفاء يعتبرون المواضع التي يحتلها الجيش الايطالي فراغاً عسكرياً ، وكان هذا الجيش يستسلم بسهولة ويسر للحلفاء في كل معركة يخوضها .

لقد كانت الناحية المادية في الجيش الايطالي متميزة جداً ، ولكن الناحية المعنوية فيه كانت ضعيفة ، لذلك لا يمكن اعتباره جيشاً ذا قيمة عسكرية ضاربة . وما يقال عن الجيش الايطالي ، يقال عن كل جيش قديم أو حديث ، لا يتحلى بالمعنويات العالية .

ب ـ وفي الحروب القديمة ، أي الحروب التي خاضتها الشعوب قبل الحرب العالمية الثانية ، كان الجيش هو المسؤول الأول والأخير عن إحراز النصر .

أما في الحروب الحديثة ، ابتداء من الحرب العالمية الثانية ، فقد

أصبحت الحرب إجماعية[1] ، تحشد لها الأمم كل طاقاتها المادية والمعنوية ، لـذلك أصبـح الشعب كله مسؤولاً عن إحراز النصـر وليس الجيش وحـده، بالرغم من أنّ الجيش النظامي والإحتياطي بقي رأس رمح في الحرب .

إن الحرب (الاجماعية) ، تقتضي زج كل قادر على حمل السلاح في الحرب ودعم المحاربين بكل طاقات الشعب المادية ، لذلك كان إعلان الحرب معناه ، أن يكون الشعب كله ـ لا قواته المسلحة وحدها ـ في الصفوف الأمامية ، وخاصة بعد تطوير القوة الجوية ، واختراع الأسلحة النووية ، فقد أصبح كل مكان في البلاد المحاربة ساحة حرب ، لا تقل أهمية وخطراً عن الجبهة الأمامية في ميدان القتال .

لذلك أصبحت أهمية المعنويات في الشعب كأهميتها للجيش سواء بسواء .

كما أن الجيش من الشعب ، فاذا كانت معنويات الشعب عالية ، كانت معنويات الجيش عالية أيضاً ، والعكس صحيح .

من هنا تأتي أهمية المعنويات للشعب كله ، وتبرز ضرورة إدامة المعنويات في الشعب والجيش على حد سواء .

٢

ما هي المعنويات ؟

أ ـ كان تعريف المعنويات قبل الحرب العالمية الثانية : بأنها الصفات التي تميز الجيش المدرب المنقاد إلى أسس الضبط[2] عن العصابات المسلحة ،

---

(١) تسمى الحروب الاجماعية في قسم من الجيوش العربية الشقيقة : الحرب الشاملة او الحرب الاعتصابية .

(٢) الضبط : الطاعة العمياء . ويطلق عليه في قسم من الجيوش العربية الشقيقة : تعبير الانضباط .

وتتجلى بهذه الصفات الطاعة القائمة على الحب ، وتنمي الشجاعة ، وتظهر الصبر على المشاق ، وتبدي كل المزايا التي تجعل الجندي مطيعاً باسلاً صبوراً[1] .

وهذا التعريف يشمل الجيش وحده كما نرى ، لأن الحروب كانت حروب جيوش لا حروب أمم ، كما أصبحت في الوقت الحاضر .

ب ـ أما تعريف المعنويات اليوم ، فهو : القوى الكامنة في صلب الانسان ، التي تكسبه القابلية على الاستمرار في العمل ، والتفكير بعزم وشجاعة ، مهما اختلفت الظروف المحيطة به .

وهذا التعريف يشمل الشعب كله لا الجيش وحده .

وإذا أردنا إيضاح هذا التعريف وتبسيطه ، فيمكن القول بأن الفرد في الشعب ، يجب أن يكون شجاعاً لا يجبن ، قوياً لا يضعف ، عزيزاً لا يهون ، صامداً لا يتراجع ، صابراً لا ينهار ، متفائلاً لا يقنط ، مستعداً للتضحية بماله وروحه من أجل مثله العليا .

جـ ـ وكلمة المعنويات : ترجمة لكلمة (Morale) الانكليزية ، وقد ترجمت في أول الأمر الى : القوى الأدبية ، والى : الروحيات ، ثم شاع استعمالها في الجيش وخارجه بتعبير : المعنويات .

٣

فما هي عوامل رفع المعنويات ؟

أ ـ الدين : عامل الدين من أهم عوامل رفع المعنويات في الشعب ، خاصة بالنسبة للعرب . يقول ابن خلدون : « إن العرب لا يحصل لهم الملك

---

(١) الجغرافية العسكرية ١ / ١٨ ، طه الهاشمي ، بغداد ١٩٣٤ .

إلا بصبغة دينية من نبوة أو ولاية أو أثر عظيم »[1] .

لقد غرس الاسلام في نفوس العرب حب الضبط والنظام ، وحبب إليهم الاستشهاد في سبيل الحق ، وجعلهم يرون هذا الاستشهاد نصراً دونه كل نصر ، كما بعث فيهم الاعتزاز بالنفس ، والشعور بأن عليهم رسالة واجبة الأداء للعالم[2] .

وحّد الاسلام عقائد العرب ، ووحّد أعمالهم ، ووحد صفوفهم ، ونظمهم ، وغرس فيهم روح الضبط والطاعة ، وطهر نفوسهم ، ونقّى أرواحهم ، وخلق فيهم انسجاماً مادياً ومعنوياً[3] .

لقد وجد الاسلام بتعاليمه - التي تغرس الضبط والنظام في النفوس ، وتدعو الى توحيد الله تعالى ، وتوحيد الصفوف - أرضاً خصبة في العرب الذين كانت لهم خبرة طويلة في الحروب ، والذين لا يهابون الموت ويتعشقون الحرية ، فكان من فضل الإسلام على العرب ، أنه جمع شملهم ، ووحد قلوبهم ، وأشاع فيهم النظام والضبط ، وبذلك أصبحوا قوة هائلة وجدت لها (متنفساً) في توحيد الجزيرة العربية أولاً ، وفي الفتح الاسلامي ثانياً ، فحملوا رايات الاسلام شرقاً وغرباً : شرقاً الى أقصى الشرق ، وغرباً الى أقصى الغرب ، وحملوا أعباء الفتح الاسلامي وحدهم ، فكان لهم بتوفيق الله وتسديده فضل نشر الإسلام في البلاد المفتوحة شرقاً وغرباً[4] .

ولكن كيف رفع الاسلام معنويات العرب ؟

غرس الاسلام عقيدة الايمان بالقضاء والقدر ، وأن النفس لن تموت إلا بأجلها ، والمرء يموت في يومه ، سواء أكان ذلك في ساحات الوغى أم على فراشه الوثير .

---

(١) أنظر التفاصيل في مقدمة ابن خلدون ١ / ٢٦٦ ، بيروت ، ١٩٦٧ .
(٢) قادة فتح العراق والجزيرة ١٩ ، القاهرة ١٩٦٤ .
(٣) قادة فتح الشام ومصر ٢٧٢ ، بيروت ، ١٩٦٦ .
(٤) قادة فتح الشام ومصر ٢٧٤ .

وأمر الاسلام بالشجاعة والثبات والإقدام : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ، اذا لقيتم فئة فاثبتوا ﴾[1] ، وقال تعالى : ﴿ ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا ﴾[2] ، وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار . ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً الى فئة ، فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير ﴾[3] .

وحث الإسلام على (الطاعة) ، والطاعة هي روح الجندية : ﴿ وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ﴾[4] . . . وقال تعالى : ﴿ ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ﴾[5] .

وأمر الاسلام بالصبر : ﴿ ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم ﴾[6] . وقال تعالى : ﴿ اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله ﴾[7] ، وقال تعالى : ﴿ ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا ﴾[8] .

ذلك بإيجاز ما أمر الاسلام به من مزايا (فردية) هي نفسها المزايا الخالدة للجندي المتميز في كل مكان وزمان ، وهي في نفس الوقت لها أثر في (المجموع) لأنها تبني جيشاً مقاتلاً من الدرجة الأولى ، وشعباً قوياً ثابتاً لا يقهر أبداً .

ولكن الاسلام لم يقتصر على تربية (الفرد) ليتحلى بالمعنويات العالية ، بل شملت تعاليمه الأمة كلها ، فأمر بالوحدة وهي أساس القوة ، وحث على

---

(١) الآية الكريمة من سورة الأنفال ٨ : ٤٥ .
(٢) الآية الكريمة من سورة البقرة ٢ : ٢٥٠ .
(٣) الآية الكريمة من سورة الأنفال ٨ : ١٥ - ١٦ .
(٤) الآية الكريمة من سورة البقرة ٢ : ٢٨٥ .
(٥) الآية الكريمة من سورة النور ٢٤ : ٤٧ .
(٦) الآية الكريمة من سورة النحل ١٦ : ١١٠ .
(٧) الآية الكريمة من سورة آل عمران ٣ : ٣٠٠ .
(٨) الآية الكريمة من سورة الأنفال ٨ : ٤٦ .

الاستعداد الحربي ، وهو أساس النصر ، وأمر بالجهاد ـ وهو أساس القوة والنصر معاً .

أمر بالوحدة : ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ﴾[١] . وقال تعالى : ﴿ إن هذه أمتكم أمة واحدة ﴾[٢] .

وحث على الاستعداد الحربي : ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم ﴾[٣] .

وأمر بالجهاد بالأموال والأنفس : ﴿ انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ﴾[٤] ، وهو بالاضافة الى كل ذلك ، حث على اليقظة والحذر : ﴿ يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم ﴾[٥] ، وقال تعالى : ﴿ فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ﴾[٦] .

ذلك هو أثر الإسلام قبل الحرب وفي أثنائها في إعداد متطلبات النصر ، ومن أهم عوامل رفع المعنويات هو إحراز النصر في ميدان القتال .

ولكن أثر الاسلام يمتد الى ما بعد الحرب ، فلا يفسح مجلاً لانهيار المعنويات ، وذلك بالعمل على احباط محاولات العدو لاحراز النصر في مجالات الحرب النفسية ، لاكمال انتصاراته في الحرب .

والحرب النفسية ـ كما هو معلوم ـ تستهدف تحطيم المعنويات ، لأن الأمة التي تخسر الحرب وتحتفظ بمعنوياتها سليمة ، لا بد وأن تعيد الكرة على أعدائها ، وتنتصر عليهم في المدى البعيد أو القريب .

وليس هنا مجال تفصيل أهداف الحرب النفسية ، لأن ذلك يخرجنا عن

---

(١) الآية الكريمة من سورة آل عمران ٣ : ١٠٣ .
(٢) الآية الكريمة من سورة الأنبياء ٢١ : ٩٢ .
(٣) الآية الكريمة من سورة الأنفال ٨ : ٦٠ .
(٤) الآية الكريمة من سورة التوبة ٩ : ٤١ .
(٥) الآية الكريمة من سورة النساء ٤ : ٧١ .
(٦) الآية الكريمة من سورة النساء ١٠٢ .

الموضوع الذي نتصدى له اليوم .

ومع ذلك فإن الحرب النفسية ، لكي تحقق أهدافها في تحطيم المعنويات تستهدف بث الاشاعات المغرضة ، وتعمل على تفرقة الصفوف ، وتجعل اليأس والقنوط يدب في نفوس أبناء الشعب ، وتضخم نتائج نصر العدو ، وتخوف من استئناف القتال على اعتبار أنه يؤدي الى الموت والدمار والفقر والفاقة .

والإسلام يحارب الاشاعات ويأمر بمكافحة مروجيها وإخبار السلطات عنهم : ﴿ وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه الى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلاً ﴾[1] . وقال تعالى : ﴿ لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة ، لنغرينك بهم ، ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً ﴾[1]. وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبإ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين ﴾[2] .

والإسلام يعمل على رص الصفوف ، ويحارب التفرقة محاربة لا هوادة فيها : ﴿ إنما المؤمنون أخوة فأصلحوا بين أخويكم ﴾[3] . وقال تعالى : ﴿ فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً ﴾[4] .

والمسلم لا ييأس أبداً ولا يقنط من رحمة الله : ﴿ لا تقنطوا من رحمة الله ﴾[5] . وقال تعالى : ﴿ ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون ﴾[6] .

---

(١) الآية الكريمة من سورة النساء ٤ : ٨٣ .
(٢) الآية الكريمة من سورة الأحزاب ٣٣ : ٦٠ .
(٣) الآية الكريمة من سورة الحجرات ٤٩ : ٦ .
(٤) الآية الكريمة من سورة الحجرات ٤٩ : ١٠ .
(٥) الآية الكريمة من سورة آل عمران ٣ : ١٠٣ .
(٦) الآية الكريمة من سورة الزمر ٣٩ : ٥٣ .
(٧) الآية الكريمة من سورة الحجر ٥٦ .

وقال تعالى : ﴿ ولا تيأسوا من روح الله ، إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ﴾[١] .

والإسلام يذكر المسلمين بأن الأيام دول بين الناس ، يوم لك ويوم عليك : ﴿ وتلك الأيام نداولها بين الناس ﴾[٢] . وقال تعالى : ﴿ الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح ، للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم ﴾[٣] . وقال تعالى : ﴿ الذين قال لهم الناس : إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾[٤] .

والإسلام يقـرر أن الموت قدر ، وأن المرء لا يموت إلا بأجله الموعود : ﴿ وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله ﴾[٥] .

وهو يقرر أن الذي يموت مجاهداً فهو شهيد ، ومقام الشهداء من أعظم المقامات في الجنة : ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً ، بل أحياء عند ربهم يرزقون ﴾[٦] .

تلك هي معالجات الاسلام للحرب النفسية التي يريد بها العدو تحطيم المعنويات .

ولست أشك في أن العقائد الأخرى ، لا تطمع أن تصل الى ما وصل اليه الإسلام في رفع المعنويات قبل الحرب وفي اثنائها وبعدها .

من هنـا يجب أن يحرص المسؤولـون الرسميـون والمسؤولـون عن أهليهم ، أن يغرسوا مبادىء الدين الحنيف في النفوس والعقول معاً[٧] .

---

(١) الآية الكريمة من سورة يوسف ١٢ : ٨٧ .
(٢) الآية الكريمة من سورة آل عمران ٣ : ١٤٠ .
(٣) الآية الكريمة من سورة آل عمران ٣ : ١٧٢ .
(٤) الآية الكريمة من سورة آل عمران ٣ : ١٧٣ .
(٥) الآية الكريمة من سورة آل عمران ٣ : ١٤٥ .
(٦) الآية الكريمة من سورة آل عمران ٣ : ١٦٩ .
(٧) انظر تفاصيل أثر الدين في المعنويات مفصلاً في الفصل القادم : أثر الإسلام في إحراز النصر .

ب ـ **القيادة** : القيادة المتميزة ترفع المعنويات ، والقيادة الضعيفة تحطم المعنويات . ولا تقتصر القيادة على الناحية العسكرية فحسب ، ولو أن هذه القيادة لها القدح المعلى في الحرب ، بل تشمل القيادة بالاضافة الى القيادة العسكرية ، القيادة السياسية ، والقيادة الصناعية ، والقيادة الفكرية ، والقيادة العائلية . . . الخ .

فإذا كان كل أولئك الرعاة موضع ثقة رعيتهم ، فإن معنويات تلك الرعايا بخير ، وإلا فاقرأ على المعنويات الفاتحة .

لقد استيقظ الشعب العربي ، فهو يعرف قادته كل المعرفة . واستيقظ الجنود العرب ، فهم يعرفون قادتهم أعمق المعرفة . واستيقظ العمال العرب ، فهم يعرفون قادتهم أوثق معرفة ، واستيقظ المثقفون العرب ، فهم يعرفون مزايا قادة الفكر العربي غاية المعرفة . . .

والعائلة في الدار ، تعرف رب العائلة ، وتضعه في المكان الصحيح .

والقادة الذين يظنون أنهم يخفون حقيقة أمرهم ، مخطئون كل الخطأ ، أو واهمون كل الوهم ؛ فأمرهم مكشوف ، وحقيقتهم معروفة .

ولكن كيف يصبح القائد موضع ثقة رجاله ؟

يجب أن ينسى نفسه لأجلهم ، ويجب أن يفعل ما يقول ، وينفذ أوامره على نفسه ، قبل أن يطالب غيره بتنفيذها ، ويجب أن يكون عالماً بواجباته ، نزيهاً كل النزاهة ، متمسكاً بأهداب الخلق الرفيع ، حريصاً على أداء أعماله كل الحرص بأمانة وشرف ، حريصاً على مصير الذين هم تحت قيادته ، سريع القرار صائبه ، يتحمل المسؤولية ، ولا يحاول القاء تبعاتها على الآخرين ، يبادل رجاله حباً بحب وثقة بثقة ، يعرف مزاياهم فيولي الرجل المناسب العمل المناسب ، دون تحيز أو أنحراف ، له مبادىء معروفة سليمة ، يؤمن بها كل الإيمان ، ليست له شخصية مزدوجة ، يضحي بمصالحه من أجل رجاله ، ولا يضحي برجاله من أجل مصالحه ، لا يكل ولا يمل من العمل ، يساوي نفسه برجاله في حياته الشخصية ، ولا يستأثر دونهم بالغنم ، ويلقي

بالغرم عليهم ، له شخصية قوية نافذة ، ورأي واضح سليم ، وله ماض مشرف مجيد . . .

مثل هذا القائد ، يسير رجاله معه حتى الموت عن طيبة خاطر ودون تردد .

ومثل هذا القائد ، يرفع المعنويات الى عنان السماء .

ومثل هذا القائد ، يقود رجاله الى النصر بسهولة ويسر .

كان رجال خالد بن الوليد ، يفعلون الأعاجيب في ميدان القتال تحت رايته ، ذلك لأنه كان : ﴿ لا ينام ولا يُنيم ﴾ بالاضافة الى مزاياه القيادية الأخرى . وصدق الله العظيم : ﴿ ولينصرن الله من ينصره ، إنّ الله لقوي عزيز . الذين إن مكناهم في الأرض ، أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور ﴾[1] .

في هذه الآية الكريمة ، صفات القائد المنتصر ، بأسلوب رائع معجز ، ولكنه شامل كامل .

وأشهد أنني لم أقرأ حتى في الكتب المعتمدة الحديثة ، بحثاً عن صفات القائد المنتصر فيه كل هذه الروعة والدقة والايجاز والشمول .

جـ- النصر : النصر في ميدان الحرب ، والنصر في ميدان العلم ، والنصر في ميدان العمل ، وكل نصر في أي ميدان من الميادين يؤدي الى رفع المعنويات .

ولكن النصر له تكاليف ، وأولها التخطيط له ، والعمل الدائب ، لوضع ذلك التخطيط في حيز التنفيذ .

ولم يكتب النصر في أي ميدان لأحد ، دون الإعداد الكامل السليم لكل متطلبات النصر .

---

(١) الآيتان الكريمتان من سورة الحج ٢٢ : ٤٠ - ٤١ .

إن النصر لا يتحقق مطلقاً بالكلام الفارغ ، وبالادعاءات الكاذبة ، بل إن هذا الكلام وتلك الادعاءات بعد انكشاف حقيقتها ، تلحق أبلغ الضرر بالمعنويات .

الوعد بالنصر السريع مثلاً ، ثم تثبت الأحداث العكس ، يؤدي الى انهيار المعنويات .

وفي القضايا العسكرية ، يجب إنذار الجيش والشعب بما يمكن أن يحدث في الحرب فعلاً ، حتى لا يؤخذ الجميع على حين غرة ، فيؤدي ذلك الى زعزعة الثقة والمعنويات .

إن النصر يكون بالعرق والدموع والدماء ، ويكون بالبذل والتضحية والفداء .

أما الكلام وحده ، فلا يؤدي إلا الى الهزيمة .

إن الأعمال وحدها هي التي ترفع المعنويات ، أما الأقوال بدون أعمال فتدمر المعنويات . والعرب في هذه الظروف يحتاجون الى كثير من العمل وقليل من الكلام .

وقد سألني صديق قبل أيام قائلاً : لماذا سكت وقد ارتفعت الأصوات ؟

فقلت له : أخدم أمتي بصمتي ، حين يضرها غيري بالكلام .

وما عسى أن تفيد الأقوال ، خاصة إذا كذب الواقع الأفعال ؟

وصدق الشاعر :

السيف اصدق انباء من الكتب   في حده الحد بين الجد واللعب

إن انتصاراً واحداً للعرب على إسرائيل ، كفيل بأن يبدل معنوياتهم من حال الى حال .

وكل ادعاء يخالف ذلك هراء وإفتراء .

٤

قرأت في مذاكرات المرحوم طه الهاشمي ، أن (المس بيل) في العشرينيات من هذا القرن ، طالبت باستخدام الضباط المتقاعدين الذين خدموا في الجيش العثماني سابقاً في الجيش العراقي الذي كان في ابتداء تشكيله .

وأجابها المسؤول البريطاني الذي كان يعمل في السفارة البريطانية في حينه : « كيف نستخدم هؤلاء الضباط في الجيش العراقي الجديد ، وهم من هم وطنية وإخلاصاً » ؟؟

« إنهم سينشئون جيلاً وطنياً لا غبار عليه » .

وإبتسمت (المس بيل) بخبث وقالت : « لا تخش شيئاً ! إن المستر (فلاناً) في وزارة المعارف !!! وهو المسؤول عن تربية الجيل الجديد » !!

إن العرب يمتلكون عقيدة سامية تصون معنوياتهم في أيام السلام والحرب .

وقد حارب الاستعمار بوسائله الجهنمية هذه العقيدة ، وبذل كثيراً من الجهد والمال لتحقيق أهدافه الهدامة ، لأنه يعلم أن الأمة بدون عقيدة لا قيمة لها في الحياة ، ولا خطر منها على الاستعمار .

وكان من المتوقع أن يتبنى العرب عقيدتهم بعد نيل حريتهم ، ولكنهم لم يفعلوا شيئاً مذكوراً في هذا المجال !

هل يبنى الشعب العربي بإشاعة الفحشاء والمنكر بين أبنائه؟

هل يبنى الشعب هذا الشعب بالأغاني الخلاعية ، والأفلام الداعرة ، وقصص المخدع ، والاستهتار بالقيم الروحية ؟

ماذا فعلنا لغرس مبادىء الدين الحنيف في قلوب التلاميذ والطلاب في المدارس والجامعات ؟

ماذا فعلنا لغرس هذه المبادىء بين أبناء الشعب ؟

ماذا فعلنا لغرسها في نفوس العسكريين ؟

لقد كان إنتصار العرب المسلمين أيام الرسول القائد عليه أفضل الصلاة والسلام ، وفي أيام الفتح الإسلامي العظيم ، إنتصار عقيدة لا مراء .

لم ينتصر العرب والمسلمون مطلقاً بكثرة العدد ، وقد كان أعداؤهم متفوقين عليهم بالعَدد والعُدَد في كل معركة خاضوها ، وقد انتصرت الفئة القليلة من العرب المسلمين على الفئة الكثيرة من العرب غير المسلمين ، ومن الفرس والروم وحلفائهم ، بالعقيدة وحدها ، وأتحدى من يثبت خلاف ذلك . فلماذا نستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير؟

إنّ المعنويات عامل مهم من عوامل النصر ، بل هي أهم عامل من عوامل النصر على الاطلاق ، وهي التي تصون العُدّة وتجعل لها فاعليتها في يد الجيش .

ولا نصر بدون عقيدة منشئة بناءة ، تصاول في أيام السلام ، وتصمد في أيام الحرب ، وتكافح عوامل الحرب النفسية التي يشنها الأعداء .

إن الإسلام بالنسبة للعرب ، هو السلاح السري الذي جعلهم يقودون العالم قروناً طويلة في ميادين السياسة والحضارة والحرب .

فهل نستعمل هذا السلاح اليوم ، كما استعمله أجدادنا من قبل ، لننتصر كما انتصروا ولنقود العالم كما قادوه ، أم نبقى في مهب الرياح العاتية تتقاذفنا المبادىء والأفكار التي قد تنجح في الأمم الأخرى . ولكنها لن تنجح في الشعب العربي لأنها تنزعه من جذوره ، وقد أثبتُ الواقع العربي المرير هذه الحقيقة ؟

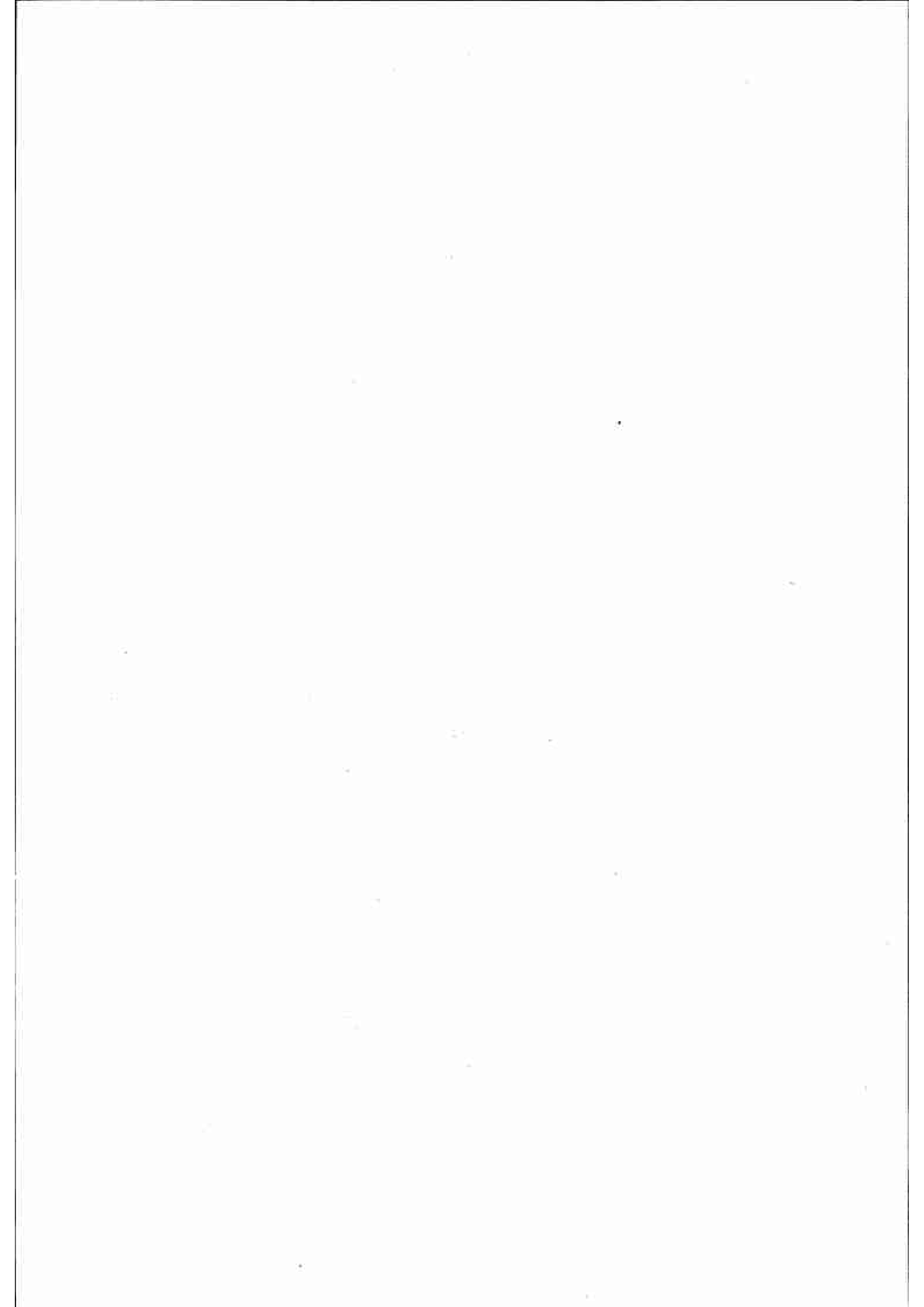
إن الوقت مع العرب على أعدائهم ، إذا سلكوا الطريق السوي . . .

وإنني لأبشر العرب بالنصر عاجلاً أو آجلاً ، ولكنني أطالبهم بتكاليف

النصر ، وأولها البذل والتضحية والفداء .

إنني أبشر العرب بالنصر ، ولكني لا أبشرهم بالراحة . والأيام القادمة ستكشف للعرب الحقائق الناصعة ، وكل آت قريب . وصدق الله العظيم : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ، أن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾[1] .

(١) الآية الكريمة من سورة محمد ٤٧ : ٧ .



أثر الاسلام في إحراز النصر

ذكر في الفصل السابق (المعنويات) ، أن الدين عامل من عوامل رفع المعنويات . وما أجملناه هناك نفصله هنا .

١

حارب النبي ﷺ في غزواته العرب المشركين وانتصر عليهم ، فلم يلتحق بالرفيق الأعلى إلا وكانت شبه الجزيرة العربية موحدة تحت لواء الإسلام .

كان جنود النبي ﷺ من العرب المسلمين ، قليلي العدد ، فقراء بالسلاح والقضايا الإدارية .

وكان أعداء الإسلام من العرب المشركين، كثيري العدد، أغنياء بالسلاح والقضيا الادارية .

كان التفوق العَددي والعُددي مع العرب المشركين على العرب المسلمين ، ولكن الفئة القليلة من العرب المسلمين ، غلبت الفئة الكثيرة من العرب غير المسلمين بإذن الله .

وفي أيام الفتح الاسلامي العظيم ، حارب العرب المسلمون الروم والغساسنة العرب في معركة (اليرموك) الحاسمة التي فتحت أبواب أرض الشام للمسلمين ، وحاربوا الفرس والمناذرة العرب في معركة (القادسية) الحاسمة التي فتحت أبواب أرض العراق للمسلمين ، وكان الغساسنة

والمناذرة من العرب الاقحاح ، وكانوا أعرق مدنية وأكثر حضارة ، وأغنى مالاً وسلاحاً ، وأعرف بأساليب القتال ، وأقرب إلى قواعدهم من أولئك العرب المسلمين القادمين من قلب الجزيرة العربية .

وإنتصر العرب المسلمون على العرب غير المسلمين ، وعلى غير العرب من يهود وروم وفرس وبربر في أيام الفتح الإسلامي العظيم ، لا لأنهم عرب وكفى ، بل لأنهم عرب مسلمون .

لقد كان إنتصار العرب المسلمين في عهد النبي ﷺ وفي أيام الفتح الاسلامي العظيم إنتصار عقيدة لا مراء .

فما أثر العقيدة الاسلامية في إحراز النصر ؟

٢

كان العرب في الجاهلية متخلفين سياسياً وإجتماعياً وإقتصادياً وعسكرياً ، فرفع الاسلام مكانتهم السياسية والإجتماعية والإقتصادية والعسكرية .

وكان الفرس والروم سادة العرب في العراق وأرض الشام واليمن ، وحتى الأحباش كانت لهم صولة وجولة ومكانة في اليمن ، فأصبح العرب بالإسلام سادة الفرس والروم والأحباش وسادة أمم أخرى لا تعد ولا تحصى من الصين شرقاً إلى قلب فرنسا غرباً ، ومن سيبيريا شمالاً الى المحيط الهندي جنوباً .

وكان العرب أقل حضارة ومدنية من الفرس والروم خاصة ، فأصبحوا بعد الإسلام قادة الحضارة العالمية ورواد المدنية في الدنيا .

وكانوا فقراء معدمين يسكنون الخيام في الصحراء ، فأصبحوا بعد الاسلام أغنياء مترفين يسكنون القصور والبيوت في الحواضر على ضفاف الانهار .

وكانوا من الناحية العسكرية لا يطمعون أن يحموا أرضهم من الفرس والروم وحتى من الاحباش ، فأصبحوا بعد الاسلام لا يطمع أحد في حماية أرضه من قوتهم القاهرة التي ملأت الأرض سماحة وعدلاً .

اذن كان للاسلام أثر أي أثر في العرب ، بدلهم من حال الى حال ، وجعل منهم أمة لها مكانتها ولها اعتبارها ولها تأثيرها في سير الأحداث الكبرى ، ولها كلمتها المسموعة بين الأمم .

ولعل الباحثين المنصفين من المسلمين وغير المسلمين ، يستطيعون أن يقولوا كثيراً عن أثر الاسلام في النواحي السياسية والاجتماعية والاقتصادية في العرب .

ولكنني سأقتصر هنا ، على أثر الاسلام في العرب من الناحية العسكرية فقط ، مذكراً أن العرب لو لم ينتصروا في الحروب ، ولو لم ترفرف راياتهم شرقاً وغرباً ، لما كانت لهم مكانة بين الأمم في النواحي السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، لذلك يمكن القول بأن أثر الاسلام عسكرياً في العرب هو الأساس الأول لمكانتهم السامية بين الأمم ، ذلك لأن الدول لا تحترم غير الأقوياء . وأن القوي وحده هو الذي يستطيع أن يؤثر في سير الاحداث العالمية ، سواء أكان هذا التأثير هدفه الخير للعالم ، أم هدفه الشر والخراب والدمار .

٣

كان في العرب أيام الجاهلية مزايا متميزة : الذكاء الفطري ، وحب الحرية والمساواة ، والشجاعة والاقدام ، والكرم والسخاء ؛ فعمل الاسلام على تطوير هذه المزايا وصقلها ، وأفاد منها ، ونجح في مسعاه أعظم النجاح .

وكان في العرب أيام الجاهلية صفات رديئة : تفرق كلمتهم ، وفقدان الضبط والنظام بينهم ، وعبادة الأوثان والأصنام ، وسيطرة روح القبلية عليهم ؛

فعمل الاسلام على محاربتها والقضاء عليها، وانتصر عليها انصاراً باهراً.

وصدق الله العظيم : ﴿ واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم ، فأصبحتم بنعمته إخواناً ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ﴾ (١) .

وكان العرب قبل الاسلام ، ماهرين في حروب العصابات ، وفي استعمال السلاح ، وفي الفروسية ، وكانت لهم قابلية عظيمة على الحركة من مكان الى آخر بسهولة ويسر ، وبأقل وقت ممكن ، وأقل تكاليف إدارية ، ولكنهم كانوا متفرقين ، بأسهم بينهم شديد :

وأحيانا على بكر أخينا اذا ما لم نجد الا أخانا

لهذا كانت خبرتهم الحربية وشجاعتهم الفطرية ، تذهب عبثاً في المناوشات المحلية بين القبائل .

كانت خبرتهم الحربية جهداً مضاعاً ، يضر ولا يفيد ويهدم ولا يبني .

فلما جاء الاسلام ، وحد عقائدهم ، ووحد أعمالهم ، ووحد صفوفهم ، ونظمهم ، وغرس فيهم روح الضبط والطاعة ، وطهر نفوسهم ، ونقى أرواحهم ، وخلق فيهم انسجاماً مادياً ومعنوياً ؛ فأصبحت ـ لذلك كله وبذلك كله ـ قوتهم المبعثرة ، وجهودهم المضاعة ، تعمل بنظام وضبط ، بقيادة واحدة ، لهدف واحد ، وأصبح المؤمنون في مشارق الارض ومغاربها أخوة ، يتحابون بنور الله بينهم ، وهم أمة واحدة ، تحيتها السلام ، ودينها الاسلام .

لقد كان الرسول ﷺ يؤم الفين في عمرة القضاء ، ومائة ألف في حجة الوداع ، يسيرون كلهم في نظام أدق نظام : هرولة ، ومشياً ، واستلاماً للركن والحجر الأسود ـ هذا النظام المتصل بروح الاسلام ، سبب من أسباب القوة ، بل هو مصدرها ، وملاكها ، وهذه الامامة يقوم بها رجل مطهر يؤمن

---

(١) آل عمران ١٠٣ .

أصحابه بصدقه ، هي روح هذه القوة وقوامها .

وفرضت الصلاة على المسلمين ، ثم قامت صلاة الجماعة التي أداها المسلمون وراء إمام واحد . ومن يرى المسلمين وهم مجتمعون صفوفاً للصلاة ، يؤدون ركعاتها وسجداتها في تناسق مدهش وفي نظام ووقار ، لا يمكن أن يغفل ما لهذه الصلاة المنظمة من قيمة تربوية في نفوس المسلمين .

إن العرب أُباة لا يخضعون لمشيئة خارجية ، ولكنهم كانوا يفتقرون الى الشعور التام بالطاعة والنظام ، فكانت لهذه الصلاة أهمية بالغة في (إيقاظ) روح النظام في نفوس العرب المسلمين ، لذلك غدا مكان الصلاة أول ميدان حقيقي للتدريب على النظام عند المسلمين .

ثم إن انتظام المسلمين في الصلاة ، شجع روح الوحدة بينهم ، وخلق بينهم شعوراً بالمساواة التي كانت أفكاراً جديدة على بلاد العرب ، إذ كانت الوحدة الموجودة حتى ذلك الوقت هي رابطة الدم ، فأصبحت الوحدة السائدة هي وحدة العقيدة .

لقد وجد الاسلام بتعاليمه التي تغرس الضبط والنظام في النفوس ، وتدعو الى توحيد الله وتوحيد الصفوف ، أرضاً خصبة في العرب الذين كانت لهم خبرة طويلة في الحروب ، والذين لا يهابون الموت ويتعشقون الحرية ، فكان من فضل الاسلام على العرب ، انه جمع شملهم ، ووحد قلوبهم ، وأشاع فيهم النظام والضبط ، وبذلك أصبحوا قوة هائلة وجدت لها (متنفساً) في توحيد شبه الجزيرة العربية أولاً ، وفي الفتح الاسلامي ثانياً .

٤

والمعروف أن الجندي لا يمكن أن يقاتل في الحروب قتالاً مستميتاً ، ويضحي بروحه مقبلاً غير مدبر ، إلا إذا كان يؤمن بعقيدة تدفعه الى التضحية والفداء ، وتجعله صابراً في البأساء والضراء وحين البأس .

والجندي الذي يقاتل بغير عقيدة ، لا يمكن أن يصمد في الميدان أبداً .

وما يقال عن الجندي ، يقال عن الجيش ، ويقال عن الشعب أيضاً ، فليس الجيش إلا مجموعة من الجنود ، وليس الجيش الا جزءاً من الشعب .

فما أثر تعاليم الاسلام في العرب ؟

لا شك أن هذه التعاليم ، رفعت المستوى العقلي للعرب الى درجة كبيرة ، فهذه الصفات التي وصف الاسلام بها الله سبحانه وتعالى ، نقلتهم من عبادة أوثان وما يقتضيه ذلك من انحطاط في النظر واسفاف في الفكر - الى عبادة إله وراء المادة : ﴿ لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار﴾[1] .

كان الإله عند أكثرهم إله قبيلة ، وإن اتسع سلطانه فإله قبائل أو إله العرب ، فأبانه الاسلام إله العالمين ، ومدبر الكون وبيده كل شيء وعالماً بكل شيء ؛ فاستطاع العربي بهذه التعاليم أن يرقى الى فهم إله لا مادة له ، واسع السلطان ، واسع العلم وأفهمهم الاسلام أن دينهم خير الأديان ، وأن العالم حولهم في ضلال ، وأن نبيهم نبي الناس جميعاً ، وأنهم ورثته في حمل دعوته الى الأمم ، فكان ذلك من البواعث على غزو هذه الأمم يدعونهم الى دينهم ويبشرونهم به ، فمن دخل فيه كان كأحدهم ، له ما لهم ، وعليه ما عليهم .

وكان لعقيدة اليوم الآخر ودار الجزاء والجنة والنار ، أثر عظيم في بيع كثير منهم نفوسهم في سبيل نشر الدعوة : ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون في سبيل الله ، فيقتلون ويقتلون ، وعداً عليه حقاً في التوراة والانجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله ، فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم﴾[2] .

وكان للاسلام أثر كبير في تغيير قيمة الاشياء والاخلاق في نظر العرب ، فارتفعت قيمة أشياء ، وانخفضت قيمة أخرى ، وأصبحت

(١) سورة الانعام ١٠٣ .

(٢) سورة التوبة آية ١١١ .

مقومات الحياة في نظرهم غيرها بالأمس .

إن الاسلام رسم للحياة مثلاً أعلى غير المثل الأعلى للحياة في الجاهلية ، وهذان المثلان لا يتشابهان وكثيراً ما يتناقضان . فالشجاعة الشخصية ، والشهامة التي لا حد لها ، والكرم الى حد الاسراف ، والاخلاص التام للقبيلة ، والقسوة في الانتقام والأخذ بالثأر ممن اعتدى عليه أو على قريب له أو على قبيلته بقول أو فعل - هذه المثل التي كانت أصول الفضائل عند العرب الوثنيين ، أصبحت في الاسلام الخضوع لله والانقياد لأوامره ، والصبر ، واخضاع منافع الشخص ومنافع قبيلته لأوامر الدين ، والقناعة وعدم التفاخر والتكاثر وتجنب الكبر والعظمة - هي المثل العليا للمسلم في الحياة (1) .

إن الاسلام ، صهر نفسية العربي ، ونفى عنها الخبث ، فأصبح العربي المسلم لا يكذب ولا يسرق ولا يزني ولا يخون ولا يغش ولا يتجسس ، يخلص لعقيدته أكثر مما يخلص لنفسه ، ويطيع أوامر الله ورسوله وأولي الأمر ما أطاعوا الله ، وبذلك أصبح فرداً مفيداً باع نفسه لله إخلاصاً لعقيدته .

هذا العربي المسلم ، بهذه المزايا النادرة ، أصبح بدون شك ، عنصراً مفيداً كل الفائدة لتكوين أمة صالحة : تعبد رباً واحداً ، وتعمل بانسجام وتعاون ونكران ذات ، لتحقيق هدف واحد ، هو أن تكون كلمة الله هي العليا .

لقد تصرف العربي المسلم فرداً تصرفاً لا يزال يعتبر من الأعمال الفذة النادرة في حياة البشر : تحمل التعذيب والموت صابراً راضياً مطمئناً ، وترك أهله وماله مهاجراً الى الله ورسوله ، وضرب بمصلحة أهله الأقربين وعشيرته وقبيلته عرض الحائط حين وجدها تعارض مصلحة عقيدته العليا .

وتصرف العربي المسلم ضمن المجموع من أمته تصرفاً لا يزال يعتبر

---

(1) أنظر ، فجر الاسلام ١ / ٩٣ - ٩٥ ، أحمد أمين .

حتى اليوم مفخرة من المفاخر : اندفع يجاهد في سبيل نشر عقيدته وحمايتها ، فخرجت القوة المؤمنة التي اختزنتها الصحراء عبر الاجيال ، تحمل راية الله سبحانه وتعالى وتبلغ عن أمره ، فتتابعت انتصاراتها الباهرة ، فلم يشهد التاريخ في احقابه المديدة انتصارات مظفرة وفتحاً (مستداماً) مثلما شهد انتصارات الفتح الاسلامي [1] .

تلك هي العقيدة التي جعلت العربي المسلم يقاتل قتالاً مستميتاً ، ويضحي بروحه من أجلها .

وهذه العقيدة هي التي دفعت العربي المسلم الى التضحية والفداء ، وجعلته صابراً في البأساء والضراء وحين البأس .

وهذه العقيدة هي التي قادته من نصر الى نصر ما دام متمسكاً بها ، فلما أعرض عنها لم ير النصر بعينه أبداً .

٤

فكيف يربي الاسلام ملكة الجندية الحقة في المسلم فرداً وفي المسلمين جيوشاً وأمة ؟

هناك صفات خالدة للجندي الحق هي التي تميز الجندي الأمين عن الجندي المزيف الذي لا قيمة عسكرية له .

وهنا لا بد لي من أن أذكر ، بأنه ليس كل من ارتدى البزة العسكرية، وقضى ردحاً من الزمن في الجيش أصبح جندياً حقاً .

بل لا بد أن تتوفر في الجندي صفات معينة ، ليكون جندياً يفيد ولا يضر ، ويبني ولا يهدم ، ويقاتل ولا يفر .

---

(١) انظر التفاصيل في كتابنا : قادة فتح الشام ومصر ٢٦٧ - ٢٧٦ .

من هذه الصفات الطاعة ، والطاعة هي ما نطلق عليه في المصطلحات العسكرية الحديثة تعبير : الضبط [١] .

والضبط : معناه إطاعة الأوامر وتنفيذها نصاً وروحاً بدون تردد وعن طيبة خاطر وبحرص وأمانة واخلاص .

لقد وردت كلمة (طاع) ومشتقاتها في تسع وعشرين ومائة آية من آيات القرآن الكريم . قال تعالى : ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾ [٢] وقال تعالى : ﴿ ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ﴾ [٣] ، وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم ﴾ [٤] .

والفرق الكبير بين الجندي الجيد والجندي الرديء ، هو ان الأول مطيع والثاني غير مطيع ، أي أن الأول يتحلى بالضبط المتين ، والثاني قليل الضبط ، كما يعبر عن ذلك العسكريون المحدثون .

وقد ضرب السلف الصالح أروع الأمثال بالطاعة لله ولرسوله ولأولي الأمر ، وتاريخ الصدر الأول من الإسلام مليء بأمثلة الطاعة التي أدت بالكثير من المسلمين الى التضحية بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله .

كما أن الفرق الكبير بين الجيش والمدنيين ، هو أن الجيش يتحلى بالضبط المتين ، ولا جيش بدون ضبط ، ولا ينتصر جيش في الحرب بدون ضبط مهما يكن حسن التنظيم كامل التجهيز جيد التدريب قوي القيادة .

٦

ومن صفات الجندي الخالدة : (الصبر) على المشقات العسكرية وفي الميدان .

---

(١) يطلق على كلمة : الضبط في قسم من الجيوش العربية كلمة : الانضباط .

(٢) سورة النساء الآية ٨٠ .

(٣) من سورة النور الآية ٤٧ .

(٤) من سورة النساء الآية

وقد ورد كلمة (صبر) ومشتقاتها في ثلاث ومائة آية من آيات القرآن الكريم. قال تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله ﴾ (١) ، وقال تعالى : ﴿ ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا ﴾ (٢) ، وقال تعالى : ﴿سلام عليكم بما صبرتم ، فنعم عقبى الدار﴾ (٣) ، وقال تعالى : ﴿ولئن صبرتم لهو خير للصابرين ﴾ (٤) ، وقال تعالى : ﴿ ثم جاهدوا واصبروا ، إن ربك من بعدها لغفور رحيم ﴾ (٥) .

ومن صفات الجندي الخالدة : الثبات في الحرب .

والثبات له معنيان : الاول الثبات الى آخر إطلاقة وآخر رمق ، فليس جندياً من يفر أو يستسلم للعدو ومعه سلاح وعتاد ، حتى يتحطم سلاحه وينفد عتاده .

والثاني الشجاعة في مجابهة العدو والقتال بتصميم وعناد .

وقد وردت (ثبت) ومشتقاتها في ثماني عشرة آية من آيات الذكر الحكيم. قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم فئة فاثبتوا ﴾ (٦) ، وقال تعالى : ﴿وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام ﴾ (٧) ، وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾ (٨) ، وقال تعالى : ﴿ ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا ﴾ (٩) وقال تعالى : ﴿ ربنا أغفر لنا ذنوبنا واسرافنا في أمرنا ، وثبت أقدامنا﴾ (١٠)، وقال تعالى : ﴿ إذ يوحي ربك الى

---

(١) سور آل عمران الآية ٢٠٠ .
(٢) سورة البقرة الآية ٢٥٠ .
(٣) سورة الرعد الآية ٢٤ .
(٤) سورة النحل الآية ١٢٦ .
(٥) سورة النحل الآية ١١٠ .
(٦) سورة الانفال الآية ٤٥ .
(٧) سورة الانفال الآية ١١ .
(٨) سورة محمد آية ٧ .
(٩) سورة البقرة آية ٢٥٠ .
(١٠) سورة آل عمران آية ١٤٧ .

الملائكة اني معكم ، فثبتوا الذين آمنوا ﴾ [1] .

أما الشجاعة وهي من أهم صفات الجندي، فيكفي أن نذكر أن المسلم لا يجبن أبداً ، وأن التولي يوم الزحف بالنسبة للمسلم من الكبائر ، قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولـوهم الأدبار، ومن يولهم يومئذ دبره الا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة ، فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير﴾ [2] .

وجعل التولي يوم الزحف من صفات الكفار والمنافقين ، قال تعالى : ﴿ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار ثم لا يجدون ولياً ولا نصيراً ﴾ [3] ، وقال تعالى : ﴿ لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ، ولئن قاتلوا لا ينصرونهم ، ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون﴾ [4] ، وقال تعالى : ﴿ لن يضروكم إلا أذى ، وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار﴾ [5] ، وقال تعالى : ﴿ ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار ، وكان عهد الله مسئولاً﴾ [6] .

ولست أعرف عقيدة سماوية ولا أرضية حثت على الشجاعة حثاً حاسماً جازماً كما فعلت العقيدة الاسلامية ، ويكفي أنها أخرجت الجبناء من حظيرة المؤمنين ، فالجبن والاسلام على طرفي نقيض وهما ضدان لا يجتمعان .

وإذا كانت الشجاعة هي التي تؤدي الى إحراز النصر ، أو هي من أهم عوامل النصر على الاطلاق ، فان الشجاعة في العقيدة الاسلامية هي مزية من مزايا المسلم الذي لا يكون مسلماً بدونها .

---

(١) سورة الأنفال آية ١٢ .
(٢) سورة الأنفال آية ١٥ - ١٦ .
(٣) سورة الفتح آية ٢٢ .
(٤) سورة الحشر آية ١٢ .
(٥) سورة آل عمران آية ١١١ .
(٦) سورة الأحزاب آية ١٥ .

٧

ومن صفات الجندي الخالدة الحذر واليقظة .

قال تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم﴾[١] ، وقال تعالى : ﴿فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم﴾[٢] ، وهي صلاة الخوف كما يعبر عنها الفقهاء .

وإذا كان الجندي حذراً يقظاً ، صعب على عدوه أن ينال منه أو أن يباغته ليقضي عليه ، والمباغتة مبدأ من أهم مبادىء الحرب .

وليس جندياً حقاً من ينام عن عدوه ، لأن المبدأ السليم في الحرب هو إدخال أسوأ الاحتمالات في الحساب .

وتطبيقاً لمبدأ الحذر واليقظة ، كان المسلمون الأولون في الحرب لا ينامون ولا ينيمون . . .

وما أصدق المثل العربي القائل : « إذا كان عدوك نملة ، فلا تنم له » .

والاستهانة بالعدو اعتماداً على الكثرة الكاثرة والعدد العديد ، يؤدي الى الكوارث في الحرب ، وقد علمنا الله سبحانه وتعالى درساً عسكرياً سجله القرآن الكريم ، فقال تعالى : ﴿ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ، ثم وليتم مدبرين﴾[٣] .

إن الاستهانة بالعدو تؤدي الى الهزيمة ، ومن حق المنتصر أن يستهين بعدوه بعد إحراز النصر عليه ، أما قبل المعركة فلا بد أن يدخل في حسابه عن عدوه أسوأ الاحتمالات .

---

(١) سورة النساء آية ٧ .
(٢) سورة النساء آية ١٠٢ .
(٣) سورة التوبة آية ٢٥ .

٨

ومن تلك الصفات الخالدة للجندي الحق ، أن يجاهد بماله ونفسه في سبيل مثله العليا .

وقد وردت كلمة (جهد) ومشتقاتها في إحدى وأربعين آية من آيات الذكر الحكيم . قال تعالى : ﴿ تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله ﴾[١] ، وقال تعالى : ﴿ الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله ﴾[٢] ، وقال تعالى : (وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله)[٣] ، وقال تعالى : ﴿ وفضّل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً ﴾[٤] .

وقد فرض الاسلام على المتخلف عن الجهاد عقاباً نفسياً في الدنيا ، إذ يهجر المتخلف أهله حتى زوجه ، كما يهجره المسلمون جميعاً ويقاطعونه ، وينظر اليه المجتمع الاسلامي نظرة احتقار وازدراء . قال تعالى : ﴿ وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى اذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم ، وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا اليه ثم تاب عليهم ليتوبوا ﴾[٥] .

إن عقاب المتخلف عن الجهاد في الاسلام يقتصر عليه فقط ولا يشمل أهله وعشيرته ولا سكان قريته ، كما حدث في القرن العشرين عند بعض الدول الكبرى ، إذ نزل العقاب الصارم بأهل المتخلف وعشيرته وحتى بأهل قريته في بعض الأحيان .

ويهمنا أن نعرف أن كثيراً من عوائل المتخلفين أبيدت عن بكرة أبيهم

---

(١) سورة الصف آية ١١ .
(٢) سورة التوبة آية ٢٠ .
(٣) سورة التوبة آية ٤١ .
(٤) سورة النساء آية ٩٥ .
(٥) سورة التوبة آية ١٨ .

في الدول التي طبقت الحرب الاجماعية خلال الحرب العالمية الثانية في القرن العشرين .

أما في الإسلام ، فقد عاقب المتخلف وحده عقاباً نفسياً صارماً ، فأين هذا العقاب الذي طبقه المسلمون على المتخلف في القرن الأول الهجري من هذا العقاب الذي طبقته أرقى الدول في القرن الرابع عشر الهجري ؟

لقد سبق الاسلام الأمم بتعاليمه العسكرية قروناً طويلة ، ولكن . . .
يا ليت قومي يعلمون !

٩

عمل الاسلام على تقوية معنويات[١] المجاهدين . قال تعالى : ﴿ يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال﴾[٢] .

وحث الاسلام على الاهتمام بإعداد القوة المادية ، قال تعالى : ﴿ ودّ الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة﴾[٣] ، وقال تعالى : ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف اليكم وأنتم لا تظلمون﴾[٤] .

كما حث الاسلام على إنشاء المعامل الحربية لصنع الأسلحة ، وذكر بالحديد بصورة خاصة للاستفادة منه للأغراض العسكرية : ﴿ وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوي عزيز﴾[٥] .

---

(١) انظر بحث المعنويات .
(٢) سورة الانفال الآية ٦٥ .
(٣) سورة النساء الآية ١٠٢ .
(٤) الانفال الآية ٦٠ .
(٥) الحديد الآية ٢٥ .

وأعد الاسلام تنظيمات عملية للاعفاء من الجندية ، وإعلان الحرب : والدعوة الى الجهاد ، وتطهير الجيش وأساليب القتال وقضايا الكتمان ، والهدنة ، والصلح ، والاسرى والمحافظة على العهود .

فقد حصر الاسلام أسباب الاعفاء من الجندية في الضعف ويشمل : المرض والعجز والشيخوخة وعدم القدرة على الانفاق ، قال تعالى : ﴿ ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج اذا نصحوا لله ورسوله ﴾[1] . وقد نصت الآية على عدم القدرة على الانفاق لأن الجندي كان يلتزم حينذاك بنفقته وأدوات حربه ، وقد زال هذا السبب الآن . . .

وحذر القرآن الكريم . من انتهاز غفلة العدو المعاهد وأخذه على غرة غدراً ، قال تعالى : ﴿ وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء أن الله لا يحب الخائنين ﴾[2] ، فتطلب الآية الكريمة طرح العهد عند توجس الشر من العدو ، وتطلب أن يكون هذا النبذ صريحاً .

وحذر الاسلام من التباطؤ في تلبية داعي الجهاد والتثاقل عنه . قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ما لكم اذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم الى الارض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ، فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل . إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم ولا تضروه شيئاً ، والله على كل شيء قدير﴾[3] .

وأمر بتطهير الجيش من عناصر الفتنة والخذلان ، ومن الذين يختلفون عن أفراده بالعقيدة ، حتى يكون الجيش كله مؤمناً بعقيدة واحدة ، يعمل لتحقيقها ، ويبذل كل ما يملكه في سبيلها ، وبذلك يستطيع الفوز في الحرب، قال تعالى: ﴿ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلاً﴾[4] وقال: ﴿ولكن

---

(١) التوبة الآية ٩١ .
(٢) الإنفال الآية ٥٨ .
(٣) التوبة الآية ٣٨ـ ٣٩ .
(٤) الاحزاب الآية ٢٠ .

كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين . لو خرجوا فيكم ما زادوكم الا خبالاً ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم ﴾.

ونظم الاسلام المواضع الدفاعية موزعاً المقاتلين على تلك المواضع : ﴿وإذ غدوت من أهلك تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال﴾[١] .

وابتكر الاسلام أسلوباً جديداً في القتال لم تكن العرب تعرفه من قبل هو أسلوب الصف ، إذ كانت تقاتل بأسلوب الكر والفر : ﴿ إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً﴾[٢] . ويطلق اسم هذا الاسلوب من القتال على سورة من سور الذكر الحكيم ، هي سورة الصف .

ويحذر الاسلام من إذاعة الأسرار العسكرية ، ويجعل اذاعتها من شأن المنافقين ، ويطالب المؤمنين بالرجوع الى القيادة العامة ، كما يطالبهم بالتثبت مما يصلهم من أنباء قبل الركون اليها والعمل بها : ﴿ لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً﴾[٣] . وقال تعالى : ﴿ واذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف اذاعوا به ولو ردوه الى الرسول والى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ﴾ سورة النساء الآية ٨٣ .

وأمر الاسلام بتلبية دعوة السلم ووقف الحرب اذا جنح اليها الاعداء ، وظهرت منهم علامات الصدق والوفاء . قال تعالى : ﴿ وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم . وان يريدوا أن يخدعوك فان حسبك الله﴾[٤] .

---

(١) آل عمران الآية ١٢١ .

(٢) الصف الآية ٤ .

ويمكن أن نطلق الصف الآن على كل تنظيم حربي يراه القائد في وضع الجيش المحارب تجاه عدوه دون أن نتمسك بحرفية الصف الواحد والمهم هو التماسك والتعاون في الجيش المحارب وأسلحته المختلفة .

(٣) الاحزاب الآية ٦٠ .

(٤) سورة الانفال الآية ٦١ - ٦٢ .

وخيّر الاسلام القائد بين أن يمن على الأسرى ويطلقهم من غير فدية أو مقابل ، أو يأخذ منهم الفدية من مال ورجال وذلك حسب اقتضاء المصلحة . قال تعالى : ﴿ فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا اثختنموهم فشدوا الوثاق فاما مناً بعد وإما فداء﴾[1] .

وحث الاسلام بصورة خاصة على المحافظة على العهود ، وأوجب الوفاء بها ، وحرّم الخيانة فيها ، والعمل على نقضها ، وأرشد الى أن القصد منها إحلال الأمن والسلم ، محل الاضطراب والحرب ، وحذر أن تكون وسيلة للاحتيال على سلب الحقوق والوقيعة بالضعفاء . قال تعالى : ﴿ وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً إن الله يعلم ما تفعلون . ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً تتخذون ايمانكم دخلاً بينكم أن تكون أمة هي أربى من أمة﴾[٤] .

١٠

هذا غيض من فيض مما جاء في القرآن الكريم من آيات كريمة لتربية الجندي فرداً ولتربية الجيش جماعات.

ومما ذكرنا يتضح أن الجندي المسلم لا يكذب ولا يسرق ولا يزني ولا يخون ولا يغش ولا يتجسس على جيشه، يخلص لواجبه أعظم الاخلاص، وينسى نفسه في سبيل المصلحة العليا للمسلمين. يتحلى بالضبط المتين، فيطيع الأوامر وينفذها بأمانة وإخلاص واندفاع. يصبر في البأساء والضراء وحين البأس، ويتحمل المشاق العسكرية صابراً محتسباً، يتصفُ بالشجاعة والاقدام، ويثبت في الميدان ولا يفر أبداً، ولا يولي يوم الزحف، حذراً يقظاً،

---

(١) سورة محمد الآية ٤ .

(٢) سورة النحال الآية ٩١- ٩٢ .

لا يستهين بعدوه، يجاهد بماله وروحه في سبيل الله، ولا يتخلف عن الجهاد مطلقاً.

هذا الجندي المسلم، بهذه الصفات الرائعة، هو بالتأكيد عنصر مفيد في جيش له تعاليمه المتينة الرصينة في التنظيم وفي التجنيد وفي الدعوة إلى الجهاد. في جيش نقي من الدخلاء والملوثين، لا يغدر ولا يخون ولا يجور على أحد، له تعاليمه القوية في القتال وفي السلام، وفي التمسك بالعهود والمواثيق، وفي معاملة الأسرى معاملة انسانية رفيعة.

هذا الجيش الذي يعد كل متطلبات القتال سلاحاً وعتاداً وقضايا إدارية ومعامل عسكرية، لا يمكن أن يغلب أبداً.

غزوات النبي ﷺ، والفتح الاسلامي العظيم، خير شاهد على ما نقول.

لقد انتصر المسلمون الأولون، لأنهم كانوا ترجمة عملية تمشي على الارض لتعاليم الدين الحنيف.

وحين أعرض المسلمون عن دينهم، وتركوا تعاليمه السماوية، تداعت عليهم الأمم، وأصبحوا غثاء كغثاء السيل.

لقد أعزهم الله بالاسلام، ولن يعزوا بغيره.

والاسلام ليس نسباً ولا إرثاً ولا منطقة جغرافية، بل هو عمل وتضحية وفداء.

والمسلمون الذين يصومون ويصلون ويؤدون الفرائض، ثم يقعدون عن الجهاد في سبيل الله، حينما يكون الجهاد فرض كفاية أو فرض عين، ليسوا مسلمين حقاً.

وصدق رسول الله ﷺ: «من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو، مات على شعبة من النفاق».

١١

والسؤال الكبير الذي يدور على كل لسان اليوم: لماذا اندحرنا في فلسطين؟

وأسباب الاندحار كثيرة، من أهمها أن العرب تخلوا عن عقيدتهم السمحاء.

إنه لا جيش قوي بدون معنويات عالية، وقد اثبتت الاحداث، أن معنويات الجيوش العربية لم تكن عالية بحيث تتحمل أعباء حرب طويلة الأمد بثبات وتضحية وفداء.

لم يكن من المتوقع مطلقاً، أن تنهار الجيوش العربية بهذه السرعة المذهلة، والقول بأن تفوق اسرائيل بالقوة الجوية لا يسوِّغ أبداً سرعة انهيار الجيوش العربية بشكل يندى له الجبين.

وقد تعلمنا من دروس تاريخ الحرب، أن المعنويات أقوى من السلاح، وأن الجيش الذي يتحلى بالمعنويات العالية ينتصر في النهاية مهما طال الأمد على أعدائه.

إن المعنويات ترتكز أولاً وآخراً على العقيدة، فما هي العقيدة التي كانت الجيوش العربية تؤمن بها؟

هل هي المبادىء المستوردة شرقية كانت أم غربية؟!

هل هي الشعارات التي لم تتجاوز اللسان هتافاً وصراخاً والتي لم تخالط القلب والوجدان؟!

هل هي عبادة الاشخاص والعمل من أجل الامجاد الشخصية؟!

كل تلك الأمور وأمثالها لا يمكن أن تسمى عقيدة منشئة بناءة، يمكن أن يضحي الجندي في سبيلها بروحه مقبلاً غير مدبر، والروح أغلى ما يملكه الانسان.

إن العرب يمتلكون عقيدة هي أقوى العقائد وأصلبها، وقد قادت العرب إلى النصر وإلى قيادة العالم قروناً طويلة.

وهذه العقيدة، تحث على الجهاد بالمال والنفس، وتحث على الشجاعة والإقدام، وتأمر بالصبر والثبات، وتنهي عن التولي يوم الزحف، وتغرس في النفوس الطاعة.

ولست أعرف عقيدة غير الاسلام، تبني كل هذه الفضائل العسكرية في العقول والنفوس معاً..

فماذا فعلنا لغرس هذه العقيدة في أبناء الشعب قاطبة ومنهم الجيش؟

لا شيء، أبداً.. لا شيء على الاطلاق...

لقد حارب الاستعمار بوسائله الجهنمية هذه العقيدة، وبذل كثيراً من الجهد والمال لتحقيق أهدافه الهدامة، وكان ما بذله الاستعمار أمراً طبيعياً بالنسبة لأهدافه، لأنه يعلم أن الأمة بدون عقيدة، لا قيمة لها في الحياة ولا خطر منها عليه.

وكان من المتوقع أن يتبنى العرب عقيدتهم بعد نيل حريتهم، ولكن العكس حدث تماماً، فقد بدأ حكام العرب أول ما بدأوا بمحاربة عقيدتهم، فنفذوا عن طيبة خاطر وبحماسة شديدة أهداف المستعمرين.

لقد حاربت جيوشنا بدون عقيدة، لذلك فرت بعد الصدمة الأولى بشكل لم يسبق له نظير.

ولو أن العسكريين استقر في نفوسهم، أن الرجل لا يموت إلا بأجله الموعود، وأن الشهادة في سبيل الله من أعظم الدرجات، وأن الفرار يوم الزحف من الكبائر، وأن الجهاد أفضل العبادات، وأن جهاد ساعة خير من عبادة ستين عاماً.

لو استقر في أذهان العسكريين مثل هذه المثل العليا النابعة من صميم

الاسلام، لكان لهم شأن في الحرب أي شأن، ولصبروا وصابروا ورابطوا في الميدان.

إني أطالب المسؤولين بإقرار التعليم الديني في المدارس والمعاهد والجامعات على أسس رصينة سليمة، وغرس مبادىء الدين الحنيف في نفوس العسكريين ضباطاً وجنوداً بالدروس والمحاضرات، ومراقبة سلوكهم الشخصي مراقبة دقيقة، ومحاربة أسباب إشاعة الفوضى الاخلاقية والترف، والعمل على غرس الفضيلة والخلق الكريم بين أبناء الجيش خاصة والشعب عامة.

فهل من سميع مجيد، أم على قلوب أقفالها؟

١٢

لقد عزا قسم من المفكرين العرب انتصار اسرائيل إلى تفوقها على العرب في العلوم التطبيقية (التكنلوجيا).

ولعل هذا التفوق العلمي سبب من الأسباب، ولكنه ليس السبب الأول والأخير.

إن الولايات المتحدة الامريكية متفوقة على فيتنام الشمالية تفوقاً عظيماً في الناحية العلمية، ولكن فيتنام لم تستسلم ولم توقف القتال.

وعزا قسم من المفكرين العرب انتصار إسرائيل إلى التفوق الجوي.

ولعل هذا التفوق الجوي سبب من الأسباب، ولكنه ليس السبب الأول والأخير.

إن الولايات المتحدة الامريكية متفوقة على فيتنام تفوقاً ساحقاً في الجو، ولكن فيتنام لم تستسلم ولم توقف القتال.

لقد استطاعت فيتنام أن تكبد الولايات المتحدة مائة ألف عسكري

منهم ستة عشر ألف قتيل وأربع وثمانون ألف جريح[1].

واستطاعت فيتنام أن تسقط ثلاثة آلاف طائرة من طائرات الولايات المتحدة الامريكية[2].

إن الثبات وحده هو الذي حقق لفيتنام الشمالية هذا النصر، ولا ثبات بدون عقيدة.

لقد صرح مسؤول إسرائيلي كبير، إن عوامل انتصارهم على العرب خمسة، على رأسها العامل الروحي.

وحين احتلت اسرائيل القدس القديمة يوم ١٩٦٧/٦/٦، زحفت جموعهم وعلى رأسها رئيس الدولة حفاة حاسري الرأس إلى حائط المبكى!!

وذكر أحد رجالات اسرائيل، انهم انتصروا على العرب لأنهم يؤمنون بالله.

فهل صرح مسؤول عربي مثل هذا التصريح حتى اليوم؟!

وإذا كان يهود يؤمنون بالله، فبماذا يؤمن العرب؟

وهل فكر العرب بالعودة إلى تعاليم الدين الحنيف، ليكون لهم سنداً وعوناً في الشدائد والملمات؟!

أم لا يزال العرب يعتبرون الدين وتعاليمه من الأمور الثانوية؟!

إن الناحية العلمية التطبيقية وإعداد الطائرات والدروع والأسلحة والعتاد، وإكمال التدريب والتجهيز، كلها تدخل في نطاق الاعداد العسكري الذي أمر به الاسلام.

ولكن الناحية المعنوية، وهي التمسك بالعقيدة، لا تقل أهمية للجيش

---

(١) أعلن ذلك مسؤول أمريكي يوم ١٩٦٧/١٠/٦ وأذاعته جميع محطات الاذاعة العالمية ونشرته الصحف.

(٢) أعلن ذلك خلال شهر أيلول ١٩٦٧.

والشعب على حد سواء من الاعداد المادي.

فلا بد من العودة إلى الله تائبين منيبين، ولا بد من العودة إلى تعاليمه السماوية، وعند ذاك لن نغلب أبداً.

إن الذي يحتاج إليه العرب اليوم، هو الايمان بالله، والإيمان بالعلم، وحينذاك سيقول يهود كما قال أسلافهم من قبل: إن فيها قوماًجبارين.

١٣

واأسفاه على القدس...
واأسفاه على بلد الانبياء والمرسلين...
واأسفاه على مسرى النبي ﷺ...

ولكن القدس لا يمكن انقاذها بالأسى والاسف، حتى ولو ابيضت عيون المسلمين من الدمع.

وصدق الله العظيم: ﴿ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز﴾[١].

ونصر الله ايمان به، وثقة بقدرته، وعمل بتعاليمه، ثم إعداد لمتطلبات القتال التي أمر بها ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة﴾ الانفال الآية ٦٠.

ولقد ذكر الله سبحانه وتعالى الذين ينصرهم فقال: ﴿الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور﴾[٢].

فأين هم هؤلاء حتى ينصرهم الله... أين؟!
إن المؤمن لا ييأس...

---

(١) سورة الحج الآية ٤٠.
(٢) سورة الحج الآية ٤١.

والمؤمن لا يقنط...

وإسرائيل إذا انتصرت ساعة، فلن تنتصر إلى قيام الساعة...

إن الله يغار على قبة الصخرة أن يرتفع عليها علم إسرائيل...

ويغار على المسجد الأقصى أن تنتهك فيه الحرمات...

ويغار على مسرى النبي ﷺ أن تقترف فيه الموبقات...

ومصير يهود معلوم، وأنا واثق من نصر الله...

ولقد أعد الله ليهـود يوماً عصيباً: ﴿ ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ﴾...

فهل نعود إلى الله، ونعمل بتعاليمه، لينصرنا على إسرائيل، وعلى أعدائنا جميعاً، أم لا نزال بحاجة إلى النكسات والنكبات؟!

الإسلام والحرب النفسيّة

ذكرنا في فصل (المعنويات)، أن الإسلام يصاول الحرب النفسية. وما أجملناه هناك نفصله هنا.

١

رددت أجهزة الإعلام العربية كثيراً تعبير: (الحرب النفسية) بعد نكسة ١٩٦٧، فأصبح هذا التعبير شائع الاستعمال في البلاد العربية.

وقد صدرت في اللغات الأجنبية دراسات مستفيضة عن (الحرب النفسية) تتحدث بإسهاب ودقة عن معانيها وأساليب تطبيقها وأجهزتها وأهدافها والوسائل الفعالة في استخدامها ومظاهرها الأساسية وطرق الوقاية من شرورها.

واطَّلَعتُ على بعض تلك الدراسات الأجنبية، فوجدت طرق الوقاية من شرور (الحرب النفسية) معقدة صعبة، لأن الباحثين الأجانب اعتمدوا على الوسائل (المادية) في معالجتها، فهم يزنون كل شيء في الحياة بميزان المادة وحدها ويعتبرون المادة هي المشكلة وهي الحل.

ووازنت بين حلول الأجانب وحلول الإسلام لمعضلات (الحرب النفسية)، فلمست كيف يبسط الإسلام ما عقدوه ويسهل ما صعّبوه!!

فما هي الحرب النفسية؟ وما الفرق بين الحرب الفعلية والحرب

النفسية؟ وكيف يدفع الإسلام أخطارها عن المجتع الإسلامي؟

الحرب: هي القتال الناشب بين دولتين أو أكثر للحصول على مقاصد سياسية واقتصادية بقوة السلاح.

والحرب النفسية: هي الجهود السلبية والإيجابية التي تبذل في أيام الحرب والسلام، لتحطيم المعنويات وفرض الاستسلام.

والمعنويات: هي القوى الكامنة في صلب الإنسان التي تكسبه مزية إرادة القتال.

وإرادة القتال: هي التصميم على خوض الحرب دفاعاً عن العقيدة والأرض والعرض، وتحمل أعباء الحرب بذلاً للأموال وتضحية بالأنفس واستهانة بالاضرار والعقبات، وصبراً على البأساء والضراء، مهما طال المدى وبعد الشوط وكثر العناء وازدادت المصائب وسالت الدماء.

والهدف الأصلي من الحرب، هو تحطيم طاقاتها المادية والمعنوية لفرض شروط الاستسلام عليها.

تلك هي تعاريف موجزة لمصطلحات عسكرية شائعة ـ أصبح تفهمها ضرورياً للعرب والمسلمين، خاصة في هذه الظروف التي يجتازها العرب والمسلمون بعد الذي حدث في حرب حزيران (يونيو ١٩٦٧).

ومن الواضح أن هدف الحرب الفعلية هو القضاء على جسد الإنسان بالدرجة الأولى، وهدف الحرب النفسية هو تحطيم نفسيته.

والحرب النفسية تشن قبل الحرب الفعلية للتأثير في معنويات العدو، وفي أثناء الحرب للتأثير في ثباته ومقاومته، وبعد الحرب لإجبار العدو على الاذعان إلى المنتصر.

٢

إن الحرب النفسية تعبير يرادف تعابير: حرب الدعاية، حرب الإعلام، والحرب الباردة، والحرب العقيدية، والحرب السياسية.

وهذه الحروب قديمة قدم التاريخ، لا تختلف في شكلها الحالي عما كانت عليه من قبل إلا في الوسيلة والتطبيق، وقد ظل هدفها الرئيس هو التأثير في نفسية العدو والقضاء على معنوياته. ويتم التأثير في نفسية العدو ومعنوياته باستخدام علم النفس وتطبيقاته الاجتماعية، للتشكيك في الأفكار والمعتقدات، وزعزعة الإيمان بالنصر، وإشاعة الانهزامية، وتأجيج الأحقاد: باستثارة الطائفية، والتفرقة العنصرية، والعقيدية، وإثارة الكراهية بين الشعب وحكومته، ومحاولة كسب العناصر المحايدة والمترددة؛ والتخويف من الموت والفقر والمجهول، وبث الذعر وإطلاق الإشاعات، والمبالغة في قوة العدو والزعم بأنها لا تقهر.

ويستعين العدو بشتى الوسائل لتحقيق أهداف الحرب النفسية، فهو يستعين في الحرب بنشرات الاستسلام التي يوزعها بالطائرات على القوات المقاتلة في الصفوف الخلفية وعلى القواعد المتقدمة والأمامية والخلفية.

ويستعين في الحرب بمكبرات الصوت والإذاعة للحث على الاستسلام، والقيادة الحصيفة المسيطرة هي التي تمنع العسكريين وغيرهم من التقاط منشورات العدو والإصغاء إلى مكبرات صوته وإذاعته.

وقد استعان الحلفاء والمحور في الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥) بأساليب الحرب النفسية، فنجح الحلفاء في تحطيم معنويات الإيطاليين مما أدى إلى استسلامهم للحلفاء بأعداد ضخمة، ولم ينجحوا في تحطيم معنويات الألمان واليابانيين.

كان الألمان واليابانيون يرفضون سماع الإذاعات المعادية، وكان الايطاليون يقبلون على سماع الاذاعات المعادية ويتناقلون أخبارها ويصدقونها

في أغلب الأخبار، لذلك انهاروا بسرعة وقبلوا شروط الاستسلام.

ويستعين العدو في أيام السلام بنشرات الاستسلام والمنشورات الصحفية ومكبرات الصوت والأفلام السينمائية والمعارض والملصقات والصور والإذاعات والإشاعات والمخربين والجواسيس والوعد والوعيد وإشاعة الانحلال الخلقي والفساد والذعر والخوف والتشكيك بالقيم والمثل العليا.

٣

فما هي الحلول الجذرية البسيطة السهلة التي يعالج بها الاسلام آفات الحرب النفسية؟

ظهر لنا مما تقدم أن أهم أهداف الحرب النفسية هي: التخويف من الموت والفقر، ومن القوة الضاربة للمنتصر، والدعوة إلى الاستسلام، وبث الاشاعات والأراجيف، وإشاعة الاستعمار الفكري بالغزو الحضاري، وبث اليأس والقنوط.

المؤمن حقا لا يخشى الموت، لأنه يؤمن بأنه لا يموت إلا بأجله الموعود. قال تعالى: ﴿إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾[١] وقال تعالى: ﴿فإذا جاء أجلهم لايستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة﴾[٤]، وقال تعالى: ﴿قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم﴾[٥].

---

(١) يونس ٤٩.
(٢) الأعراف ٣٤ ومن النحل ٦١.
(٣) آل عمران ١٤٥.
(٤) النساء ٧٨.
(٥) آل عمران ١٥٤.

إن المؤمن حقاً يعتقد اعتقاداً راسخاً بأن الآجال بيد الله سبحانه وتعالى، وما أصدق قولة خالد بن الوليد رضي الله عنه عندما حضرته الوفاة: «ما في جسمي موضع شبر إلا وفيه طعنة من رمح أو سيف، وها أنذا أموت على فراشي كما يموت البعير فلا نامت أعين الجبناء»[1].

والمؤمن حقا لا يخاف الفقر، لأنه يعتقد اعتقاداً راسخاً بأن الأرزاق بيد الله سبحانه وتعالى، وأنه يرزق النملة المنفردة في الصخرة المنفردة في البحر المحيط، فكيف ينسى رزق الانسان؟

قال تعالى: ﴿ والله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾[3]، وقال تعالى: ﴿ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ﴾[4].

والمؤمن حقا لا يخشى قوات العدو الضاربة، فما انتصر المسلمون في أيام الرسول القائد عليه أفضل الصلاة والسلام، وفي أيام الفتح الإسلامي العظيم بعُدّة أو عَدد، بل كان انتصارهم بالإسلام، قال تعالى: ﴿ قال الذين يظنون أنهم ملاقو الله، كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله، والله مع الصابرين ﴾[5]، وقال تعالى: ﴿ يا أيها النبي حرِّض المؤمنين على القتال، إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبون مئتين، وإن يكن منكم مئة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون. الآن خفّف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً، فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين، وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله، والله مع الصابرين ﴾[6]، وقال تعالى: ﴿ الذين قال لهم الناس، إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم، فزادهم إيماناً وقالوا: حسبنا الله

---

(١) أسد الغابة ٢ / ٩٥ والاستيعاب ٢ / ٤٣.
(٢) البقرة ٢١٢.
(٣) الطلاق ٢٠.
(٤) هود ٦.
(٥) البقرة ٢٤٩.
(٦) الأنفال ٦٥، ٦٦.

ونعم الوكيل، فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء﴾[1].

والمؤمن حقاً لا يقر بانتصار أحد عليه ما دام في حماية عقيدته، فهو لا يستسلم أبداً ولا يفكر في الاستسلام، لأنه يؤمن بأن انتصار العدو عليه قد يدوم ساعة ولكنه لا يدوم إلى قيام الساعة. قال تعالى: ﴿إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله، وتلك الأيام نداولها بين الناس﴾[2] وقال تعالى: ﴿إن مع العسر يسرا﴾[3]، وقال تعالى: ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين، ولكن المنافقين لا يعلمون﴾[4]، وقال تعالى: ﴿ولا يحزنك قولهم إن العزة لله جميعاً﴾[5].

والمؤمن حقاً لا يصدق الإشاعات والأراجيف ولا يبثها، بل يقضي عليها في مهدها وينبذ مروجيها ويفضحهم ولا يسكت عليهم. قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماًبجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين﴾[6]، وقال تعالى: ﴿لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم﴾[7]، وقال تعالى: ﴿وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به، ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم، لعلمه الذين يستنبطونه منهم﴾[8].

والمؤمن حقا يقاوم الاستعمار الفكري ويصاول الغزو الحضاري الذي لاطائل من ورائه، لأن له من مقومات دينه وتراث حضارته ما يصونه من تيارات المبادىء الوافدة التي تناقض دينه وتراثه وحضارته وتذيب شخصيته

---

(١) آل عمران ١٧٣، ١٧٤.
(٢) آل عمران ١٤٠.
(٣) الانشراح ٦.
(٤) المنافقون ٨٨.
(٥) يونس ٦٥.
(٦) الحجرات ٦.
(٧) الأحزاب ٦٠.
(٨) النساء ٨٣.

وتمحو آثاره من الوجود. قال تعالى: ﴿ قل يا أيها الكافرون، لا أعبد ما تعبدون، ولا أنتم عابدون ما أعبد، ولا أنا عابد ما عبدتم، ولا أنتم عابدون ما أعبد، لكم دينكم ولي دين ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ قل هذه سبيل أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني، وسبحان الله وما أنا من المشركين ﴾[2].

والمؤمن حقا لا يقنط أبداً ولا ييأس من نصر الله ورحمته. قال تعالى: ﴿ لا تقنطوامن رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿ قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون ﴾[4]. وقال تعالى: ﴿ وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون ﴾[5]. وقال تعالى : ﴿ وإن مسه الشر فيئوس قنوط ﴾[6].

تلك هي الحلول الجذرية السهلة البسيطة التي يعالج بها الاسلام آفات الحرب النفسية. ومن موازنة هذه الحلول بحلول الأجانب نجد عظمة الاسلام في حماية المسلمين من شرور الحرب النفسية، وبهذه الموازنة بين حلول الأجانب المعقدة وحلول الاسلام البسيطة تذكرت قولة (برناردشو) في رسالته باللغة الانكليزية التي سماها: (نداء العمل) وتأكدت من إنصافه، فقد قال: « إن محمداً يجب أن يدعى منقذ الانسانية، ولو أن رجلا مثله تولى قيادة العالم الحديث، لنجح في حل مشكلاته بطريقة تجلب إلى العالم السلام والسعادة اللذين هو في أشد الحاجة إليهما»[7].

---

(١) الكافرون ١ ـ ٦.
(٢) يوسف ١٠٨.
(٣) الزمرة ٥٣.
(٤) الحجر ٥٦.
(٥) الروم ٣٦.
(٦) فصلت ٤٩.
(٧) من رسالة بالانجليزية « نداء العمل» مجلة الأزهر، جـ ١ س ٤ ص ٧٢٠ .

٤

لقد ذكرت أن الحرب النفسية لا تؤثر في المؤمن الحق فهل العرب والمسلمون اليوم مؤمنون حقاً ؟

لا بد من إعادة النظر في (بناء الرجال) ليكونوا دعامة الحاضر وسند المستقبل ، ولتكون الأمة الإسلاميه خير أمة أخرجت للناس .

والسبيل الى ذلك هو :

أ ـ يجب أن يتحمل الآباء والأمهات واجباتهم كاملة في تربية الطفل ، لأن كثيراً منهم قد أهمل هذه الناحية اعتماداً على المدرسة ، فيجب تلقين الأطفال مبادىء الدين الحنيف وأسس الخلق القويم في البيت قبل الالتحاق بروضة الأطفال والمدرسة .

إن الطفل الذي لا يتلقى التربية الصالحة من والديه في بيته قبل ذهابه الى الروضة والمدرسة ، أو يتلقى في البيت تربية فاسدة ، تعجز الروضة والمدرسة عن تقويم اعوجاجه التربوي ، ومن المؤسف حقاً أن كثيراً من المدارس لا تعلِّم التدين وأن البعض منها يعلم ما يتناقض مع الدين ولا أزيد .

إن البيت هو المدرسة الأولى للأطفال ، وفيه يوجهون مبكراً الى الخير والشر ، والأطفال يقتبسون مزايا آبائهم وأمهاتم ، والمثال الشخصي للأبوين يؤثر في أطفالهما أعمق التأثير ، فمن خاف على عقبه وعقب عقبه فليتق الله .

والأطفال المنحرفون والشباب المنحرف هم نسخة طبق الأصل من أبويهم ، ولا عبرة بالاستثناء .

إن الأطفال أمانة لدى الوالدين ، ورب البيت الذي لا يربي أولاده تربية سليمة ولا يستطيع السيطرة عليهم في دور المراهقة خائن وجبان .

والذي يدع عرضه نهباً لأعين الفساق من الناس خائن وجبان وديوث .

ب ـ إعادة النظر في تربية النشء الإسلامي ووضع مناهج تربيتهم على أسس مستمدة من تعاليم الدين الحنيف .

إن تفشي التردي الخلقي بين أبنائنا يخدم إسرائيل وأعداء العرب والمسلمين ، فلماذا نخرب بيوتنا بأيدينا ؟

إن اعداد المعلم والأستاذ إعداداً سليماً هو مفتاح الاصلاح التربوي ، فلا بد من إعطاء هذه الناحية أعظم درجات الاهتمام .

يجب أن ندخل التعليم الديني في مدارسنا ومعاهدنا وكلياتنا ، وأن نعد مناهج هذا التعليم باستشارة علماء الدين الحنيف .

ومن المؤلم أن التعليم الديني حورب في البلاد العربية والاسلامية محاربة لا هوادة فيها حتى تلاشى هذا التعليم في المدارس والمعاهد والكليات أو كاد .

ومن المذهل حقاً أن رجال التربية والتعليم العرب والمسلمين هم الذين ذبحوا التعليم الديني بغير سكين ، وبهذا نفذوا أهداف الاستعمار والصهيونية في سلب العقيدة من المتعلمين !

فهل يمكن أن نصدق أن ذلك جرى عفواً ، أم أن الأيدي الخفية كانت وراء الأكمة ، فسخرت التافهين والإمعات والعملاء وأشباه الرجال لوضع مخططاتها التخريبية موضع التنفيذ في ميدان التربية والتعليم .

جـ ـ يجب إقامة المساجد في كل مدرسة ومعهد وكلية وحث التلاميذ والطلاب على أداء فريضة الصلاة .

وقد دأب التلاميذ والطلاب على القيام بسفرات محلية وخارجية ، فلماذا لا يقومون بسفرات لأداء فريضة الحج والعمرة ولو مرة واحدة في كل قطر عربي وإسلامي في كل عام ؟ !

أليس من الغريب أن نسافر الى الشرق والغرب ولا نزور الديار المقدسة ؟ !

لقد سافرت لأداء فريضة الحج يوم كنت في السنة الثالثة من المدرسة الاعدادية مع جماعة من التلاميذ والمدرسين ، فأثر ذلك في نفسي تأثيراً لا تمحوه الأيام ووجهني الى الخير والنور ، فلماذا لا نكرر هذه التجربة على أكبر عدد من التلاميذ والطلاب والمدرسين والأساتذة ؟ !

د ـ مراقبة تصرفات التلاميذ والطلاب والمدرسين والأساتذة ووضع حد للانحراف والمنحرفين بحزم وقوة لمصلحة أولئك المنحرفين .

إن (الحرية) التي بدون قيود هي (فوضى) ، والحرية الحقة في التصرف ضمن إطار الفضيلة والخلق الكريم .

إننا لسنا بحاجة الى (حرية) التفسخ والانحلال والضياع :

إن عقلاء الأجانب ومفكريهم متذمرون من ضياع شبابهم ، فلماذا نستورد الانحلال من وراء الحدود باسم الحرية والمدنية . . . الخ من شعارات .

هـ ـ على الدول العربية والاسلامية أن تشجع الفضيلة وتقضي على الرذيلة وأن تولي مقاليد الأمور الملتزمين بالفضيلة والدين حتى يكونوا أسوة حسنة لغيرهم لأن فاقد الشيء لا يعطيه ، وعلى هذه الدول تحريم تقديم الخمور في حفلاتها الرسمية وأن تمنع استيراد الأفلام الخليعة وعرض التمثيليات اللاأخلاقية في الاذاعة المرئية والمسموعة وتمنع مجلات الجنس وقصص المخدع وأدب الجنس .

لقد نقلنا المراقص الخليعة بالإذاعة المرئية الى كل دار ، فالله الله في أخلاق أطفالنا وشبابنا .

و ـ على الدول أن تختار العلماء العاملين من رجال الدين للنهوض بواجب التوعية الدينية في الاذاعة والصحافة وأجهزة الاعلام والمساجد والنوادي وقاعات المحاضرات وقصور الثقافة .

إن حاجة العرب والمسلمين اليوم الى عاملين كأسد بن الفرات والعز

بن عبد السلام وأبي الحسن الشاذلي وابن تيمية ، لا تقل أهمية عن حاجتهم الى قادة أفذاذ كخالد بن الوليد والمثنى بن حارثة الشيباني ، فمتى يعطى العلماء العاملون حقهم ، ومتى يفسح لهم المجال للنهوض بواجباتهم الدينية ؟

ز ـ على المسئولين عن اختيار طلاب الكلية العسكرية التدقيق الشديد في اختيار العناصر المؤمنة القوية الأمينة ، وعدم اختيار غير الملتزمين بالخلق المتين وتعاليم الدين الحنيف .

كما يجب اختيار الضباط المعلمين المتدينين من ذوي الكفايات العالية ليكونوا ضباطاً مدربين ومعلمين في الكلية العسكرية ، لأن هؤلاء يطبعون الطلاب بطابعهم ويكونون قدوة حسنة لهم .

كما يجب الاهتمام بإقامة الشعائر الدينية في أوقاتها في الكلية العسكرية والجيش ، وإدخال التعليم الديني في منهج الكلية العسكرية والجيش ، ومن المهم بناء مسجد في كل معسكر وكل ثكنة وكل كلية ومدرسة عسكرية .

ح ـ يجب حث العسكريين كافة على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وحج البيت وصوم رمضان . ومن الضروري تحريم الخمور والميسر في الجيش تحريماً صارماً ومعاقبة المخالفين أشد العقاب .

ولا بد من تعيين (إمام) في كل وحدة عسكرية لقيادة العسكريين من الناحية الدينية .

وألفت الأنظار الى أهمية اختيار الأئمة العسكريين من العلماء العاملين لا من المرتزقة الجاهلين .

ط ـ من الضروري إجراء مسابقات دينية بين العسكريين ، كإتقان قراءة القرآن وحفظ الكتاب العزيز وتفسير الذكر الحكيم وإعداد المحاضرات الدينية وإلقائها . . . الخ .

وأقترح أن يوفد المتفوقون سنوياً لأداء فريضة الحج على نفقة الجيش مكافأة لهم على تفوقهم .

تلك مقترحات آمل أن تصل الى آذان المسئولين العرب والمسلمين وأن يعملوا على تنفيذها نصاً وروحاً ، وحينذاك تتحطم شرور الحرب النفسية على صخرة الإيمان وينتصر العرب والمسلمون على إسرائيل وعلى من وراء إسرائيل ، ومن تكون إسرائيل وغير إسرائيل بالنسبة للمؤمنين الصادقين ؟ !

٥

وأنتهز هذه الفرصة لأذكر الحقائق التالية :

أ - إن إسرائيل لن تنسحب من الأراضي العربية بغير القوة ، واللغة الوحيدة التي تفهمها إسرائيل هي القوة وحدها ، فيجب أن نعد العدة لحرب آتية لا ريب فيها ، وكل عربي لا يجاهد بأمواله ونفسه ليس عربياً ، وكل مسلم لا يجاهد بأمواله ونفسه ليس مسلماً ، فلا بد من زج طاقاتنا المادية العربية من المحيط الى الخليج والاسلامية من المحيط الى المحيط للجهاد في سبيل الله .

ب - إن السوق العربي (الاستراتيجية العربية) منذ عام ١٩٤٨ حتى اليوم كان سوقاً دفاعياً ، والمدافع لا ينتصر أبداً كما هو معروف .

ينبغي أن نعتمد السوق التعرضي ، فذلك وحده يقودنا الى النصر ، وأنا واثق من ذلك كل الوثوق .

ج - تهتم إسرائيل بالخسائر بالأرواح ولا تهتم بالخسائر في المواد . . . فيجب أن تضع القوات النظامية والفدائيون إيقاع الخسائر في سكان إسرائيل ، فذلك وحده يهز الشعور الإسرائيلي هزاً عنيفاً ويؤثر في معنوياتهم أسوأ التأثير .

والله أكبر كبيراً ، والحمد لله كثيراً ، وسبحان الله بكرة وأصيلاً ، وصلى الله على سيدي ومولاي رسول الله وعلى آله وأصحابه أجمعين .

التربية المثالية

ذكرت في الفصل السابق أثر التربية المثالية في تنشئة جيل مؤمن قوي أمين . وما أجملناه هناك نفصله هنا .

١

سألني صحفي قبل أيام : « هل تعاني مشاكل من تصرفات أولادك » ؟ فأجبته : « مشاكل ! ولماذا أعاني المشاكل منهم » ؟

واستغرب الصحفي من جوابي ، وسرد عليّ ما يعانيه الأبوان من تصرفات أولادهم ، وقصّ علي أمثلة من تمرد النشء الجديد على أبويهم ، ثم ذكر أنّ السيطرة على المراهقين والمراهقات بخاصة والشباب والشابات بعامة صعبة جداً ، وأنّ الوالدين فقدا السيطرة على ذريتهما من الجيل الجديد !

ولم أكن بحاجة إلى سرد تلك الأمثلة وسماع تلك القصص وضرب تلك الأمثال ، لأنني أعرف ما يعرف وأسمع ما يسمع وأرى ما يرى . ولكنني اختلفت معه في شيء واحد ، فقد صبّ اللوم كله على الأولاد ، وزعم أنّ الأبوين لا يستطيعان أن يفعلا شيئاً لاستعادة سيطرتهما على أولادهما . أما أنا فصببت اللوم كله على الأبوين ، وذكرت له كيف يستطيع الأبوان فرض سيطرتهما على أولادهما بسهولة ويسر ولمصلحة الأولاد بالدرجة الأولى ومصلحة الأسرة بالدرجة الثانية .

ولم أصبّ اللوم كله على الأبوين عبثاً ، فقد درست حالات كثيرة عن

علاقة الأولاد بالأبوين ، فوجدت أن الوالدين يجنيان غرس أيديهما ، فلو أحسنا لأحسن أولادهما ، ولكنهما أساءا التربية أو قصّرا فيها أو أهملاها اعتماداً على غيرهما من الناس أو المدارس ، فكانت النتيجة وبالاً عليهما وعلى أولادهما على حد سواء .

وسأتحدث هنا من تجاربي العملية في تربية الأطفال وتوجيه الشباب ، مستمداً هذه التجارب من تربيتي الأولى حين كنت طفلاً ثم ترعرعت فأصبحت شاباً ، ومن أسلوب تربية أولادي ضمن نطاق أسرتي ، ومن توجيه الشباب في الجيش حين كنت أعمل فيه .

تلك ثلاثة مصادر لتجاربي العملية في التربية : الأولى متعلماً من الذين سهروا الليالي الطوال على تربيتي في البيت والمدرسة والكلية ، والتي كان من ثمراتها أن أصبح كما يعرف الناس متمسكاً بديني ، مدافعاً عن عقيدتي ، محباً للعلم ، مقدراً للعلماء ، مطيعاً لوالدي إلى أبعد الحدود .

والثانية معلماً في مجالين : مجال عائلتي الصغيرة التي هي أسرتي ، ومجال عائلتي الكبيرة ، التي هي الجيش ، وكان من ثمراتها تربية أطفالي ليطيعوا نتيجة للاقتناع لا للقسر ولا للخَوف .

والثالثة معلماً أيضاً في الجيش ، لأن من جملة واجبات الضباط القاء المحاضرات الثقافية والتهذيبية والعسكرية ، وتربية الجنود وضباط الصف تربية سليمة ليكونوا عناصر مفيدة في الجيش وفي الحياة المدنية على حد سواء .

وكم أتمنى أن يقرأ هذا المقال كل عربي من المحيط الى الخليج ، وكل مسلم من المحيط الى المحيط ، ويتدبر معانيه ، ليعمل به مستفيداً من تجاربي العملية وخبرتي الطويلة إذا اقتنع بها اقتناعاً كاملاً ، فاذا لم يقتنع فيسرني أن يبدي رأيه لأستفيد ويستفيد غيري من تجاربه . المهم أن نجد الطريق السوي فنسلكه جميعاً ، لننقذ أطفالنا وشبابنا من الضياع ، إذ لست متفائلاً ولا أظن غيري من الذين يحرصون على حاضر الشعب العربي والأمة الإسلامية

ومستقبلها متفائلاً ، وهو يرى أبناءنا وبناتنا يبتعدون بسرعة مذهلة عن تعاليم الدين الحنيف والمثل العليا ، وينحدرون بسرعة خاطفة الى مهاوي الانحلال والتفسخ ، حتى أصبح التماسك العائلي مهدداً بالزوال ، وأصبح الرباط بين أفراد العائلة رباطاً مصلحياً والمفروض أن يكون رباط مودة ورحمة ورحم .

ومن الصدف أن أشاهد ندوة في الاذاعة المرئية ، طالب فيها قسم من النساء بحقوقهن ، وزعمهن أنهن مظلومات بالنسبة للرجال ، وأنهن يردن المساواة الكاملة بالرجل . وكنت قبل أن أشاهد هذه الندوة أعتقد أنّ المساواة التي تطالب بها النساء تقتصر على حقوق التعلم وتسنم المناصب الحكومية وممارسة الأعمال الحرة والمهن التي يمارسها الرجال ؛ ولكنني بعد مشاهدة هذه الندوة فهمت معنى المساواة ، فقد قالت إحدى المشاركات في الندوة : « لماذا يسمح لأخي بالخروج من الدار في أي وقت ولأية جهة دون رقيب أو حساب ولا يسمح لي » ؟ ثم قالت : « لماذا لا يحاسب أخي حين يمكث حتى الهزيع الأخير من الليل خارج الدار وأُحاسَب أنا ؟ ما هو الفرق بيني وبين أخي حتى أُحاسب ولا يحاسب » ؟ !

حينذاك فقط فهمت معنى المساواة على حقيقتها ، وفهمت معنى شعار : حرية المرأة ، التي دأبت ودأب قسم من أشباه الرجال على ترديده بمناسبة وبدون مناسبة .

وهكذا تكون المساواة ، وهذه تكون الحرية ، وإلا فلا !

إن محاسبة الأبوين للأولاد على تصرفاتهم الخاطئة ضروري للغاية ، والأبوان اللذان لا يحاسبان الذكور على تصرفاتهم الشاذة ، يفسحان المجال للإناث بالمطالبة بمثل هذه المساواة وهذه الحرية .

وليس من مصلحة الذكور والإناث السهر خارج الدار إلى وقت متأخر من الليل في أماكن مشبوهة أو مع رفاق السوء ، فلا بد من وضع الأمور في نصابها ، وإلا فالأبوان مقصران في صميم واجباتهما الأبوية .

٢

وإذا كانت التربية السليمة التي تؤدي الى « بناء الرجال والنساء » ضرورية لكل مجتمع في كل زمان ومكان ، فإن هذه التربية السليمة أصبحت قضية حياة أو موت بالنسبة للعرب والمسلمين في هذا الوقت بالذات ، لأنّ إشاعة التحلل الخلقي والفساد والترف والابتعاد عن تعاليم الدين الحنيف لا يخدم أحداً كما يخدم إسرائيل وأعداء العرب والمسلمين ، إذ أنّ الملوث جنسياً أو الملوث جيبياً لا يمكن أن يقاتل كما يقاتل الرجال .

فكيف نربي الاطفال ، وكيف نوجه الشباب ؟

وأبادر الى إبراز أهمية « المثال الشخصي » في التربية والتوجيه ، فإذا كان المربي أو الموجه مستقيماً : يطبق ما يأمر به غيره على نفسه أولاً ، ويلتزم بما يقوله التزاماً صارماً ، ويفعل ما يقوله ، فإنه ينجح في تربيته وتوجيهه نجاحاً باهراً ، ويطبع أطفاله في البيت وتلامذته في المدرسة وطلابه في الجامعة بطابعه المتميز ، ويكون قدوة حسنة لهم يقتدون به ويقتفون آثاره ويسيرون على هديه ، ويكون مثلاً أعلى لهم في حياتهم الخاصة والعامة .

مثل هذا المربي أو الموجه ، يبني الرجال والنساء ، ويفيد دينه وأمته ووطنه ، وترتفع على أكتافه صروح الحاضر والمستقبل على هدي وبصيرة .

أما إذا كان المربي أو الموجه منحرفاً، لا يطبق ما يأمر به غيره على نفسه أولا ، ولا يلتزم بما يقوله التزاما كاملاً ، ويقول ما لا يفعل، فإنه يخفق في تربيته وتوجيهه إخفاقا تاماً، ويطبع أطفاله في البيت وتلامذته في المدرسة وطلابه في الجامعة بطابعه المنحرف، ويكون قدوة سيئة لهم، يقتدون به في النفاق، يقتفون آثاره في التلون، ويسيرون على نهجه في التذبذب، ويكون مثلا أدنى لهم في حياتهم الخاصة والعامة.

مثل هذا المربي أو الموجه ، يحطم الرجال والنساء ، ويضر بدينه وأمته ووطنه ، وتنهار على يديه أعمدة الحاضر والمستقبل ، وتحل به وبأمثاله الكارثة على المصلحة العليا للبلاد .

إن واحداً من المربين أو الموجهين ، يعمل بما يقول ، أكثر نفعاً وأعظم تأثيراً من الأطفال والشباب من آلاف المربين أو الموجهين الذين يقولون ما لا يفعلون ، ولو كانوا من أبلغ الناس خطاباً وبياناً ، إذ أن الكلام الذي لا يصبح عملاً في نفس صاحبه يبقى كلاماً ولا يصبح عملاً في نفوس الآخرين .

وشتان بين الأقوال والأعمال .

٣

وأبادر أيضاً إلى إبراز أهمية تطبيق تعاليم الدين الحنيف في التربية والتوجيه ، وأن يكون المربي أو الموجه متمسكاً بهذه التعاليم ، ليكون قدوة حسنة لأطفاله وتلاميذه وطلابه وجنوده وموظفيه وفلاحيه وعماله ، كل حسب واجبه ونطاق عمله : رب أسرة ، أو معلماً أو مدرساً أو أستاذاً أو ضابطاً أو رئيساً في دائرة حكومية أو مزرعة أو مصنع ... الخ ...

إن الدين الاسلامي بالاضافة إلى تعاليمه في العبادات ، منهج للحياة وطريق للعمل الصالح وسبيل إلى الخير ، يتضمن تعاليم مفصلة تتصل بالعلاقات الفردية والجماعية ، والمعاملات بين الناس ، وهي تعاليم أخلاقية سامية ، فهو يأمر بالعفة والحياء والأمانة والصدق والإستقامة ، والكرم والسخاء والصبر ، والشجاعة والإقدام والتقوى ، والقناعة والاجتهاد في العمل والإتقان فيه ، والطهارة والنظافة والعدل ، والإحسان والمروءة والعفو ، والرحمة والشفقة وإيثار المصلحة العامة على المصلحة الخاصة .

وصدق رسول الله ﷺ : (الدين المعاملة) ، وصدق عليه أفضل الصلاة والسلام : (بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) .

هذا الدين العظيم ، يأمر بالأدب والرقة ، والتودد في معاملة الناس ، والتوسط في إزالة الخلافات بين الأفراد والجماعات ، والطاعة لأولي الأمر ما

أطاعوا الله ، وإحترام الوالدين ، وينهي عن سوء الظن والغيبة والتجسس والنفاق ، والتولي يوم الزحف والفحشاء والمنكر ، والبغي ، وشرب الخمر ولعب الميسر ، وأكل الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله . . . الخ . . . .

ولو مضيت في تعداد ما أمر به الإسلام من مكارم الاخلاق وما نهى عنه من الرذائل ، لطال بي السرد ولخرجت عن صلب الموضوع .

فإذا كان الأبوان يطبقان هذه التعاليم الاخلاقية الرائعة ، فإنهما بدون شك يهيآن المناخ المناسب لتربية أطفالهما تربية سليمة صالحة موفقة .

وما يقال عن الأبوين ، يقال عن المعلم والمدرس والاستاذ والضابط والمسئولين في الدوائر الحكومية والمصانع والمزارع والنوادي والمساجد والمصالح الخاصة والعامة .

أما إذا كان الأبوان بواد ، وتعاليم الدين الحنيف بواد آخر ، وكان المسؤولون عن توجيه الشباب والناس عامة كذلك، فإنهم لا يؤدون واجباتهم كما ينبغي في التربية والتوجيه ، لأن فاقد الشيء لا يعطيه ، وواقعنا المرير خير دليل على ما أقول .

وصدق إمام المربين وسيد الموجهين رسول الرحمة ونبي الأمة عليه أفضل الصلاة السلام : « من خاف على عقبه وعقب عقبه، فليتق الله» .

٤

إن الآباء والأمهات الذين يريدون أن يفرضوا سيطرتهم على أولادهم بعد أن شبوا عن الطوق ، دون أن يكلفوا أنفسهم عناء تربيتهم تربية صالحة منذ أيام الطفولة ، يخفقون في فرض سيطرتهم كل الاخفاق ، كما نلمس ونسمع ونشاهد اليوم ، حيث أصبحت السيطرة التامة بيد الأولاد على الأبوين

لا بيد الأبوين على الأولاد ، مما أدى الى تصدع بناء الأسرة وحلول الكوارث الاخلاقية ، وإرخاء العنان للأولاد طوعاً أو كرهاً .

إنّ ولد اليوم هو رجل المستقبل ، فيجب أن يكون الهدف من تربيته هو بناء المُثل العليا في نفسه لتكون طبيعة فيه ، حتى يتسنى له عندما يحين الوقت المناسب أن يؤثر في الآخرين إلى ما فيه الخير .

وهناك أمر يجب ألا نخطىء فيه ، وهو أن غرس أسس المثل العليا في الطفل ، يجب أن يتم في البيت ، وأن التربية الاساسية يجب أن تبدأ هناك . هذه التربية هي التي تؤثر في الطفل وتوجهه طيلة حياته ، إما إلى الخير وإما إلى الشر . وعلى أسس التربية السليمة التي تقام في البيت ، سيبني المعلم تربية الولد عندما يلتحق بالمدرسة ، فإن لم تكن تلك الأسس قد غرست في البيت من الأبوين في الطفل ، فلا يستطيع المعلم أو أي شخص آخر أن يفعل شيئاً في تنمية التربية السليمة .

وما نسمعه اليوم عن « إنحراف الأحداث» و « آثام الاحداث » ، سببه الرئيسي بدون شك هو إهمال الأبوين في تربية الطفل .

وتجربتي العملية تحملني على الاعتقاد بأن أسس التربية السليمة يجب أن تغرس في الطفل من أول شعوره بالحياة وابتداء فهمه لما يجري حوله من أعمال : يتساءل عنها تارة ، ويقلدها تارة أخرى . وبصورة عامة ، تبدأ تربية الطفل عندما يصبح في الثالثة من عمره ، فيرى والده يصلي مثلاً فيسأله : ماذا تصنع ؟! فيقول الوالد : هذه صلاة لله . فيسأل الطفل : ومن هو الله ؟ فيقول الوالد : الذي خلقنا والذي يرزقنا ، والذي يوفقنا في الحياة . . .

وبأسلوب بسيط يجري إفهام الطفل عما يتساءل عنه ، وحينذاك سيصلي الطفل بدون متطلبات الصلاة وبأي شكل ، ولكنه بالتدريج يتعلم ما ينبغي أن يفعل في الصلاة ، فيكون من واجب الوالد تشجيعه مادياً ومعنوياً ، فلا يبلغ السابعة من عمره إلا ويكون قد أتقن إقامة الصلاة ، تلك الصلاة التي بدأ في إقامتها تطبعاً وتقليداً ، وبمرور الوقت أصبحت فيه طبعاً وعقيدة .

وما يقال عن الصلاة ، يقال عن غيرها من أعمال البر والخير .

إن الطفل يجب أن يربى تربية تجعله يميز بين الخطأ والصواب، ويتحلى بالصدق والاستقامة وحب الخير .

ولعل تعليمه الصلاة ، والصلاة عمود الدين ، بداية مباركة تعلمه بالتدريج كل خصال الفضيلة ، وكل فضائل الخصال .

ومن المناسب في أيام الجمع والأعياد ، مرافقة الطفل إلى المساجد للصلاة ، حتى يتعود ارتياد المساجد ، وحتى يتشرب بروح المسجد . وسيجد الطفل في ارتياد المساجد نوعاً من التسلية في بداية الأمر، حتى إذا كبر أصبح ارتيادها محبباً إلى نفسه ، يجد فيها راحة وسلوى واطمئناناً وأمناً .

وللمسجد فوائد للطفل والشاب ولغيرهما أيضاً ، من هذه الفوائد أن يتعرف الطفل أو الشاب بأصدقاء طيبين أخيار ، يفيدون ولا يضرون ، ويبنون ولا يهدمون .

٥

ويسير الطفل إلى جانب والده في الطريق ، فيجدان فقيراً أو محتاجاً يسأل الناس ويطلب المساعدة ، فيعطي الوالد شيئاً من المال لولده ، ويأمره أن يقدم المال للفقير أو المحتاج . ويسأل الطفل أباه : لماذا ؟ فيقول : لا بد أن نساعد الفقراء والمحتاجين ، حتى لا يبقى أولادهم بدون طعام ولا ثياب . ثم يذكر الأب لطفله فوائد الصدقة ، وأن الله يبارك في أموال المتصدقين ويدفع عنهم الضر والعوز .

وإذا طرق فقير أو محتاج باب الدار ، فإن الأبوين يقدمان للطفل نقوداً ليقدمها بدوره إلى الفقير أو المحتاج، ويعود إلى أبويه فرحاً مستبشراً. وبمرور الزمن ، يتعود الطفل مساعدة من يحتاج إلى المساعدة من ماله الشخصي ، ويجد راحة نفسية لذلك .

وعلى المائدة يبدأ تناول الطعام باسم الله ، ويكرر ذلك على مسمع من الطفل ، حتى يتعلم الطفل ما يسمعه ، ويردد ما يردده أبوه وأمه .

فإذا طرق الباب ضيف أو فقير ، بادر الأب الى الترحيب بالضيف ودعوته إلى تناول الطعام ، وتقديم كمية من الطعام الى الفقير .

من ذكريات الطفولة ، التي لا أنساها ، أن جدتي لوالدي آثرت أن تبقى جائعة لتقدم طعامها الى ضيف قدم على غير ميعاد .

ومن ذكرياتي عنها أنها قدمت طعامها الذي كانت تتناوله إلى فقير طرق الباب ، وهي تقول فرحة مستبشرة : « سهمي في الجنة » .

وجاءها مرة فقير ، فلم تجد ما تقدمه له ، فخلعت ثوبها وكسته به ، وحين عادت إلى غرفتها لترتدي ثوباً آخر ، كانت مسرورة بعملها سروراً لا يوصف .

وكانت تردد كلما أكملت تناول الطعام : « اللهم أطعمتني ، فأطعم كل فقير » .

تلك ذكريات قليلة مما كانت تفعله ، أثرت في نفسي في حينه ولا تزال تؤثر في نفسي حتى اليوم .

ولكنني لم أكن أدري يومها ، أنها كانت تفعل ما تفعل ، بالإضافة إلى ما كانت ترجوه من أجر وثواب من الله ، أنها كانت تلقنني دروساً عملية في التربية ، مكتفيه بالتطبيق العملي حيناً ، ومفسرة موضحة بالكلام البسيط بعض ما كان يخفى عليّ من معان حينذاك .

والواقع أن هذه الجدة الأمينة ، أثرت في تربيتي بورعها وتقواها ، ما لم يؤثره فيّ كبار العلماء من القدماء في مؤلفاتهم ومن المحدثين في تماسهم الشخصي بي تلميذاً وطالباً وزميلاً .

ومرة ثانية . فإن المثال الشخصي له أعظم الأثر في التربية ، لأنه عمل يصبح في النفوس عملاً ، وليس كلاماً لا يلبث أن يتلاشى .

٦

وإذا كان الأبوان هما المثال الشخصي لأولادهما : يقلدهما الطفل حتى يعقل ، فإذا عقل أصبحا أسوة حسنة له ، يقتفي آثارهما ، ويسلك سلوكهما ، ويرى ما يفعلانه حسناً في نظره ورأيه ، فإن المعلم والمدرس في المدرسة ، والاستاذ والمؤلف في الجامعة ، وضابط الصف والضابط في الجيش ، والرئيس المباشر في العمل ، والشيخ في الطرق الصوفية ، هم المثال الشخصي الذي يؤثرون في التلميذ والطالب والجندي والعامل والفلاح والصوفي . . . الخ . . .

والأمة التي تريد أن تربي شبابها تربية مثالية ، عليها أن تعد المعلم والضابط إعداداً مثالياً ، فهما رأس كل خير ، كما أنهما رأس كل بلاء أيضاً .

إنهما رأس كل خير ، إذا أحسنا في أداء واجبهما ، وهما رأس كل بلاء إذا أساءا .

وقد كان وراء كل عظيم أب عظيم أو أم عظيمة أو أبوان عظيمان رباه تربية صالحة ، أو كان وراء هذا العظيم معلم عظيم أو أستاذ عظيم ضابطاً كان أو مدنياً .

وكل واحد منا ، إذا راجع نفسه ، يجد وراء كل خصلة من خصاله الحميدة قدوة حسنة من أب أو أم أو معلم أو أستاذ ، أو قريب أو صديق .

وكل واحد منا ، إذا راجع نفسه أيضاً ، يجد وراء كل رذيلة من رذائله قدوة سيئة من أم أو أب أو معلم أو أستاذ ، أو قريب أو صديق .

وإذا كان لديّ ما أنصح به شباب اليوم فهو مطالبتهم بالاستقامة وعمل الخير ، والاستفادة من أوقاتهم في العلم والتعلم ، والحرص على المصلحة العامة وإيثارها على المصلحة الخاصة .

إن التربية المستمدة من تعاليم الدين الحنيف ، هي التي تيسر كل هذه الخصال .

المسلم الحق صادق لا يكذب ، نزيه لا يتلوث ، قوي لا يضعف ، أمين لا يخون ، طاهر الذيل لا يزني ، مخلص لا يراوغ ، كريم لا يبخل .

لا يخاف الموت ، ولا يخشى الفقر ، ولا يهاب قوة في الأرض ، يقول الحق ولو على نفسه ، يسالم ولا يستسلم ، ولا تضعف عزيمته الأراجيف والإشاعات ، لا يستكين للاستعمار الفكري ، ويقاوم الغزو الحضاري ، ولا يقنط أبداً ولا ييأس من رحمة الله .

هذا المسلم الحق يقظ أشد اليقظة ، حذر أعظم الحذر ، يتأهب لعدوه ويعد العدة للقائه ولا يستهين به في السلم أو الحرب .

إن التربية الاسلامية تعد المسلم ليكون عنصراً مفيداً في الأمة الاسلامية من الناحيتين العسكرية والمدنية ، لذلك حمل المسلمون عندما كانوا مسلمين حقاً للعالم حضارة عظيمة وكانوا في الحرب لا يغلبون من قلة أبداً .

٧

تلك لمحات مختصرة مما أراه ضرورياً لاعادة بناء الرجال والنساء ، لعل فيها فائدة لأخوتي وأخواتي من الآباء والأمهات ولأولادي وبناتي من الاطفال والشباب .

وألمح من بعيد قسماً من القراء يقولون : هذه تربية قديمة ، ونحن بحاجة إلى تربية جديدة .

وأفترض حسن النية في هؤلاء المعترضين ، لأن تربيتهم في البيت والمدرسة والجامعة لم تكن كما يرام .

هذه التربية المنحرفة في عقر دارها ، والمستوردة حسب مخطط مشبوه ، هي التي أدت إلى إنحراف الأحداث والشباب ، فأصبحوا يفكرون بأنفسهم ولا يفكرون بغيرهم ، ويرون الحياة ، (مادة) بحتة تتركز في البطن والجيب

والفرج ، خالية من (الروح) بما فيها من سمو وخير وبركة . . .

هؤلاء الذين أصبحوا نتيجة لتربيتهم المنحـرفة المشبـوهة، يعـانون من عقدة مركب النقص تجاه التربية الغربية وعقدة مركب العظمة تجاه التربية الاسلامية . . .

لهؤلاء وحدهم لا لغيرهم من الذين أنعم الله عليهم بالإيمان ، سيتركز حديثي عن آراء المشير مونتكومري في التربية التي سطرها في كتابه الأخير : « السبيل إلى القيادة » ، وهو آخر مؤلفاته بعد أن بلغ الثمانين أو أكثر . . . لعل في آرائه ما يقنعهم بوجهة نظري ووجهة نظر السلف الصالح من علمائنا الأبرار .

وأشهد أنني قارنت بين آراء مونتكومري التربوية وآراء الإمام الغزالي التربوية في كتابه : « إحياء علوم الدين » ، فوجدت آراء الغزالي عليه رضوان الله أكثر دقة وأشمل تفصيلاً وأدق بحثاً وأوضح منهجاً ، وأقوم أسلوباً وأقرب إلى الواقع من آراء مونتكومري !!

ولكن ما حيلتنا مع الذين استهوتهم شياطين الغرب ، وبهرتهم مدنيته وحضارته ، واستحوذ عليهم الاستعمار الفكري البغيض ؟؟!!

مونتكومري والتربية المثالية

آراء مونتكومري التربوية للنشء
في كتابه : « السبيل إلى القيادة » .

١

المشير مونتكومري قائد بريطاني ، من أبرز قادة الحلفاء في الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ ـ ١٩٤٥) . وقد لمع اسمه لأول مرة بعد انتصاره على جيوش المحور في معركة (العلمين) سنة (١٩٤٢) ، فأصبح معروفاً في العالم كله .

بدأ حياته العسكرية العملية برتبة ملازم في الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨) ، ثم تدرج في الرتب العسكرية ، وتولى المناصب القيادية ومناصب الأركان ، وأصبح معلماً في كلية الأركان البريطانية في (كامبرلي) وهو منصب تعليمي تربوي مرموق .

وفي أواخر الحرب العالمية الثانية أصبح قائد مجموعة جيوش مؤلفة من مختلف الأسلحة ، كان تعدادها يناهز المليونين من الجنود وضباط الصف والضباط والمراتب الأخرى .

وبعد الحرب العالمية الثانية تسنم منصب رئيس هيئة أركان الحرب في بريطانيا ، ثم تسنم منصب نائب القائد الأعلى لحلف الأطلسي .

وأخيراً أصبح عضواً في مجلس اللوردات البريطاني ، إذ منح لقب :

« لورد العلمين » ، فتفرغ لواجبه في هذا المجلس ، وعكف على التأليف ، وأصبحت هوايته توجيه الشباب ورعايتهم .

وقد أمضى في الخدمة العسكرية نحو خمسين سنة ، ربّى خلالها ما لا يعد ولا يحصى من العسكريين معلماً ومدرباً ومثقفاً ومحاضراً وقائداً .

وقد سجل في آخر مؤلفاته : « السبيل الى القيادة » عصارة تجاربه في تربية الأطفال وتوجيه الشباب . وهو يرعى في الوقت الحاضر جماعة من الشباب ، ويجد لذة ومتعة في توجيههم ، ويرى في ذلك خدمة لوطنه وتطبيقاً عملياً لمبادئه التربوية .

وسأذكر ما أورده في كتابه هذا عن التربية والتوجيه ، لعل فيها فائدة للذين لا يرضخون إلا لآراء الغربيين ، والذين لا تطربهم مغنية الحي ، والذين تشفي عيونهم رمال الغرب وتدميها ورود بلدهم ، والذين يستسلمون للأجنبي ولا يسالمون العربي أو المسلم : بهرتهم حضارة الغرب لأنهم يجهلون حضارة أمتهم ، واستحوذ عليهم الاستعمار الفكري البغيض .

الى هؤلاء أسوق آراء مونتكومري التربوية ، تلك الآراء التي لو سمعوها من عربي مسلم لكالوا له التهم جزافاً ولرموه بالتخلف والرجعية ! !

ترى ! ماذا سيقول هؤلاء عن آراء مونتكومري التربوية ؟

٢

عقد مونتكومري في كتابه : « السبيل الى القيادة » باباً كاملاً هو الباب الحادي عشر بعنوان : « قيادة الشبيبة » استغرق نحو ثلاثين صفحة من كتابه ، ولا أرى مسوغاً لعرض آرائه التربوية كافة ، لأنني لا أريد أن أطيل فأثقل على القارىء ، ولكنني سأعرض مختصر آرائه لإعطاء فكرة كاملة عنها ، وهذا يقتضيني أن أكثف تلك الآراء بعيداً عن الايجاز المخل والاطناب الممل .

يذكر مونتكومري أن أولاد أمته لا نقص فيهم من حيث المادة أو النوع ، ولكن الخطأ في أسلوب تربيتهم ، مما أدى الى أن يصبحوا دون المستوى المطلوب ، وهذا خطأ المربين لا خطأ الشباب .

ثم قال : « إنني غير راض عن شباب اليوم »[1] .

ويمتدح بنات جيله فيقول : « إن البنات لم يكنّ ليسمح لهنّ بالخروج من البيت وحدهن والذهاب مع الأولاد الى المراقص وغيرها »[2] ، وبذلك ينتقد مر النقد ما يراه من ترك الأبوين بناتهم يسرحن ويمرحن كما يشأن دون رقيب أو حسيب .

ويقول عن تربية الأطفال وتنشئتهم ليكونوا عناصر مفيدة للمجتمع : « إن ولد اليوم ، وهو رجل المستقبل ، يجب أن يكون الغرض من تربيته بناء سجيته ، ليتسنى له عندما يحين الوقت المناسب ، أن يؤثر في الآخرين الى ما فيه الخير . وهناك أمر يجب ألا نخطىء فيه ، وهو أن أسس (السجية) يجب أن توضع في البيت ، بل أن التربية الأساسية يجب أن تبدأ هناك ، فهذه التربية هي التي تؤثر في الولد ، وتوجهه طيلة حياته ، إما الى الخير أو الى الشر . وعلى أسس الخير القويمة التي تبنى في البيت ، سيبني المعلم (سجية) الولد عندما يأتي الى المدرسة ، فإن لم تكن تلك (السجية) قد أقيمت في البيت ، فلا يستطيع المعلم أو أي شخص آخر أن يفعل شيئاً في هذا الصدد . إننا نسمع اليوم الكثير عن : (آثام الأحداث) التي لا شك أن السبب الرئيس لأغلبها هو إهمال الآباء .

« إن تجربتي الشخصية تحملني على الاعتقاد بأن الأسس لبناء السجية يجب أن تغرس في الولد عندما يصبح في السادسة من عمره ، وأهم ما فيها التمييز بين الخطأ والصواب والتحلي بالصدق والمروءة »[3] . ويرثي

---

(١) السبيل الى القيادة ١٩١ ، ١٩٢ .
(٢) السبيل الى القيادة ١٩٣ .
(٣) السبيل الى القيادة ١٩٤ .

مونتكومري لحال البشرية التي أصبحت تلهث وراء (المادة) وتبتعد عن (الروح) فيقول : « ألسنا نعيش جميعاً في ضباب من خداع النفس ، في عالم تستحوذ عليه (المادية) وتنبذ فيه القيم الروحية ؟ !

« فلنفكر مثلاً في نماذج الاعلانات الكثيرة التي تواجهنا أنّى ذهبنا ، والتي تؤثر في كثير من الناس ، فهي توحي الينا أن حل كل مشكلة يمكن أن تشترى بالمال . إنها تقول مثلاً : أتنشد السعادة في بيتك ؟ ! إذن فاشتر هذه المكنسة الكهربائية أو ذلك النوع من طعام الفطور ، أو هذا الصابون ، أو اشرب تلك الجعة ! ولا شك أن الناس جميعاً لا ينخدعون بهذه الاعلانات الكثيرة ، ولكن الولد المراهق يتعرض للخطر وهو يعيش في هذا الضباب من خداع النفس : (ماذا ينفع الانسان ، لو حصل على الدنيا كلها ، وأضاع روحه)[1] . . . »[2] .

هكذا يستشهد مونتكومري بآيات من الانجيل لتأييد آرائه ، فكم من قادتنا يستشهد بآيات من الذكر الحكيم ؟

ويضيف مونتكومري : « إذا أردنا أن يجتاز العالم بسلام وتعقل حالة الهياج والاضطراب التي تسوده اليوم ، فينبغي أن نحيا الحياة الحقة ونقتدي بالمسيح عليه السلام ، بدلاً من الخبط في دياجير الظلام »[3] .

إنه ينصح بالاقتداء بالمسيح ، وهذا طبيعي لأنه مسيحي ، فكم من رجالنا ينصح علناً وبكل قوة العرب والمسلمين بالاقتداء بالنبي ﷺ ؟ !

ويقول : « وهكذا نرى مدى الصعوبة التي يجابهها أولاد اليوم ، وجسامة (الواجب) الذي يجابهه الآباء والمعلمون في تفسير كل ذلك لهم وتوجيههم نحو الصراط المستقيم . وقد زادت المهمة صعوبة زيادة كبيرة من جراء أحوال الحياة العصرية ـ الحياة التي يواجه فيها الاولاد مغريات ومشاكل

---

(١) آية من آيات الانجيل . . . ترى ! كم من قادتنا يستشهدون بآيات الذكر الحكيم ؟ !
(٢) السبيل الى القيادة ١٩٥ .
(٣) السبيل الى القيادة ١٩٦ .

أعظم من تلك التي واجهها أي واحد منا عندما كنا شباباً . فالاشياء المثيرة ، وأفلام العصابات والبيوت المخربة بسبب التهاون في الواجبات الزوجية ونشر القضايا الجنسية في بعض الصحف ، كل هذه تفرض على الولد المراهق ضغطاً شديداً ، وليس من السهل أن ننمي (السجية) في ظروف كهذه»[1] .

ونحن ! ! لماذا نستورد أفلام العصابات ؟ لماذا نسمح للصحف والمجلات بنشر القضايا الجنسية ؟ لماذا نعرض الافلام الخليعة والتمثيليات الداعرة في الاذاعة المرئية ؟ ألأجل أن نخرب بيوتنا بأيدينا ؟ ألأجل أن نشيع الفاحشة في أولادنا ؟ ! ألأجل أن تتصاعد نسبة الرسوب في مدارسنا وكلياتنا ؟ لماذا ؟ !

٣

ويمضي مونتكومري بالحث على تلقين الأطفال التعاليم الدينية فيقول : « لقد سبق أن ذكرت كلمة (الضبط) . إن لهذه الكلمة صدى غير مستحب عند فريق من الناس ، وربما كان السبب هو لأنها غير مفهومة فهماً صحيحاً . إن الأساس الحقيقي للضبط ، هو ضبط النفس ، وهو السيطرة على النفس وكبح جماحها ، وأن يعيش المرء حياة ، منظمة ومقيدة بقيود اختيارية يفرضها على نفسه ، وقد نعد هذه القيود بمثابة (واجبات) ينبغي أن نشعر بضرورة القيام بها .

« إن مفهوم (الواجب) هذا يؤكد أهمية التعاليم الدينية التي تتعلق بالسيرة الشخصية للانسان ، ويجب أن يوحي بهذه التعاليم الى كل طفل حالما يبدأ بالذهاب الى الروضة (يريد روضة الأطفال التي تسبق المدرسة الابتدائية) وينبغي أن يتم ذلك حتماً قبل بلوغه السنة السادسة من عمره »[2] .

---

(١) السبيل الى القيادة ١٩٦ .

(٢) السبيل الى القيادة ١٩٧ .

ويتساءل مونتكومري : « فما هو غرضنا » ويجيب : « إن الغرض هو أن نبثّ في صفوف الشبيبة ، الاستقامة ، والشجاعة الأدبية ، والحمية ، بغية اقامة حصن يتحدى المؤثرات المخربة التي تسعى الى تحطيم أخلاق أولادنا . وينبغي تربية هؤلاء ليكونوا (نقاطاً قوية) في الأمة ، تدافع عن الأمانة وسط مغريات تحرض على الخيانة ، وتدافع عن العمل الجماعي والاخلاص ، وعن الجهد الصادق وشعور الواجب الرفيع ، بل عن كل شيء فيه خير البلاد »[1] .

ثم يقول : « أين يجب أن يبدأ التعليم ؟ في البيت طبعاً ، فذلك هو المكان الذي يجب أن يبدأ فيه تكوين (السجية) . ويجب أن يتعلم الطفل في البيت أموراً معينة تعد خطأً وأخرى تعد صوباً ، ويجب أن يتعلم أسس الأمانة والاخلاص والصدق والثبات على ما يعتقده صواباً وحقاً ثباتاً راسخاً برغم ما يواجهه من اغراء . ويجب أن تبدأ أسس هذه التربية في وقت مبكر ، وأن ترسخ في ذهن الطفل عندما يبلغ السادسة من عمره ، حتى إذا ما بدأ بالذهاب الى المدرسة لا يكون فريسة لتأثيرات شريرة قد يواجهها »[2] .

ثم ينعي مونتكومري على العالم تخليه عن : « المثل العليا » ، ويتوجه الى قومه البريطانيين برأيه صريحاً واضحاً : « لكي نخدم بريطانيا ونفخر بأننا بريطانيون ، ليس من الضروري أن نملك قنابل ذرية بقدر ما تملكه الولايات المتحدة الأمريكية أو علماء بقدر ما تملكه روسيا ، فليست البلاد التي تنقصها القنابل الذرية أو القوات الكبرى هي التي يجب أن تدعى : (دولاً من الدرجة الثانية) ، بل ينبغي أن يطلق ذلك على البلاد التي تعوزها المثل العليا ، وهذه المثل تبقى وغيرها يفنى » . ثم قال : « إن أول ما نحتاج اليه ، هو معالجة الجهل المتفشي بيننا عن الحقائق الأولية للدين »[3] .

---

(١) السبيل الى القيادة ١٩٨ .
(٢) السبيل الى القيادة ١٩٨ ، ١٩٩ .
(٣) السبيل الى القيادة ٢٠٥ .

٤

ووصف مونتكومري آراءه التربوية التي تؤدي إلى إعـداد قادة المستقبـل ورجال الأمة فقال : « وقد لا تكون آرائي مقبولة على العموم ، لكنها بسيطة على الأقل ، وقد بنيت على (مثل عليا) وحقائق أزلية ، لن تتغير مهما كان العصر الذي نعيش فيه »[1] .

ثم يكرر ما قاله سابقاً بأسلوب جديد ، أكثر وضوحاً وتفصيلاً فيقول : « إني من المؤمنين إيماناً راسخاً بوجوب توجيه الشباب نحو « العلا » ، ويجب أن نوضح لهم ما يجب أن يفعلوه لبلوغ ذلك ، وأن نبيِّن لهم السبب . إن ذلك لأمر مهم ، لأن المستقبل هو للشباب ، فهم الذين يجب أن يستلموا المشعل منا . إن مهمتنا أن نوحي الى الشباب أن يستهدفوا غرضاً « أخلاقياً » عاماً مبنياً على إيمان واع قوي بالدين . فاذا استطعنا بعدها ان نوحد شبابنا وراء قادة يهتمون بهذا الدين كما يهتم الشيوعيون بعقيدتهم ، فما من شيء نخشاه : لا الأعداء ولا المشكلات الاقتصادية ، إذ يمكن التغلب عليهما معاً . إن أهم ما في التربية ـ وفي الحياة كذلك ـ هو أن يكون لدى الطفل أو للشاب إحساس بالغرض قوي الى درجة تمكنه من مواجهة الصعاب والتغلب عليها . إن غرضاً كهذا لا يمكن أن يبنى إلا على (عقيدة) ، ولا يمكن تنمية هذه (العقيدة) إلا في زمن الصبا . لكنه يجب أن تكون هذه (العقيدة) حسنة ، فالعقيدة السيئة هي السبب في معظم ما نعانيه اليوم من اضطرابات »[2] .

ويعتبر مونتكومري تضليل الطفل أو الشاب أخلاقيا من أعظم الجرائم فيقول : « سئلت ذات مرة عن رأيي في أسوأ جريمة يمكن أن يرتكبها أي إنسان ؟ فأجبت بدون تردد : تضليل طفل أو شاب أخلاقياً !

---

(١) السبيل الى القيادة ٢١١ .

(٢) السبيل الى القيادة ٢١٣ .

« وأضفت الى ذلك قولي : ما من عقوبة تعد قاسية بحق إنسان كهذا »[1] . ومن الواضح أن رأي مونتكومري هذا سليم الى أبعد الحدود ، لأن الذي يضلل طفلاً أو شاباً أخلاقياً ، سيقضي على مصدر الخير فيه ، وسيجعل منه بؤرة للفساد والشر ، إذ سيكون عاملاً من عوامل إشاعة الفساد بين الناس : يهدم ولا يبني ، ويفسد ولا يصلح ، ويخرب ولا يعمر .

إن الوالدين اللذين لا يربيان طفلهما تربية سليمة ، يضللان طفلهما ويحرمانه من ومضات النور والخير .

والمعلم الذي لا يعلم تلميذه تعليماً ناجعاً ، يضلل تلميذه ويفسد طبعه ويوجهه نحو الجهل والضياع .

فكم من أب وأم ضللا طفلهما عن عمد باهمالهما تربيته أو عن غير عمد لجهلهما التربية السديدة .

وكم من معلم ضلل تلميذه ، لكسله أو جهله أو عدم تقديره المسئولية الملقاة على عاتقه ، فأصبح ذلك التلميذ مشرداً ، أو لصاً أو قاتلاً أو تافهاً .

٥

ويعود مونتكومري إلى تلخيص آرائه التربوية فيقول : « ما هي النصيحة التي أقدمها للشباب ؟ كيف يستطيعون إحراز مجد الفتوة ؟ إنني أقدم اليهم الوصايا الأربع التالية :

« أولاً : ليكن لديك شيء من رزانة الفكر ! إن ذلك لا يعني أن الطفل أو الشباب لا يجب أن يكون سعيداً نبيهاً ، بل بالعكس . ولكن أنبه الناس هو من كان ذا بصيرة ، وقلب بسيط ، وضمير طاهر ، ومن يحاول قلبياً وبكل تواضع التمسك الشديد بتعاليم الدين .

---

(١) السبيل الى القيادة ٢١٥ .

« إن الملذات التي لا نهاية لها ، والفرص الضائعة ، والامتيازات التي يساء الاستفادة منها ـ كل هذه الأمور لا تعوض عن ضياع الفضيلة ، وفقدان الرجولة ، وعدم إحترام النفس .

« ثانياً : أوصي بالطاعة ، تلك الفضيلة التي يبنى عليها السلطان ، وهي تعني قبول قانون (الواجب) قانوناً للحياة . إن الله سبحانه وتعالى يفوض شيئاً من سلطته الى إخواننا البشر منذ السنين الأولى من حياتنا : يفوضه أولاً إلى أبوينا ، ومن ثم الى الذين يولون علينا ، فاحترام السلطة إذن واجب مقدس كما هو أمر إلهي ، وما من عصر انتهكت فيه حرمة هذا الأمر إلا وساد فيه الفساد . إن آمال الأمم تتعلق باخلاص أبنائها وتواضعهم وفي طاعة شبيبتها واحترامهم لمن هو أكبر منهم سناً .

«ثالثاً: أوصي بالجد والمثابرة، فالوقت المتيسر للعمل والدراسة قصير، وسن الصبا سرعان ما يمر من غير أن نشعر به إلى دور الشباب فدور الرجولة .

« رابعاً : لقد تعلمت في حياتي الخاصة ، أن صفات ثلاثاً ضرورية للنجاح : العمل الشاق ، والاستقامة المطلقة ، والشجاعة الأدبية ، وهي تعني عدم خوف الانسان من قول ما يعتقده صواباً ، والثبات على هذا الاعتقاد »[1] .

ولا يكفي مونتكومري بهذا الباب من كتابه للحديث عن : (آرائه التربوية) ، بل يعود ثانية في الباب الخامس عشر الى عرض آرائه في التربية فيقول : « بالاضافة إلى تزويد المدارس بنظام تربوي جيد ، وبمعلمين ماهرين ، يجب أن يتيسر فيها نظام سليم للتدريس الديني بالتعاون مع رجال الدين »[2] .

ثم يقول عن أثر المثال الشخصي الذي هو التطبيق العملي للنظريات

---

(١) السبيل الى القيادة ٢١٧ .
(٢) السبيل الى القيادة ٢٩١ .

التربوية : « والواقع أن التربية الفكرية والخلقية التي نزود بها أولادنا ، هي ليست بذاتها أهم الأمور ، بل المهم هو ما سيفعلونه بهذه التربية، والفائدة التي سيجنونها منها في السنين القادمة . ومن الواجب تخصيص قسم من هذه التربية لغرس الصفات التي هي جزء لا يتجزأ من القيادة الجيدة ، ويجب أن يقوم بذلك خيرة المعلمين الذين يمكن أن نحصل عليهم ، وأن يقوموا به بالمثال الشخصي الحسن الذي يضربونه بأنفسهم لتلاميذهم وطلابهم »[1] .

وفي ختام كتابه قال مونتكومري : « عندما أنظر الى عالمكم اليوم ، ينتابني القلق أحياناً على الجيل الجديد ، عندهم مغريات لم نحصل عليها أنا وأنت[2] . ويبدو أنهم ينضجون مبكراً ، ولكن ذلك يجري في عالم غير مأمون ، وهم يميلون إلى أن يجعلوا للأمور (المادية) قيمة كبيرة ويهملوا (القيم الروحية) . . . على الشباب أن يتسلح جيداً بالشعور (الروحي) إذا أراد ألا ينحرف أو أراد ألا يجرفه التيار . . .

« إن (الحرية) الحقيقية ، هي أن يكون لديك الخيار في أن تفعل ما (يجب) أن تفعله لا ما (تريد) أن تفعله . . . إن هذه هي الحقيقة بعينها التي تواجه أي ولد ، وهي التوفيق بين ما (يريد) أن يفعله وبين ما يوحي اليه ضميره أن يفعله »[3] .

تلك هي موجز آراء مونتكومري في (التربية المثالية) ، أعرضها للذين يتلقون الوحي من الاجنبي ، ويؤمنون بما يقوله دون مناقشة .

أما الذين يعرفون ما ورد عن : (التربية المثالية) ، في تراثنا العربي الاسلامي العظيم ، والذين درسوا هذا التراث بامعان من منابعه الاصلية ، فيعلمون ان آراء مونتكومري تعتبر تافهة عند موازنتها بآراء السلف الصالح من علمائنا الأبرار .

---

(١) السبيل الى القيادة ٢٩٢ .
(٢) يقصد الناس من جيله .
(٣) السبيل الى القيادة ٣٠٧ـ ٣٠٨ .

وبكل صراحة وأمانة ، أذكر أنني نقلت آراء مونتكومري في التربية مضطراً وبعد تردد طويل، ولكن ما حيلتي مع الذين تستهويهم آراء الأجانب ولا تستهويهم آراء الأقارب؟؟!!

على كل ، فإن العلم لا وطن له ، وباستطاعة من يشاء أن ينقل ما يشاء من علوم الآخرين وآرائهم، على أن تكون تلك الآراء مفيدة وبناءة.

ولكن رأيي الذي أؤمن به ، هو أن العربي المسلم ، إذا وجد في تراثه ما يتفوق على تراث الأجانب أو يشابهه ، فلا ينبغي أن يغمط حق آبائه وأخواته ليستورد من الأبعدين ، أو يتباهى بأقوال الأجانب ويتنكر لأقوال قومه وبني عقيدته .

إننا بحاجة إلى علوم الغرب ، ولكننا لسنا بحاجة الى مبادئه .

ومرة أخرى . . . .

لو أبدى عربي مسلم مثل آراء مونتكومري في التربية ، فماذا يقول عنه أبناء جلدته المحدثون ؟!

إن الاسلام أقوم المبادىء التي تبني الرجال والنساء ، وهو دين الخلق الكريم والفضيلة والعزة والمجد والسؤدد .

فمتى يعرف قيمة هذا الدين أبناؤه من العرب والمسلمين ؟؟ متى ؟؟

الاخلاق المحاربة

١

الذي أعلمه علم اليقين ، ولا أشك فيه أبداً ، هو أن الملوث جنسياً أو الملوث جيبياً ، لا يمكن أن يقاتل في الحرب كما يقاتل الرجال .

وأريد بالملوث جنسياً ، الذي تردى في مهاوي الرذيلة فسقاً وفجوراً ، يقضي أيامه مفكراً في البغايا ، ويقضي لياليه في معاشرتهن ، ويكشف ذيله على ما حرّم الله ، ويطمع في أعراض الناس .

وأقصد بالملوث جيبياً ، الذي دخل جيبه المال الحرام رشوة من الراشين أو غشاً في البيع والشراء أو جمعاً للمال من طرق غير مشروعة .

وأقرر هذا المبدأ اعتماداً على تجربتي العملية في الحروب ، واستناداً إلى دراساتي لتاريخ الفتح الاسلامي العظيم ، وإلى ما قرره القادة العظام الأقدمون والمحدثون على حد سواء .

وأرجو ألا يقول قائل : كيف إذن ينتصر الغربيون - مثلاً - في الحروب ، وهم ملوثون جنسياً ؟

إن الذين يزعمون بأن كل الأجانب ملوثون جنسياً مخطئون كل الخطأ ،

أو واهمون كل الوهم ، أو مغرّر بهم كل التغرير .

ولقد عشت ردحاً طويلاً في بلد أجنبي من البلاد الأوروبية ، فوجدت أنّ فيهم البر والفاسق ، ولكن مصدر قوتهم يكمن في المتمسكين بالفضيلة قولاً وعملاً ، وما أكثرهم هناك .

ومشكلة أكثر الذين يفدون الى الغرب من الشرقيين ، هي أنهم ينحدرون بأنفسهم إلى مستوى (الخادمات) وأكثرهن منحرفات أخلاقياً ، ولا يرتفعون بأنفسهم إلى مستوى ذوي الشرف الرفيع المتمسكين بدينهم وتقاليدهم العريقة ومثلهم العليا .

وحين يعود هؤلاء الشرقيون إلى أوطانهم ، يظنون خطأ أنّ الشعب الأجنبي الذي عاشوا في بلده وقتاً من الزمن هو بمستوى أولئك الخادمات اللواتي عاشروهن وحدهن من بين ذلك الشعب الأجنبي .

وليس الذنب ذنب الشعب الأجنبي الذي يحكمون على كله بما فيه من خير وشر بجزئه بما فيه من شر ، إنما الذنب ذنب أولئك الشرقيين الذين استبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير ، فاختاروا الرذيلة دون الفضيلة ، وآثروا الظلام على النور .

والقلائل من الشرقيين الذين صانوا أنفسهم من الدنس ، وحاسبوا أنفسهم مرتين قبل أن يقدموا على ما يعيب : مرة لالتزامهم بالدين الحنيف ، ومرة لأنهم غرباء في محيط يحصى عليهم كل صغيرة وكبيرة يقترفونها .

هؤلاء القلائل من الشرقيين ، رأوا عجباً من تمسك الأجانب الغربيين في بلادهم بأهداب الشرف والفضيلة ، وابتعادهم عن كل ما يخل بالصدق والأمانة وتجنبهم كل ما يخل بالمروءة والخلق الرفيع .

* * *

٢

أذكر أن جماعة من العراقيين كانوا يعيشون مع عائلة أجنبية في دارها ، وكانت تلك العائلة مؤلفة من زوج وزوجة وأمها ، وكان لديهم ثلاثة أولاد وبنت واحدة ، وكان أكبر أولئك الأطفال عمره ثماني سنوات .

وكنت مع العراقيين الذين يساكنون هذه العائلة الأجنبية في البلد الأجنبي ، حين كنت استكمل دراستي العسكرية في دورة الضباط الأقدمين (الضباط العظام كما يطلق عليهم في قسم من الجيوش العربية) .

كانت كل غرفة من غرف الدار ، فيها ما لا يقل عن ست صور مؤطرة باطارات فخمة للسيد المسيح عليه السلام وللعذراء وللقدسين .

وكانت تلك الصور موضوعة على الجدران ، بحيث تقع عين ساكن الغرفة في تلك الدار على إحدى الصور في كل الاتجاهات .

وكان في كل غرفة مكتبة صغيرة ، كل ما فيها كتب دينية : العهد القديم والعهد الجديد ، ومعجمات للكتاب المقدس ، ومؤلفات عن حياة السيد المسيح وعن مشاهير القديسين .

وكان والد الاطفال وأمهم وجدتهم يسحبون الأطفال سحباً صباح يوم الأحد من كل أسبوع الى الكنيسة ، وكانوا يلقون مواعظهم على أطفالهم صباح مساء بشكل منظم معقول ، يحثونهم بها على التمسك بالدين .

وقد تلقى العراقيون تعليمات محددة من مسئولي السفارة العراقية ترشدهم إلى الطريق السوي في معاملة من يساكنونهم من الأجانب .

من تلك التعليمات عقد أواصر صداقة وطيدة بين العراقيين والأجانب ، وانتهاز فرص المناسبات الاجتماعية والدينية لتقديم هدايا رمزية لمن يشاطرونهم السكن .

وفي أحد الأيام ذكرت الجدة وهي عجوز شمطاء ، أن أحد الأطفال

وإسمه (توم) سيحل عيد مولده السادس بعد أيام .

واقترح أحد العراقيين أن يدعو العائلة الأجنبية إلى السينما على حسابه تحية لعيد ميلاد (توم) المرتقب .

واعترضت العجوز الشمطاء على هذه الدعوة قائلة : « يجب أن أذهب معك إلى السينما قبل يوم من موعد الدعوة ، حتى أتأكد بنفسي من أن الرواية المعروضة خالية مما يضر بأخلاق الأطفال » .

وكنا في أحد الأيام نتناول طعام الغداء على مائدة العائلة ، فتحدث أحد العراقيين بحديث غير مهذب اعتبرته العائلة الأجنبية نابياً لا يليق بأن يقال بحضور الأطفال .

ونهضت العجوز وهي تتمتم بكلام خافت يدل على الاستنكار والاشمئزاز .

وآوى كل ساكن في الدار الى غرفته الخاصة به بعد الغداء ، وآويت الى غرفتي لاستجم بعض الوقت .

ولم أكد أستقر على سريري ، حتى سمعت من يطرق باب غرفتي ، فنهضت وفتحت الباب .

وكان على الباب أحد أصحابي ، فقال : « لقد رمى أهل الدار متاعي وحقائبي في الشارع ، وأوصدوا باب غرفتي !! أترضى بذلك » ؟؟

ويومها قلت له : « إذا كنت على حق فكلنا معك ، وإذا كانوا على حق ، فأنت وحدك . . . وعلى نفسها جنت براقش » .

وسمعت العجوز تحاورنا ، فجاءت إليّ تسعى . قالت : « إنكم هنا لنأخذ منكم المال حتى نربي به الأطفال تربية خاصة ، فلن نسمح لأحد أن يقول كلاماً يضر بأخلاقهم ! لقد قال صاحبك ما لا يجوز ولا ينبغي أن يقال على مسمع من الأطفال . . . إنه قال : . . . » .

وقلت لصاحبنا : « الحق مع العائلة ، والحق أحق أن يتبع . . .

فعليك أن تجد لك سكناً جديداً تأوي اليه » .

وقد رأيت كثيراً من الشخصيات الرفيعة الأجنبية لا يدخنون ولا يعاقرون الخمر ولا يرتادون الملاهي ولا يخلون بمتطلبات الشرف الرفيع ، وكنت أسمع منهم تذمراً شديداً من تردي الخلق وإنصراف بعض الناس عن سبيل الحق والخير والرشاد .

المشير مونتكومري أشهر قادة الحلفاء في الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥) ألف كتاباً عنوانه : (السبيل الى القيادة) ، ردد فيه عشرات المرات ، أن من أهم عوامل نجاحه قائداً هو تمسكه بأهداب الدين .

ترى ! هل عزا قائد عربي أو مسلم سر نجاحه الى تمسكه بالدين الحنيف ؟ وماذا سيقال عنه اذا عزا سر نجاحه الى الدين ؟!

٣

المجتمع في الدول الأجنبية إذن هو قسمان : قسم متمسك بالفضيلة ، وقسم من أشياع الرذيلة .

فريق الفضيلة هو قوة المجتمع الأجنبي وهو قوة لكل مجتمع شرقي وغربي ، وفريق الرذيلة هو نقطة الضعف في المجتمع الأجنبي وفي كل مجتمع شرقي وغربي .

وكلما ازداد عدد المتمسكين بالفضيلة ، ازدادت قوة المجتمع وازداد تماسكه ، وارتفع شأن البلاد ، وأصبحت ذات أثر وتأثير في الأحداث العالمية من الناحيتين السياسية والحضارية .

وكلما ازداد عدد أصحاب الرذيلة ازداد ضعف المجتمع وازداد تفسخه ، وتضعضع شأن البلاد ، وأصبحت تجرر أذيال الخيبة سياسياً وحضارياً .

كتب أندريا موروا في كتاب: (أسباب انهيار فرنسا) في الحرب العالمية الثانية يقول: «من أهم أسباب إنهيار فرنسا هو تفسخ الشعب الفرنسي، نتيجة لانتشار الرذيلة بين أفراده».

وكان ما كتبه هذا الكاتب الفرنسي الكبير حقاً لا مراء فيه، لذلك أراد الجنرال ديغول في أيام رئاسته للجمهورية الفرنسية حتى يوم استقالته من منصبه الرفيع يوم ٢٧ نيسان (أبريل) ١٩٦٩، أن يحارب الرذيلة في الشعب الفرنسي، ويغرس الفضيلة فيه، لأنه كان واثقاً بأن الفضيلة هي الأساس لاستعادة فرنسا مكانتها الدولية، وهي التي تقودها الى النصر سياسياً وإقتصادياً وحضارياً وعسكرياً. أن الرذيلة هي الأساس لانهيار فرنسا وقيادتها الى الهزيمة في كل المجالات.

وما يقال عن فرنسا، يقال عن كل دولة قديمة أو حديثة.

والذين تتبعوا تاريخ الأمم، وأمعنوا النظر في أسباب بزوغ نجمها سياسياً وحضارياً وأسباب أفول نجمها سياسياً وحضارياً أيضاً، يجدون أن الأمم ارتفعت دائماً بأخلاقها المحاربة، وانهارت لتفسخ شعبها اخلاقياً، وميله الى الترف ومتاع الدنيا الذي هو متاع الغرور.

ما هي أسباب انهيار اليونان؟ ما أسباب انهيار الرومان؟ ما أسباب انهيار البابليين والآشوريين في العراق؟ وانهيار الفراعنة في مصر؟ ثم انهيار العباسيين في العراق ومصر؟ ما أسباب انهيار دولة العرب في الأندلس؟

إن دراسة قصة الحضارة في العالم، تعطي الجواب السليم!

٤

لقد أدرك السلف الصالح أهمية الخلق الكريم في احراز النصر.

ولو أردت استعراض أقوال السلف الصالح، وعلى رأسهم الرسول القائد عليه أفضل الصلاة والسلام، لبعد الشوط، ولطال المدى.

وما أعظم قولة عمر بن الخطاب رضي الله عنه في رسالة بعث بها الى قائد من قادة الفتح الاسلامي العظيم : « أخوف ما أخاف عليكم ذنوبكم » .

لقد كان لا يخشى على الجيوش الاسلامية الزاحفة المنتصرة جيوش الامبراطوريتين الساسانية والرومية ، ولكن كان يخشى عليها ما يقترفه المجاهدون من ذنوب ، لأنه كان يعلم حق العلم بأن المسلمين لا ينتصرون بعدد ولا عُدد ، فأعداؤهم أكثر منهم عدداً وعُدداً ، ولكنهم ينتصرون بتمسكهم الشديد بمثلهم العليا التي جاء بها الدين الحنيف .

ومن أقوال عمر بن الخطاب حاثاً على الخشونة محذراً من الترف : « اخشوشنوا ، فان الترف يزيل النعم » .

ولم يكد الفاتحون المسلمون يعودون ليستقروا في حواضر المسلمين الجديدة والقديمة وقد أصبحوا أغنياء بعد فقر ، إلا وتطاول أكثرهم في البنيان ، ومالوا الى نعومة العيش .

وقدم الكوفة أحد الفرس من خراسان ، وكان قد شهد بلده يستسلم للفاتحين المسلمين . ورأى الرجل الفارسي أبناء أولئك الفاتحين في حياة ناعمة رغيدة : تزوجوا الجواري ، واتخذوا القصور ، وتفاخروا بالمتاع ، فقال متعجباً مستغرباً : « أأنتم فتحتم بلدي » ؟ !

كلا ! إن الذين فتحوا بلده ، كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون ، وفي الأسحار هم يستغفرون ، وفي أموالهم حق للسائل والمحروم .

وخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ، فبدأ على يديهم انهيار دولة الاسلام ، والله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .

وبتقادم الزمن ، وتعاقب الأيام والشهور والأعوام ، ازدادت عوامل التفسخ في المجتمع العربي والاسلامي : شاع الجهل ، وساد الظلم ، وبرزت الأنانية والفردية ، وضعف الجانب الروحي ، وتضخم الجانب المادي ، ونشبت الضغائن والأحقاد ، وتعدد الحكام ، وكثرت الطوائف ، وانتشرت الخرافات ، واستبدل الفرد والمجتمع الذي يضره بالذي يفيده ، وبذل الناس

ما بأنفسهم من خير وتعاون وانسجام .

وجاء الاستعمار فأضاف ضغثاً على إبالة : فرّق ليسود ، وجزّأ ليحكم ، وشجع التفسخ الخلقي ، وتظاهر بهذا التفسخ ليقتبس العبيد أخلاق السادة ، وأعطى المتفسخين ومنع الملتزمين ، وقدم الإمعات وأخر الثقات ، واستصفى الجبناء ، واستبعد الأقوياء ، وصافى الجواسيس وجافى الشرفاء ، وقرب الخونة وأبعد الوطنيين ، واحتضن المارقين ، ولفظ المتدينين . . . فكان لخططه هذه أثر أي أثر في نفوس العرب والمسلمين !

وكثيراً ما نسمع عن أثر الاستعمار في المستعمرين كلاماً مبهماً يعمم ولا يخصص . . . إن أثر الاستعمار هو في سلب المثل العليا من المستعمرين ، حتى يستطيع أن يحكم وهو قرير البال ، لأن أصحاب المثل العليا اذا غُلبوا ساعة ، فلن يُغْلبوا الى قيام الساعة !

قدم الجنرال غورو لاحتلال لبنان عام ١٩١٨ ، وجاء معه جيش لجب ومع ذلك الجيش باخرة مليئة بالبغايا ، فقيل له : « واجب الجيش المقاتل مفهوم ، فما فائدة الجيش الآخر » ؟ فقال : « إن أثر هذا الجيش الآخر أعظم من الجيش المقاتل » .

وصدق غورو ، وكان صريحاً في جوابه . . .

لقد عمل المستعمر في أيامه على إشاعة الفاحشة والتهتك في كل بلد حل فيه ، ونجح في مهمته أعظم النجاح .

ولست ألوم المستعمر ، ولكنني ألوم من يقبل ذلك من العرب والمسلمين ومن يقتفي آثاره في ترك التفسخ والتحلل يرعيان بحرية في نفوس الاجيال .

وإلا فكيف يسكت المسئولين على اشاعة الفحشاء في العرب والمسلمين ؟

بين التديّن والقيادة

١

جاءني أمس كبير مذيعي محطة اذاعة عربية كبرى وقال : « إن كاتباً كبيراً قال عنك بأنّ على ما تكتبه مسحة دينية » !!

ومن الصدف أن يزورني قائد من قادة الفدائيين في ذلك اليوم فقال لي بالحرف الواحد : « لماذا تحرص على الناحية الدينية في كل ما تكتب » ؟

وبالطبع كان ما نقله المذيع الكبير لي ، وما قاله القائد الفدائي الكبير ، هو في معرض النقد فهما مؤمنان بأنّ القائد لا ينبغي أن يكون متديناً ! ! !

وكنت أحرص على صداقة أخ فلسطيني أعظم الحرص ، لأنه من فلسطين التي خالط حبها قلبي ودمي ، ولأنه مفكر ألمعي وعالم جليل ، ولكنني اضطررت الى نبذه الى الأبد ، لأنه زعم بأنّ التدين مظهر من مظاهر التخلف ، وأنّ العرب لن يفلحوا ما لم يتخلوا عن الدين .

هذا الصديق يعمل في بلد عربي يتمسك معظم الشعب فيه بالدين الحنيف ، فزعم أنّ سر تخلف ذلك البلد العربي يكمن في تدين شعبه ، ولكن الذي يبشر بالخير ـ كما عبر ذلك الذي كان صديقي ـ هو أن طلاب الجامعة

فيه يحتسون الخمرة ، لذلك فالبلد مقبل على التحرر والانعتاق من براثن الجهل والتقاليد البالية ! !

واجتاحني الغضب الشديد ، وزجرته زجراً عنيفاً ، وقررت أن أقاطعه لانحرافه عن الطريق السوي .

وتسأل أمثال هذا الرجل : « هل يحارب الدين العلم ؟ هل يدعو الإسلام الى الجهل ؟ ماذا تعيب على العقيدة الاسلامية منهجاً للحياة وسبيلا الى الحق والفضيلة والخير » ؟

لماذا إذن نتنكر للدين ؟ ولمصلحة مَن هذا التنكر ؟

إنّ الأيدي الخفية التي تريد الخير للعرب والمسلمين ، هي التي تعمل على إشاعة هذه المفاهيم الخاطئة ، حتى لا تقوم قائمة للعرب والمسلمين .

إني أتحدى كل من يستطيع أن يذكر قائداً عربياً واحداً منتصراً لم يكن يتحلى بالتدين العميق ولم يكن يؤمن بالمثل العليا النابعة من صميم تعاليم الدين الحنيف .

لن يستطيع أحد أن يذكر قائداً عربياً واحداً كان له في ميدان النصر تاريخ ، إلا وهو متدين الى أبعد الحدود .

سيد القادات وقائد السادات الرسول القائد عليه أفضل الصلاة والسلام هو نبي الاسلام . ولا أزيد . . . .

وقادة الفتح الاسلامي العظيم كلهم من صحابة رسول الله ﷺ ومن التابعين عليهم رضوان الله .

لقد أحصيت عدد القادة الفاتحين ، فكانوا (٢٥٦) قائداً عربياً مسلماً ، منهم (٢١٦) من صحابة النبي ﷺ ، و (٤٠) من التابعين عليهم رضوان الله .

وتوقف الفتح الإسلامي العظيم عام اثنين وتسعين الهجرية ، وكانت خطط المسلمين العسكرية قبل هذا التاريخ هجومية ، فأصبحت بعده

دفاعية : تصد هجوم المعتدين ، وتدافع عن دار الاسلام .

ومع ذلك ، فكل القادة الذين نجحوا في صد المعتدين ، كانوا متدينين إلى أبعد حدود التدين ، وكانوا أمثلة شخصية لرجالهم في التدين والعمل الصالح ، يكفي أن أذكر منهم نور الدين الشهيد وصلاح الدين الأيوبي .

٢

سجّل لنا التاريخ العربي الاسلامي معارك دفاعية كثيرة خاضها العرب المسلمون دفاعاً عن عقيدتهم وعرضهم وأرضهم .

ولعلّ أهم هذه المعارك معركتان : معركة (حطين) التي قادها البطل المسلم صلاح الدين الأيوبي ، ومعركة (عين جالوت) التي قادها قطز صاحب مصر .

ومن الصدف أن تكون هاتان المعركتان في الأرض المقدسة فلسطين[1] : (حطين) قرية تقع غرب بحيرة (طبرية) على بعد اثني عشر كيلو متراً من مدينة (طبرية) على طريق (طبرية ـ الناصرة) ، و (عين جالوت) بليدة صغيرة تبعد خمسة أميال عن مدينة (العفولا) ، تقع بين (العفولا) ومدينة (بيسان) .

ويمكن اعتبار هاتين المعركتين من المعارك الحاسمة ، لأن معركة (حطين) أدّت الى استعادة القدس من الصليبيين ، ولأنّ معركة (عين جالوت) أدت الى إنقاذ الشرق الأوسط ومصر من الغزو التتاري الكاسح .

ولقد درست هاتين المعركتين دراسة مستفيضة ، فوجدت أن الفضل الأول لانتصار المسلمين على الصليبيين في معركة (حطين) يعود الى قيادة صلاح الدين الايوبي ، ووجدت أن الفضل الأول لانتصار المسلمين على

---

(١) ما أجملناه هنا، فصلناه في كتابنا : بين العقيدة والقيادة، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٢ .

التتار في معركة (عين جالوت) يعود الى قطز وإلى الإمامين الجليلين العز ابن عبد السلام وأبي الحسن الشاذلي عليهما رضوان الله .

وبمعنى آخر ، أن الفضل الأول في إحراز النصر في المعركة الأولى كان للقائد ، والفضل الاول في إحراز النصر في المعركة الثانية كان للقائد والعلماء والجنود .

في سنة (٥٧٣) الهجرية اشتبك صلاح الدين بالصليبيين على مقربة من مدينة (الرملة) الفلسطينية ، فهزم صلاح الدين ، وقتل وأسر كثير من المسلمين .

وارتد صلاح الدين الى القاهرة ، وقد حزت في نفسه الهزيمة ، وأخذ يحشد الجيش ويعد العدة لحملة جديدة .

وغادر القاهرة على رأس جيشه الى دمشق ، حيث أمضى هناك زهاء ثلاثة أعوام ، وهو مكب على الإعداد للحرب مادياً ومعنوياً بحيث لم تذهب منه لحظة واحدة سدى . وفي خلال هذه الفترة اشتبك مع الصليبيين في عدة معارك استطلاعية لاختبار قوتهم أولاً ، وفي معارك استنزافية لانهاك قوة العدو ثانياً ، وفي معارك تدريبية لتدريب جيشه على القتال عملياً ثالثاً وأخيراً ، فاستطاع في هذه المعارك إحراز انتصارات محلية في (طبرية) و (صور) و (بيروت) ، وهزم الصليبيين في (حمص) هزيمة شديدة ، واضطر بلدوين ملك بيت المقدس الى طلب الهدنة ، فعقدت بين الطرفين لمدة عامين .

وعاد صلاح الدين الى القاهرة في منتصف عام (٥٧٦) الهجرية ، فأمضى فيها عاماً ونصف عام : يرسم الخطط ، ويعد العدة ، ويدرب رجاله ، ويكمل نواقصهم على هدي الدروس المستفادة من معاركه السابقة ، حتى اطمأن الى كفاية قواته القتالية ، ووثق بقابلياتهم العسكرية .

وفي الخامس من محرم الحرام سنة (٥٧٨) الهجرية ، خرج صلاح الدين من القاهرة ، عاقداً العزم على خوض معركة حاسمة يستعيد بها القدس الشريف .

وبقي في دمشق أربعة أعوام ، يحشد المجاهدين من كل مكان ، ويستنفر القادرين على حمل السلاح ، ويعد الخطط العسكرية للقتال .

وفي أواخر المحرم من سنة (٥٨٣) الهجرية ، خرج في قواته من دمشق ، وسار منها الى (بصرى) ليحمي منها طريق عودة الحجاج ، إذ بلغه أنّ (رينو دي شاتيون) أمير (الكرك) ينوي الفتك بهم . ولما انتهى عودة الحجاج بسلام سار الى (الكرك) و (الشوبك) وعاث في أنحائهما .

ووافته جيوش مصر بقيادة أخيه العادل ، وكانت قوات الشام والجزيرة تتلاحق في تلك الاثناء ، وتجتمع في دمشق تحت قيادة الملك الافضل ولد صلاح الدين . وسارت من هذا الجيش بأمر صلاح الدين حملة قوية الى ثغر (عكا) لاقتحامه وتخريبه ، فاشتبكت هناك مع الفرنج وفرسان الداوية (فرسان المعبد) والاسبتارية في معركة طاحنة ، هزم على أثرها الفرنج وقتل مقدم الداوية وجماعة كبيرة من الفرسان ، واستولى المسلمون على كثير من الغنائم .

وسار صلاح الدين في قواته جنوباً نحو مدينة (طبرية) فاستولى عليها ، ولكن حاميتها اعتصمت بالقلعة . وكان السلطان يهدف الى استدراج الفرنج لمقاتلته في العراء ، ولكنهم لم يفعلوا ، فترك مدينة (طبرية) وعاد الى معسكره على مقربة منها .

وكان الفرنج قد اجتمعوا في سهل قريب من (طبرية) ، وكان هذا السهل مقفراً فيه عيون ماء قليلة خربها الفرنج ليحرموا جيش صلاح الدين من الارتواء منها . ولم يكترث صلاح الدين بمشكلة الماء ، لأنه كان عازماً على مقاتلة الصليبيين واثقاً بنصر الله ، فسار في اليوم الرابع والعشرين من شهر ربيع الاول سنة (٥٨٣) الهجرية نحو معسكر الفرنج .

ولكن الفرنج حرصوا على منع صلاح الدين من السير نحو مدينة (طبرية) وفتح قلعتها ، فتحركوا نحو مدينة (طبرية) يقصدون به الماء ، فوقف الجيش الاسلامي في سبيلهم ، واشتبك الطرفان في عدة معارك

طاحنة ، قاتل الصليبيون فيها قتالاً شديداً ، إلا أن كفة المسلمين رجحت عليهم .

واستطاع صلاح الدين محاصرة الفرنج ، فارتدوا نحو تل بقرية (حطين) القريبة يعتصمون به . ولكن صلاح الدين هاجمهم هجوماً صاعقاً ، فاشتد القتال ، ودافع الفرنج دفاعاً مستميتاً ، وردوا المسلمين مرات ، ولكنهم هزموا في النهاية هزيمة شنيعة ، وأسر المسلمون سائر أمراء الفرنج .

هذه المعركة الحاسمة أدت الى استعادة فتح مدينة (طبرية) و (عكا) و (الناصرة) و (قيسارية) و (حيفا) و (صفورية) و (صيدا) و (بيروت) . وتم هذا الزحف المظفر في أقل من شهر !!!

ولكن هدف صلاح الدين الحيوي كان استعادة بيت المقدس ، لذلك سار الى (عسقلان) ، لكي يتم عزل بيت المقدس عن البحر . وطوق صلاح الدين هذه المدينة من البر ، وضربها بالمجانيق ضرباً شديداً ، حتى استسلمت بالأمان في آخر جمادى الثانية سنة (٥٨٣) الهجرية ، ثم استعاد معظم الحصون والمدن المجاورة .

ويمم صلاح الدين شطر المسجد الاقصى ، فأشرف على بيت المقدس في منتصف شهر رجب من سنة (٥٨٣) الهجرية ، وكانت تموج بجموع زاخرة من الفرنج الذين قصدوها من سائر البلاد للدفاع عنها .

وحاصر صلاح الدين المدينة المقدسة ، وشدد عليها الحصار ، وتمكن المسلمون من نقب السور . فلما علم الفرنج بخطورة الموقف ، أوفدوا الى صلاح الدين وفداً من رؤسائهم يطلبون الأمان .

ودخل المسلمون بيت المقدس في يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب (٥٨٣) الهجرية ، فرفعوا أعلامهم فوق الاسوار وفوق المسجد الاقصى ، وأبدى صلاح الدين مع الفرنج منتهى التسامح كما تشهد مصادرهم التاريخية .

كان تعداد جيش المسلمين اثني عشر ألف مقاتل في معركة (حطين) ، وكان تعداد جيش الفرنج خمسين ألف مقاتل .

وكان تعداد جيش المسلمين في معركة (بيت المقدس) أقل من اثني عشر ألفاً ، وكان المقاتلون من الفرنج في القدس ستين ألفاً .

وانتصرت الفئة القليلة على الفئة الكبيرة بإذن الله .

كانت أسباب النصر كثيرة على رأسها قيادة صلاح الدين ، لأنه وهب حياته للجهاد في سبيل الله ، وكانت العقيدة الاسلامية تملأ نفسه ومشاعره يضطرم بها ولا يؤمن بغيرها ، وكان وافر الحلم جم التواضع متقشفاً في ملبسه وطعامه ، ينفق كل ما تصل إليه يده في أغراض الجهاد ومصالح المسلمين ، لا يهتم بشيء من أعراض هذه الدنيا من مال أو قصور أو غيرها ، حتى انه لما توفي لم يخلف مالاً ولا عقاراً ، ولم يجدوا في خزائنه شيئاً من الذهب أو الفضة سوى دينار واحد وسبعة وأربعين درهماً .

وكان صلاح الدين الايوبي يحمل صناديق مقفلة في أيام جهاده ، يحرص عليها أعظم الحرص ، ويرعاها أعظم الرعاية .

وظن الذين من حوله من المقربين اليه ، بأن هذه الصناديق تخفي في بطونها جواهر ويواقيت ومالاً ، ولكن بعد وفاته فتحت تلك الصناديق ، فوجد الذين فتحوها انها تحوي على وصية صلاح الدين وكفنه الذي اشتراه من كده ، وكمية من التراب .

وفتحت الوصية فكان مما جاء فيها : « أكفن بهذا الكفن الذي تعطر بماء زمزم وزار الكعبة المشرفة وقبر النبي ﷺ » .

« وهذا التراب هو من مخلفات أيام الجهاد ، تصنع منه طابوق يوضع تحت رأسي في قبري » .

وصنع من هذا التراب اثنتي عشرة طابوقة كبيرة تستقر اليوم تحت رأس صلاح الدين عليه رضوان الله في رمسه ويلقى الله بها يوم الدين .

لقد كان صلاح الدين بعد عودته من كل معركة يخوضها جهاداً في سبيل الله ، يحرص على جمع التراب المتكاثف فوق وجهه وثيابه ويضعه في صندوق من صناديقه السرية ، وقد استطاع جمع هذه الكمية الكبيرة من التراب التي صارت اثنتي عشرة طابوقة (الطوب) ، فكم عدد المعارك التي خاضها جهاداً لإعلاء كلمة الله ؟ ! !

مات صلاح الدين في السابع والعشرين من شهر صفر سنة (٥٨٩) الهجرية ، أي بعد سنتين من معركة (حطين) وفتح بيت المقدس ، وكان عمره يوم مات ستة وخمسين عاماً ، فقال عن موته شهاب الدين القدسي صاحب كتاب الروضتين في تاريخ الدولتين : « كان يوماً لم يصب الاسلام والمسلمون بمثله مذ فقد الخلفاء الراشدون ، وغشى القلعة والبلد والدنيا من الوحشة ما لا يعلمه إلا الله تعالى » .

هل كان ينتصر صلاح الدين ، لو صرف كل همه الى فرجه وجيبه ومسكنه ومأكله ؟

هيهات . . .

إن الفرق الكبير بين الانسان والحيوان ، هو أن الانسان له مثل عليا يؤمن بها ويضحي من أجلها ، وهذه المثل العليا هي العقيدة .

والإنسان يؤثر مثله العليا على متاع الدنيا ، لأن تلك المثل هي الباقية ولأنها نابعة من الانسانية الحقة .

أما الحيوان فهو الذي يؤثر فرجه وعلفه واسطبله وهي متاعة في الدنيا الفانية التي يعيش من أجلها الحيوان وبها أصبح حيواناً .

فكم من البشر أخلدوا الى الأرض ، فأصبحوا حيوانات بل هم أضل سبيلاً ؟ !

فما عبرة معركة (عين جالوت) التي تفيد العرب والمسلمين في حاضرهم ومستقبلهم ؟

٣

ما هي عبرة معركة (عين جالوت) لحاضر العرب والمسلمين ومستقبلهم ؟

في سنة (٦٥٤) الهجرية احتل التتار سائر بلاد الروم بالسيف ، واحتلوا بغداد عاصمة العباسيين وقضوا على الدولة العباسية في المشرق سنة (٦٥٦) الهجرية ، واستولوا عنوة على (حران) و (الرها) و (ديار بكر) سنة (٦٥٧) الهجرية ، ونزلوا مدينة (حلب) سنة (٦٥٨) الهجرية واستولوا عليها ، ووصلوا الى دمشق في نفس السنة واستولوا عليها ثم تعدوها الى (نابلس) و (الكرك) و (بيت المقدس) .

وقد كان من أهداف التتار الاستيلاء على فلسطين واجتيازها الى مصر ، وكان جيشهم يتقدم كالأعصار الشديد ، لا يبقي ولا يذر مدمراً كل قوة تقاومه ، ناشراً الرعب والخراب والدمار .

وكان على مصر حينذاك قطز ، وكان يخشى على وطنه أن يجتاحه التتار اليوم أو غداً ، وكان التتار في مسيرتهم الظافرة يتقدمون من نصر الى نصر ، وقد أصبحت مصر قريبة منهم ، وكانوا يطمعون في أن يجعلوها ضمن ممتلكاتهم التي امتدت من أقصى الشرق الى البحر الأبيض المتوسط .

وجمع قطز رجاله المفكرين ، وسألهم الرأي فيما يصنع ، فأشاروا عليه بحرب التتار خارج الأرض المصرية ، حتى يبعد عن مصر الخراب والدمار .

واقتنع قطز بهذا الرأي ، وقدر أنه اذا انتصر على التتار فقد كفى مصر مغبة الدمار ، وإذا اندحر أمامهم كانت له أرض الكنانة ملجأ وموئلا .

واستنفر جيش مصر ، وحث الناس على الجهاد ، فلبى نداءه كثير من المجاهدين ، كان على رأسهم العز بن عبد السلام وأبي الحسن الشاذلي رضي الله عنهما اللذين شحنا جيش قطز بطاقات معنوية لا تنضب .

وانضم المجاهدون الى الجيش النظامي المصري ، وكان هذا الجيش حينذاك قليلاً في عَدده ، ضعيفاً في عُدده ، واجبه الأول حماية الأمن الداخلي وجباية أموال الدولة ، ولم يكن من واجبه الحرب خارج البلاد .

وبدأ الشيخان الجليلان العز بن عبد السلام وأبو الحسن الشاذلي يأمران الجيش المصري قادة وجنوداً بالمعروف وينهيان عن المنكر ، ويحثان على التوبة النصوح ، ويزيلان ما علق بالنفوس من أدران ، ويقوّمان ما اعوج ويصلحان ما فسد ، ويبرزان للمقاتلين فضل الجهاد ، ويظهران أجر الشهادة في سبيل الله ، ويعلنان درجة الشهداء عند الله ، ويرفعان المعنويات ، حتى شحنا جيش مصر بشحنات معنوية بغير حدود ، بحيث صمم رجاله على أن ينالوا احدى الحسنيين : الشهادة أو النصر . . . ولا يغلب جيش يتحلى بمثل هذه المعنويات العالية .

٤

وصل الجيش المصري (عين جالوت) وهي بليدة صغيرة تبعد خمسة أميال عن مدينة (العفولا) في فلسطين ، وتقع بين (العفولا) ومدينة (بيسان) .

وتحفز جيش التتار للقضاء على الجيش المصري ، فنشبت المعركة بين الطرفين سنة (٦٥٨) الهجرية .

ومن دراسة قوات الجانبين يظهر بأن التفوق الساحق كان الى جانب التتار على الجيش المصري في كل النواحي العسكرية المادية .

ولكن التفوق المعنوي كان الى جانب المصريين على التتار ، إذ كان المصريون يملكون سلاحاً سرياً بالغ الخطورة لم يحسب له التتار أي حساب ، هذا السلاح هو الايمان العميق بالله والتصميم على النصر أو الاستشهاد .

إن كل الحسابات العسكرية تجعل النصر الى جانب التتار بدون أدنى شك .

أولاً : كان قادة التتار لهم تجربة طويلة في الحروب ، ولم تكن لقطز أية تجربة عملية في الحروب الكبيرة أو الصغيرة .

ثانياً : كانت معنويات قادة التتار عالية ، لأنهم تقدموا من نصر الى نصر ، ولم تنكس لهم راية منذ بضع سنين خلت .

وكانت معنويات قطز منهارة ، لأنه لم يحارب أبداً على نطاق واسع ولم ينتصر في حرب .

ثالثاً : كانت معنويات التتار متفوقة على معنويات المصريين، وكان الشائع بأن جيش التتار لا يقهر أبداً.

وقد انتصر هذا الجيش بالرعب في كثير من المعارك التي خاضها ، وكانت سمعته العسكرية قد ملأت الدنيا .

رابعاً : كانت كفاية جيش التتار العسكرية متفوقة على الجيش المصري ، لأن هذا الجيش خاض معارك لا تعد ولا تحصى ، لذلك كانت تجربته العملية على فنون القتال باهرة الى أبعد الحدود .

بينما لم تكن للجيش المصري كفاية قتالية نتيجة لتجاربه العملية في الحرب ، إذ لم يسبق له خوض معركة حربية كبيرة ولم يحرز نصراً في القتال .

خامساً : كان التتار متفوقين على المصريين في العدد والعُدد ، خاصة بالفرسان الماهرين في حروب الفروسية ، وكانت شهرة فرسان التتار قد ملأت الآفاق اقداماً وشجاعة وتمرساً على فنون القتال .

سادساً : كان التتار متفوقين على المصريين في تسليحهم ، وكان لأسلحتهم معين لا ينضب نتيجة لما كانوا يملكونه من سلاح وما غنموه من أعدائهم في حروبهم الطويلة .

سابعاً : كان جيش التتار متفوقاً على الجيش المصري في قضاياه

الادارية ، إذ كان يستند على البلدان الغنية التي احتلها في أرض الشام ، بينما كانت قواعد المصريين الادارية بعيدة عنهم ، لأنهم كانوا يعتمدون على مصر وحدها ، والمسافة بين مصر و (عين جالوت) طويلة ، خاصة في تلك الأيام التي كانت القضايا الادارية تنقل على الدواب .

هذا التفوق الساحق الذي كان الى جانب التتار ، له نتيجة متوقعة واحدة ، هي إحراز النصر على الجيش المصري أسوة بانتصاراتهم الباهرة على الروم والعرب ومختلف الأمم والشعوب .

ولكن الجيش المصري انتصر على جيش التتار كما هو معروف ، فكيف حدث ذلك[1] ؟

٥

شن التتار على المصريين هجوماً كاسحاً ، وتقدم الهجوم فرسان التتار المتمرسون على حرب الصاعقة ، فتزعزعت صفوف الجيش المصري ، وتكبدت خسائر فادحة بالارواح ، ثم تراجعت الى الخلف بغير نظام .

وأوشك التتار أن يطوقوا المصريين ، وأوشكوا أن يكتسحوا صفوفهم ، فلما رأى قطز ما حاق بالجيش المصري ، صرخ : « وا إسلامـاه... وإسلاماه» .

وكان العز بن عبد السلام وأبو الحسن الشاذلي قبل المعركة قد عملا عملهما البناء في إيقاظ الشعور الديني في الجيش المصري ، فكانت لتلك الصرخة المؤمنة القوية الأمينة أثرها العميق في استثارة القيادة والجنود ، وكان النصر المؤزر للمصريين خلافاً لمبادىء الحرب ولما كان يتوقعه المصريون أنفسهم .

---

(١) انظر تفاصيل المعركة في كتابنا : بين العقيدة والقيادة .

وبعد هذه المعركة لم يفلح التتار أبداً إذ تكبد التتار فيها خسائر فادحة بالأرواح والأموال، فولوا مدبرين، وطمع فيهم الناس يتخطفونهم.

ودخل المظفر قطز دمشق ، واستعادها من التتار .

وبعث لمطاردة التتار أحد قادته المدعو بيبرس فطهر هذا القائد أرض الشام من التتار حتى استعاد مدينة حلب الشهباء .

وهكذا استطاع جيش مصر بالايمان الذي بعثه من جديد العالمان الجليلان والشيخان الكبيران العز بن عبد السلام وأبو الحسن الشاذلي عليهما رضوان الله أن يحرز انتصارات باهرة على التتار ، وكان الناس قبل ذلك يظنون بأن هذا الجيش لا يهزم أبداً !!

ولقد كان تعداد جيوش العباسيين في بغداد أكثر أضعافاً مضاعفة من تعداد جيش قطز .

وكانت بغداد محصنة تحصيناً قوياً ييسر الدفاع عنها والثبات فيها مدة طويلة كافية لصد المعتدين التتار عن أسوارها الشاهقة .

ولكن كان جيش العباسيين يومئذ في شغل شاغل عن الحرب وعن متطلبات الحرب .

كان قادته قد شغلوا أنفسهم بجمع المال والتطاول بالبنيان وحب الشهوات ، وأعرضوا عن واجباتهم العسكرية تدريباً وتسليحاً وتجهيزاً وضبطاً ونظاماً .

وكان قادته قد دب بينهم الفساد ، وشاعت بينهم الرشوة ، وهانت عليهم كرامة الناس وأعراضهم : لا يعفون عن الحرام ، ولا يخافون الله .

وكان قد نشب بينهم الخلاف على المناصب والأموال واللهو ، فلجأ كل واحد منهم الى مجموعة من الجيش يركن اليها ويقاسمها المغانم والأسلاب .

وكان أولئك القادة لا يتسنمون مناصبهم لكفاياتهم العسكرية ومزاياهم الانسانية الرفيعة ، ولتجربتهم الطويلة في معاناة الحروب ؛ بل كانوا

يتسنمونها لأحسابهم وأنسابهم ، أو لأنهم من (شلة) أصحاب السلطة ، أو ممن يخشاهم أصحاب السلطة ، أو ممن يقدمون المال الحرام لأصحاب السلطة ثمناً لمناصبهم العسكرية .

أما أفراد الجيش ، فكانت كل مجموعة منهم تنتسب لقائد من القادة : تحتمي به ، وتدافع عنه ، وتنال أجرها على أتعابها .

أصبح قادة الجيش رؤساء عصابات مسلحة ، وأصبح أفراد الجيش عصابات مسلحة ، تعمل لمصلحتها الشخصية بعيدة كل البعد عن مصلحة الدولة العليا .

بالطبع أمثال هؤلاء القادة لا يستطيعون اعداد جيوشهم للحرب .

فاذا وقعت الحرب ، لا يستطيعون قيادة رجالهم كما ينبغي .

لذلك كان وجود أمثالهم على رأس الجيش العباسي ، من مصلحة أعداء هذا الجيش ، ما في ذلك أدنى شك .

ولهذا كان عدد أمثال ذلك الجيش وعُدده مهما بلغت ضخامتها غثاء كغثاء السيل .

وجاء جيش التتار ، فواجه في بغداد العباسية جيشاً متفسخاً : قادته يفكرون بما خلفوه وراءهم من متاع ولا يفكرون في الدفاع عن بلدهم ، وجنوده غير مدربين وغير مستعدين للحرب ، والجنود والقادة ملوثون بالكبائر من الذنوب كأن أحدهم جبل أسود كل ذراته وصخوره ذنوب : نسوا الله فأنساهم أنفسهم .

وبادر القادة بالاتصال المباشر وغير المباشر بالغزاة ، ليضمنوا حماية أرواحهم وأملاكهم .

وبادر الجنود الى الهرب ، لأنهم لا مصلحة لهم في الدفاع عن مدينتهم العظيمة ومدنيتهم العريقة .

وهكذا أصبحت بغداد وقد غاب عنها حماتها ، فاستسلمت للبرابرة الغزاة ، حيث قضوا على حضارتها العريقة التي أنارت الدروب للعالم كله قروناً طويلة .

استسلمت بغداد ، لأن حماتها تنكروا لعقيدتهم ، فخسروا كل شيء .

ولاقى البرابرة الغزاة جزاءهم العادل في معركة (عين جالوت) ، لأن الجيش الذي قاتلهم هناك ، كان قد خرج من بلده الأمين مهاجراً الى الله ورسوله ، ليست له غاية غير إعلاء كلمة الله والجهاد بالأموال والأنفس في سبيل الله .

٦

الدرس الذي يفيد العرب والمسلمين هو : أهمية العقيدة في إحراز النصر .

إن الطائرات والدبابات والأسلحة المختلفة والعتاد والذخيرة ، كتل من الحديد صنعها الانسان ويستعملها الانسان في الحروب دفاعاً عن النفس أو لتحقيق أطماع توسعية .

ولا يزال الانسان هو المسيطر على كل سلاح وعتاد ، وبدونه لا قيمة لكل سلاح ولكل عتاد .

ولكن الانسان بدون عقيدة تجمع شمله وترصّ صفوفه وتوحّد كلمته وتشيع فيه الانسجام الفكري الذي بدونه لا يكون تعاون ولا اتحاد ، لا قيمة له من الناحية العسكرية .

وهذه العقيدة هي مُثُلٌ عليا يؤمن بها الانسان ويضحي من أجلها بالأموال والأنفس .

وروح الإنسان أغلى ما يملكه الانسان، فمن المستحيل أن يضحي بها إلا

إذا كانت له عقيدة راسخة وأهداف سامية .

وكتل الحديد التي هي السلاح والعتاد ، لا جدوى منها ولا فائدة فيها ، إذا لم يستعملها إنسان ذو عقيدة راسخة وأهداف سامية .

وحين كان العرب قادة وجنوداً وأفراداً وشعوباً متمسكين بعقيدتهم السماوية ، فتحوا العالم وقادوا الحضارة العالمية .

وحين تخلّى العرب عن عقيدتهم ، تداعت عليهم الأمم كما تداعى الأكلة على الثريد .

ولم يكن ذلك من قلة ، ولكنهم يومئذ كثير ، بدون عقيدة .

ترى ! ! أيعقل العرب اليوم هذا الدرس ، فيعودون الى دينهم الحنيف بما فيه من تكاليف البذل والتضحية والفداء ، ليعود إليهم مجدهم وعزهم ؟

أم هم لا يزالون بحاجة الى كثير من النكسات والنكبات ! ؟

التديّن من مزايا القائد المنتصر

١

عزمت على إخراج كتاب للناس عن : (قيادة النبي) ﷺ ، أتحدث فيه عن صفات القائد المثالي ، ثم أطبق تلك الصفات على مزايا النبي ﷺ القيادية ، فهو القدوة الحسنة للمسلمين في كل زمان ومكان ، وهو المثال الرائع للمشرعين والإداريين والسياسيين وللقادة أيضاً .

وكان منهاجي في البحث بعد كتابة المقدمة ، دراسة صفات القائد في التراث العربي الاسلامي أولاً ، ودراسة صفاته في الكتب العسكرية الأجنبية الحديثة ثانياً ، ومقارنة ما جاء في تراثنا بما جاء في المصادر العسكرية الجديدة التي كتبها أشهر قادة الحرب من عهد نابليون حتى اليوم .

وبغير مباهاة بتراثنا العربي الاسلامي واعتزاز ، وإقراراً للحق وحده ، وبدون انفعال ولا عاطفة ، فقد وجدت أن ما جاء في تراثنا أغزر مادة وأكثر تفصيلاً وأشمل دراسة وأعمق فكراً مما جاء في المصادر العسكرية الحديثة ، ابتداء بما قاله نابليون وانتهاء بما سطره مونتكومري في كتابه : (السبيل الى القيادة) الذي صدر باللغة الانجليزية قبل أعوام .

والواقع أن في تراثنا العربي الاسلامي كنوزاً من العلم والمعرفة يندر

وجودها في تراث آخر لأية أمة من الأمم ، ولكن المناهج التعليمية التي حرص المستعمر على وضعها ، وحرص أيتامه على إقرارها من بعده ، عملت عملها الهدام في التقليل من شأن تراثنا العريق ، وصورته بصورة المتخلف عن ركب الدراسات العلمية والأدبية والفنية ، وجعلت التلاميذ والطلاب يشيحون بوجودهم عنه ، مبهورين بكل ما جاء به الأجنبي .

ومن المؤسف حقاً إنّ تراثنا الشامخ ، أصبح مجهولاً حتى من أساتذة الجامعات ، فهم يرددون ما قاله الأجنبي فلان والمستشرق فلان .

لقد قرأت مؤخراً بحثاً مستفيضاً عن مؤرخ عربي قديم ، كتبه أستاذ جامعي كبير ، فكانت كل مصادره أجنبية ، ولم (يتواضع) حتى في الاعتماد على مصدر عربي واحد . . . ! كأن أولئك الأجانب ابتكروا المعلومات التي أوردوها عن ذلك المؤرخ العربي ، بينما الحقيقة هي أن الأجانب نقلوا معلوماتهم عن تراثنا مستهدفين إظهار العيوب وإخفاء المزايا .

وإذا كان للمستشرقين والأجانب من غير العرب عذرهم الواضح في التقليل من شأن تراثنا العربي الاسلامي ، فما عذر المستغربين العرب في اقتفاء آثار الأجانب والمستشرقين ؟

لقد توخى المستعمر قلع صلة تلاميذ العرب وطلابهم من جذورها بتراثهم الحضاري العظيم ، والأمة التي ليس لها ماض تعتز به لا يكون لها حاضر ولا مستقبل ، لأن معرفة الماضي هي وحدها تطوع لنا تصوير المستقبل ، فالماضي والحاضر والمستقبل وحدة لا سبيل الى انفصامها ، ومعرفة الماضي هي الوسيلة لتشخيص الحاضر وتنظيم المستقبل .

٢

في هذه الدراسة سأركز على ما جاء عن (العقيدة) كمزية من مزايا القائد المنتصر في تراثنا العربي الاسلامي أولاً وفي المصادر الأجنبية ثانياً[١] .

(١) انظر التفاصيل في كتابنا : بين العقيدة والقيادة .

والتراث العربي الاسلامي في الناحية العسكرية ضخم جداً، يملأ مكاتب أوروبا ومتاحفها، وتزخر به مكاتب المخطوطات العربية في شتى أصقاع الدنيا، ويكفي أن نذكر كتاب فهرست ابن النديم الذي عدد فيه: (الكتب المؤلفة في الفروسية وحمل السلاح، وآلات الحرب والتدبير والعمل بذلك لجميع الأمم)[1] لنرى أي تراث عسكري أصيل كان للعرب والمسلمين منذ أقدم العصور.

وإذا كان الزمن قد أبقى عدداً كبيراً من المخطوطات العسكرية العربية، فكم هو عدد المخطوطات العسكرية التي عفى عليها الزمن؟

ومن مقارنة ما جاء في كتاب الفهرست لابن النديم عن الكتب العسكرية العربية التي علم بها، بالكتب العسكرية العربية التي وصلت الينا في الوقت الحاضر، يتبين لنا أن كثيراً من تراث العرب العسكري لا يزال مفقوداً.

ولكن ما بقي من المخطوطات العسكرية العربية، يدل على أن العرب والمسلمين بلغوا شأواً بعيداً في العلوم العسكرية النظرية.

وسأقتصر على إيراد ما جاء في ثلاثة كتب من تراثنا العربي الاسلامي عن (العقيدة) وعلاقتها بصفات القائد المنتصر: كتابان منها مطبوعان والثالث لا يزال مخطوطاً.

جاء في كتاب (مختصر سياسة الحروب)[2] للهرثمي الذي عاش الى ما بعد سنة (٢٤٣) الهجرية في باب: (في أنّ نظام الأمر تقوى الله والعمل بطاعته) ما نصه:

« فينبغي لصاحب الحرب أن يجعل رأس سلاحه في حربه تقوى الله

---

(١) انظر التفاصيل في الفهرست، ابن النديم ص ٣١٤ ـ ٣١٥، بيروت، ١٩٦٤ م.
(٢) تحقيق المرحوم عبد الرؤوف عون، مراجعة الدكتور محمد مصطفى زيادة، القاهرة.

وحده وكثرة ذكره والاستعانة به والتوكل عليه ، ومسألته التأييد والنصر والسلامة والظفر ، وأن يعلم أن ذلك إنما هو من الله جل ثناؤه لمن شاء من خلقه كيف شاء ، لا بالأرب منه والحيلة والاقتدار والكثرة ، وأن يبرأ اليه جل وعز من الحول والقوة في كل أمر ونهي ووقت وحال ، وألا يدع الاستخارة لله في كل ما يعمل به ، وأن يترك البغي والحقد وينوي العفو ويترك الانتقام عند الظفر إلا بما كان فيه لله رضى ، وأن يستعمل العدل وحسن السيرة والتفقد للصغير والكبير بما فيه مصلحة رعيته ، وأن يعتمد في كل ما يعمل به في حربه طلب ما عند ربه عز وجل ليجتمع به خيرا الدنيا والآخرة »[1] .

وجاء في كتاب : (الأحكام السلطانية)[2] لأبي الحسن علي ابن محمد بن حبيب البصري البغدادي الماوردي المتوفى سنة (٤٥٠) الهجرية عن (العقيدة) في صفات القائد المنتصر : (أن يأخذ جيشه بما أوجبه الله من حقوقه وأمر به من حدوده ، حتى لا يكون بينهم تجوّر في دين الله ولا تحيف في حق ، فإن من جاهد عن الدين كان أحق الناس بالتزام أحكامه ، والفصل بين حلاله وحرامه)[3] .

وجاء في كتاب : (الأدلة الرسمية في التعابي الحربية)[4] لمحمد ابن منكلي نقيب الجيش في سلطنة الأشرف شعبان (٧٦٤ هـ - ٧٧٨هـ) وقد ألف هذا الكتاب سنة (٧٧٠) الهجرية : (ان تقوى الله هي العمدة العظمى ، والفوز الأكبر الأعلى ثم قال : ويلزم أمير الجيش أن يؤلف بين قلوب رفقائه ، وأن يراعي في جيشه ما أوجبه الله من حقوقه . . .) .

---

(١) مختصر سياسة الحروب ص ١٥ .

(٢) الأحكام السلطانية ، الماوردي ، القاهرة ، الطبعة الثانية ١٣٨٦ هـ .

(٣) الأحكام السلطانية ٤٤ - ٤٩ وفيها تفصيل ذلك .

(٤) كتاب مخطوط منه نسخة في مكتبة آيا صوفيا (في تركيا) برقم (٣٨٣٩) وأخرى برقم (٢٨٧٥) ، وأعمل الآن في تحقيقه وإخراجه للناس نظراً لفائدته العظيمة .

٣

تلك لمحات مما جاء في التراث العربي الاسلامي عن صفة (العقيدة) في القائد المنتصر .

. وأكاد ألمح قسماً من القراء يطالبون بإيراد ما جاء في المصادر الأجنبية الحديثة عن ميزة (العقيدة) في القائد المنتصر .

وأستطيع إيراد أمثلة لا تعد ولا تحصى من المصادر الأجنبية ، ولكنني سأقتصر على إيراد ما جاء في آخر كتاب صدر عن القيادة هو كتاب : (السبيل الى القيادة) الذي ألفه المشير اللورد مونتكومري أبرز قادة الحلفاء في الحرب العالمية الثانية ، وهو قائد معروف أشهر من أن يعرف .

يتساءل مونتكومري : (هل من علاقة للدين بالقيادة) ؟ وهو يجيب على هذا التساؤل جواباً جازماً فيقول : « إن القائد لا بد من أن يكون متمسكاً بمثل عليا وبالفضائل الدينية » .

ومجمل الفضائل الدينية التي يراها مونتكومري هي :

أ ـ **الهدي** : « وهي عادة إرجاع جميع الأمور الى الارشاد الإلهي ، وإلى هذه الفضيلة تستند الحكمة والانصاف وحسن التصرف » .

ب ـ **العدالة** : « وهي إعطاء كل فرد حقه : حق الله وحق الانسان نفسه ، وإلى هذه الفضيلة تستند الواجبات الدينية والطاعة والشكران ، وكذلك النزاهة والاستقامة وحسن النية نحو الآخرين » .

جـ ـ **الانضباط** : « وهو السيطرة على النفس لغرض تطوير الطبيعة البشرية الى أرفع المستويات للأغراض الاجتماعية والشخصية أيضاً ، والى هاتين يستند الطهر والتواضع والصبر » .

د ـ **الجلادة** : « وهي الروح التي تقاوم وتتحمل وتتغلب على محن الحياة وإغراءاتها ، وإلى هذه الفضيلة تستند الشجاعة الأدبية والمثابرة وضبط النفس » .

٤

ثم يتساءل مونتكومري : « من هم أعظم القادة في كل الأزمان » ؟ ثم يجيب : « إنهم ولا شك مؤسسو الديانات العظمى : المسيح ومحمد وبوذا » .

ثم يقول : « هل كانت الحياة الخاصة لهؤلاء الثلاثة احدى الأسباب لنفوذهم ونجاحهم ؟ وهل يجب أن تكون حياة القائد الخاصة فوق الشبهات » ؟

ويجيب مونتكومري على ذلك فيقول : « في رأيي الخاص في هذه القضية بالذات بل وجميع القضايا الأخرى أن العامل الأكبر هو اخلاص المرء ونفوذه وكونه (قدوة) وخاصة فيما يتعلق بالفضائل الدينية . . . .

« إنني لا أدري كيف يستطيع امرؤ أن يكون قائداً ، إن لم تكن حياته الخاصة فوق الشبهات ، فإن لم تكن حياته الخاصة فوق الشبهات ، فلا يحترمه الذين يقودهم ، وسيسحبون ثقتهم منه ، وإذا ما حدث ذلك ، فستفقد قيادته تأثيرها . . . انني أعتقد أن (الاستقامة) في القضايا المعنوية وفي الفضائل الدينية أمر ضروري لنجاح القائد » .

ومونتكومري يعتقد : « أن الميزة الأولى للقائد هي أن يكون مخلصاً إخلاصاً عميقاً وعظيماً وحقيقياً ، ينبعث من القائد من غير أن يشعر به ، فهو فيه بالطبيعة ، وهو لا يملك إلا أن يكون مخلصاً . ويضاف الى الاخلاص نكران الذات ، وأعني بذلك الولاء التام للقضية التي يخدمها ، من غير أن يفكر في جزاء أو تعظيم » .

ويقول : « يجب أن يكون القائد (مستقيماً) كل الاستقامة » ثم يقول : « وإني أعتقد أنه يجب أن يكون لدى القائد (يقين) باطني مبني على العقل ، ولكنه يعلو مع ذلك فوق العقل » .

وشاء مونتكومري أن يختم كتابه القيم : (الطريق الى القيادة) بخاتمة هي في الحق تهويمة صوفية بكل ما في هذا التعبير من معان ، فهي عبارة عن

رؤيا لاقى فيها أباه المتوفي فحدثه حديثاً قال له فيه أبوه : « يا بني لا أود أن أبقى طويلاً ، وأود أن أقول لك : يتحدث الناس في الدنيا كلها عن (الحرية) ، ولكن هناك حرية ايجابية واحدة هي حرية الاختيار بين الخير والشر ، وأن أفضل تعريف لهذه الكلمة التي قلما فهمها الناس هي : أن الحرية التامة هي في خدمة الرب » .

ويضيف مونتكومري الأب مخاطباً ابنه المشير مونتكومري في المنام : « عندما أعاين عالمكم اليوم ، ينتابني القلق أحياناً على الجيل الجديد . عندهم مغريات لم نحصل عليها أنا وأنت ، ويبدو أنهم ينضجون مبكراً ، ولكن ذلك يجري في عالم غير مأمون ، وهم يميلون الى أن يجعلوا للأمور (المادية) قيمة كبيرة وأن يهملوا القيم (الروحية) . . . على الشباب أن يتسلح جيداً بالشعور الروحي ، إذا أراد ألا ينحرف أو أراد ألا يجرفه التيار » .

ومن الواضح أن مونتكومري في كتابه هذا : (السبيل الى القيادة) ردد مرات كثيرة ، أهمية تحلي القائد بالدين ، وقد عزا نجاحه قائداً منتصراً أكثر من مرة في كتابه هذا الى تمسكه بأهداب الدين .

٥

وربما يتبادر الى الأذهان السؤال التالي : (كيف انتصر الاتحاد السوفياتي وهم لا يؤمنون بالدين؟

والواقع أن الاتحاد السوفياتي قد تساهل مع أفراد جيشه في القضايا الدينية أيام الحرب العالمية الثانية ، فأقبل الناس على الكنائس وظهرت الايقونات والصلبان وحملها العسكريون على صدورهم .

إن المرء حين يكون في خطر محدق يرجع عادة الى الله ، ويدعوه أن ينجيه من الخطر .

ولكن السوفييت إذا تخلوا رسمياً عن دين الله ، فهم قد تمسكوا رسمياً أيضاً بدين البشر .

وتعصبهم لعقيدتهم البشرية المادية معروف ، وهذه العقيدة مهما يكن أمرها أدت الى اشاعة الانسجام الفكري الذي أدى بدوره إلى التعاون في الحرب .

إن العقيدة ضرورية للغاية للقائد وللجنود أيضاً ، والتمسك بعقيدة فاسدة خير من التخلي عن كل عقيدة ، وقديماً قالوا : « لو اعتقد المرء بحجر لنفعه » .

وقد كان من جملة أسباب اندحار العرب في حرب حزيران (يونيو) ١٩٦٧ هو تخليهم عن عقيدتهم السماوية العظيمة .

لذلك انتصرت العقيدة الفاسدة التي يتمسك بها يهود على من لا عقيدة لهم .

إن العرب إذا عادوا الى الله ، فإنهم يستطيعون حشد عشرة ملايين مقاتل لمحاربة اسرائيل ، لأن نفوس العرب مائة مليون نسمة .

وإن المسلمين إذا عادوا الى الله فانهم يستطيعون حشد سبعين مليون محارب لمقاتلة اسرائيل ، لأن نفوس المسلمين اليوم سبعمائة مليون نسمة .

فأين تكون اسرائيل لو صدق العرب والمسلمون ما عاهدوا الله عليه ؟

مرة ثانية :

لو كتب عسكري عربي ما كتبه مونتكومري عن : علاقة (الدين) بالقيادة ، فماذا كان يقول عنه الناس هنا وهناك ؟؟؟ !!!

إن القائد بدون (عقيدة) كالجسد بدون روح ، ولن يفلح قائد تخلى عن عقيدته أو كان بدون عقيدة .

وتاريخ الحروب في كل العصور لكل الأمم ، خير دليل على ما أقول .

شجاعة النبي صلى الله عليه وسلم

١

ما أحوج العرب والمسلمين اليوم ، الى الاقتداء بشجاعة الرسول القائد عليه أفضل الصلاة والسلام ، والأرض المقدسة والقدس الشريف والضفة الغربية وقطاع (غزة) وسيناء والهضبة السورية تئن تحت وطأة الاحتلال الاسرائيلي ، وبلادهم من النيل الى الفرات مهددة بالتوسع الصهيوني الاستيطاني ؛ ليخاطبوا إسرائيل باللغة الوحيدة التي تفهمها وترضخ لها ، وليستعيدوا حقوقهم المغتصبة ويفرضوا السلام على أعداء السلام في أرض السلام . . .

وسيرة النبي ﷺ العطرة ، تقدم نماذج رائعة فذة ، تبرز بها شجاعة النبي ﷺ في أيام السلام والحرب على حد سواء . . .

كانت رجولته النادرة تملأ الأعين قدراً وجلالاً ، وكان في السلم (رجلاً) يوحِّد من أجل الجهاد ، وكان في الحرب (رجلاً) يجاهد من أجل (التوحيد)؛ وكانت حياته المباركة منذ مبعثه الى التحاقه بالرفيق الأعلى (توحيداً) من أجل (الجهاد) و (جهاداً) من أجل (التوحيد) ؛ وكان من

بعض آثار جهاده وتوحيده ، جمع شتات العرب في شبه الجزيرة العربية كلها تحت لواء الاسلام . . .

ولست بصدد ذكر أمثلة من شجاعته في أيام السلام ، لأنني أحب أن يقتصر حديثي على شجاعته في أيام الحرب ، لأن العرب والمسلمين يعانون في هذه الأيام العصيبة من حرب فرضت عليهم فرضاً ، فهم أحوج ما يكونون الى تدارس شجاعته ﷺ العسكرية ، لتكون أسوتهم الحسنة في حاضرهم ومستقبلهم ، وليقتفوا أعماله البطولية في ميدان القتال . . .

ولكنني استأذن القراء بذكر مثال واحد دليلاً على شجاعته في أيام السلام ما قرأته في السيرة النبوية العطرة إلا وهتفت من صميم قلبي : ما أعظم شجاعتك يا رسول الله عليك أفضل الصلاة وأزكى السلام ! !

قال عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه : « حضرتهم[١] ، وقد اجتمع أشرافهم يوماً بالحجر[٢] ، فذكروا رسول الله ﷺ ، فقالوا : مارأينا مثل ما صبرنا عليه من أمر هذا الرجل قط : سفّه أحلامنا ، وشتم آباءنا، وعاب ديننا ، وفرّق جماعتنا ، وسبّ آلهتنا ـ لقد صبرنا منه على أمر عظيم . فبينما هم في ذلك إذ طلع رسول الله ﷺ ، فأقبل يمشي حتى استلم الركن ، ثم مر بهم طائفاً بالبيت. فلما مرّ بهم غمزوه[٣] ببعض القول ، فعرفت ذلك في وجه رسول الله ﷺ . ثم مضى ، فلما مرّ بهم الثانية غمزوه بمثلها ، فعرفت ذلك في وجه رسول الله ﷺ . ثم مرّ بهم الثالثة فغمزوه بمثلها ، فوقف ثم قال : أتسمعون يا معشر قريش ! أما والذي نفسي بيده ،

---

(١) يريد : حضرت قريشاً .

(٢) الحجر : حجر الكعبة ، وهو ما تركته قريش في بنائها من أساس ابراهيم عليه السلام ، وحجرت على المواضع ليعلم أنه من الكعبة ، فسمي حجراً لذلك ، لكن فيه زيادة على ما في البيت ، وكان ابن الزبير أدخله في الكعبة حين بناها ، فلما هدم الحجاج بناءه رده على ما كان عليه في الجاهلية . (راجع معجم البلدان) .

(٣) غمزوه : طعنوا فيه .

لقد جئتكم بالذبح[1] ! . . فأخذت القوم كلمته ، حتى ما منهم رجل إلا كأنما على رأسه طائر واقع ، حتى أن أشدهم فيه وصاة[2] قبل ذلك ليرفؤه[3] بأحسن ما يجد من القول ، حتى انه ليقول : انصرف يا أبا القاسم ، فوالله ما كنت جهولاً ! ! فانصرف رسول الله ﷺ ، حتى إذا كان الغد اجتمعوا في (الحجر) وأنا معهم ، فقال بعضهم لبعض : ذكرتم ما بلغ منكم ، وما بلغكم عنه ، حتى إذا بادأكم بما تكرهون تركتموه ! فبينما هم في ذلك طلع عليهم رسول الله ﷺ ، فوثبوا اليه وثبة رجل واحد ، وأحاطوا به يقولون : أنت الذي تقول كذا وكذا ، لما كان يقول من عيب آلهتهم ودينهم ، فيقول رسول الله ﷺ : نعم ، أنا الذي أقول ذلك ! . . »[4] .

كان ذلك أيام ضعف المسلمين ، قبل الهجرة الأولى الى أرض الحبشة وقبل إسلام حمزة عم النبي ﷺ . . .

وهذا يدل على تحدٍ شديد لقريش ، وعلى شجاعة مذهلة حقاً . . .

٢

ولكن ما نحتاج اليه اليوم ، هو التذكير بشجاعة النبي ﷺ في أيام الحرب ، حتى تكون نبراساً للعرب والمسلمين قادة وجنوداً وحكاماً ومحكومين وحكومات وشعوباً . . .

إن من أهم صفات القائد بخاصة والجندي بعامة ، هي التحلي بالشجاعة الشخصية . . .

(١) الذبح : مجاز عن الهلاك ، ومنه في حديث القضاء : (من تصدى للقضاء وتولاه فقد تعرض للذبح ، فليحذره) .

(٢) الوصاة : الوصية .

(٣) يرفؤه : يهدئه ويسكنه ويرفق به ويدعو له .

(٤) أنظر التفاصيل في : سيرة ابن هشام (١ / ٣٠٩ ـ ٣١٠) ، تحقيق مصطفى السقا ورفاقه ، القاهرة ، ١٣٥٥ هـ.

والقائد الذي لا يتحلى بالشجاعة لا ينتصر أبداً ، لأن جنوده لا يثقون به ، ولانه لا يستطيع أن يكون مثالاً شخصياً لرجاله في الاقدام والتضحية ، ولأنه لا يخاطر بروحه فلا يخاطر أتباعه بأرواحهم . . .

والقائد الشجاع يتبعه رجاله الى الموت ، والقائد الجبان يسبقه جنوده الى النجاة . . .

والشجاع يربي الشجعان ، وخصلة الشجاعة تنتقل منه الى أتباعه بالعدوى ، وفاقد الشيء لا يعطيه . . .

لقد برزت شجاعة الرسول القائد عليه أفضل الصلاة والسلام في غزواته كلها بشكل يبهر العقول والقلوب معاً ، ويدعو الى أعظم الاعجاب والتقدير . . .

إن (قراره) قبول خوض غزوة (بدر) الكبرى ، وهي أول غزوة خاضها المسلمون ، شجاعة نادرة فذة ، لأن تعداد المسلمين يبلغ ثلث تعداد المشركين ، ولأن المشركين كانوا متفوقين على المسلمين بالتسليح والقضايا الادارية . . .

فقد بلغت قوة المسلمين في (بدر) ثلاثمائة وخمسة رجال من المهاجرين والأنصار[1] ، وبلغت قوة المشركين تسعمائة وخمسين رجلاً . . .

وكان مع المسلمين فرسان فقط وسبعون بعيراً ، وكان مع المشركين مائتا فرس يقودونها وعدد كبير من الإبل لركوبهم وحمل أمتعتهم . . .

وكان المسلمون فقراء يفتقرون الى الطعام ، وكان المشركون أغنياء ينحرون كل يوم تسعة من الإبل أو عشرة لطعامهم ، بينما يكتفي المسلمون غالباً بالتمر والسويق[2] . . . لسد الرمق . . .

---

(١) كان المهاجرون أربعة وسبعين رجلاً وسائرهم من الانصار . أنظر طبقات ابن سعد ٢ / ١٢ ، مع اختلاف طفيف في عددهم بالمصادر الاخرى . أنظر جوامع السيرة لابن حزم ١١٤ - ١٤٦ ، وسيرة ابن هشام ٢ / ٣٢٤ - ٣٥٤ .

(٢) السويق : طعام يتخذ من مدقوق الحنطة والشعير ، سمي بذلك لانسياقه في الحلق ، جمعها : أسوقة .

وكان الرسول القائد عليه أفضل الصلاة والسلام يدرك كل الإدراك خطر الاشتباك بالمشركين ، لأن اندحار المسلمين في هذه الغزوة الحاسمة قد يؤدي الى القضاء المبرم على مستقبل الاسلام ؛ لذلك ابتهل الى الله سبحانه وتعالى في دعائه قبل نشوب القتال وفي أثنائه قائلاً : (اللهم هذه قريش ، قد أتت بخيلائها تحاول أن تكذِّب رسولك . اللهم ، فنصرك الذي وعدتني . اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد) . . .

وحين اشتد أوار القتال في بدر ، نزل الرسول القائد عليه أفضل الصلاة والسلام بنفسه ليقود صفوف المسلمين ويباشر القتال ، فلم يكن أحد من المسلمين أقرب منه الى العدو . قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : « لما كان يوم (بدر) ، اتقينا المشركين برسول الله ﷺ ، وكان أشد الناس بأساً ، وما كان أحد أقرب الى المشركين منه »[1] . . .

وقال الإمام علي رضي الله عنه : « إنا كنا اذا اشتد الخطب[2] واحمرت الحدق[3] ، اتقينا برسول الله ﷺ ، وقد رأيتني يوم (بدر) ونحن نلوذ برسول الله ﷺ وهو أقربنا الى العدو »[4] .

٣

وكانت قوة المسلمين في (أحد) تسعمائة وخمسين راجلاً وخمسين فارساً ، وكانت قوة المشركين ثلاثة آلاف راجل وفارس . . .

---

(١) أنظر : دلائل النبوة للبيهقي ١ / ٢٧٨ ، القاهرة ، ١٣٨٩ هـ.

(٢) الخطب : الحال والشأن . وفي القرآن الكريم : (قال : فما خطبكم أيها المرسلون) ؟ ! والأمر الشديد يكثر فيه التخاطب جمعها : خطوب . وهنا يريد : الأمر الشديد ، والخطر المحدق .

(٣) الحدق : جمع حدقة . والحدقة : السواد المستدير وسط العين . واحمرت الحدق : اشتد الخطر وتفاقم الأمر ، حتى احمرت الحدق من جراء ذلك . وهذا التعبير : احمرت الحدق ، كناية عن تفاقم الخطر واشتداده .

(٤) أنظر الرسول القائد ٤٣١ .

وقد أعدّ الرسول القائد عليه أفضل الصلاة والسلام خطة تعبوية لخوض غزوة (أحد) ، قادت المسلمين الى النصر في المرحلة الأولى من المعركة ، حتى انهزم المشركون وتكبدوا خسائر فادحة . . .

ولكن (الرماة) الذين أمرهم النبي ﷺ ألا يبرحوا أماكنهم ولو رأوه وأصحابه يقتلون ، اختلفوا فيما بينهم ، فانطلق أكثرهم لجمع الغنائم من معسكر المشركين ظناً منهم بأن المعركة قد انتهت بنصر المسلمين . . .

وانتهز خالد بن الوليد رضي الله عنه هذه الفرصة ، فهاجم مواضع رماة المسلمين ، وضرب المسلمين من الخلف ، وطوقهم . فلما رأى المشركون ذلك ، قاموا بهجوم مضاد على المسلمين ، فأصبح المسلمون مطوقين من كل جانب ، وأصبح مصيرهم مهدداً بالفناء . . .

ولجأ أكثر المسلمين الى جبل (أحد) ، وثبت مع الرسول القائد عليه أفضل الصلاة والسلام أربعة عشر رجلاً : سبعة من المهاجرين وسبعة من الانصار[١] ، يقاتلون ليشقوا لهم طريقاً من بين قوات المشركين التي أطبقت عليهم من كل جانب . واستطاع المشركون أن يصلوا قريباً من موضع الرسول ﷺ فرماه أحدهم بحجر أصاب أنفه وكسر رباعيته[٢] .

وتمالك النبي ﷺ نفسه ، وسار مع البقية الباقية من أصحابه مقاتلاً ، فاذا به يقع في حفرة حفرها أبو عامر ليقع فيها المسلمون ، فأسرع اليه علي ابن أبي طالب رضي الله عنه وأخذ بيده . ورفعه طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه حتى استوى . . .

وأخذ المشركون يديمون زخم هجومهم المضاد للقضاء على المسلمين وعلى النبي ﷺ بالذات ، وصاح أحدهم بأعلى صوته : (قتلت محمداً . . .) . . .

---

(١) طبقات ابن سعد ٢ / ٤٢ .

(٢) الرباعية : السن بين الثنية والناب ، وهي أربع : رباعيتان في الفك الأعلى ، ورباعيتان في الفك الأسفل .

وقاد الرسول القائد صلوات الله وتسليمه عليه رجاله ، ورمى بنفسه عن قوسه ، حتى تحطمت القوس . . . وتساقط المسلمون حوله صرعى واحداً بعد الآخر ، حتى استطاعوا بقيادته الفذة شق طريقهم عبر صفوف المشركين ، ولجأوا الى رابية مشرفة من روابي جبل (أحد) . . .

وتركت هذه الشجاعة المذهلة أثرها في قريش ، فتوقف زخم هجومها ، وذهبت محاولات قريش كافة للقضاء على النبي ﷺ أدراج الرياح . . .

وصدق الله العظيم : (ولقد صدقكم الله وعده ، إذ تحسونهم [1] بإذنه ، حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون ، منكم من يريد الدنيا ، ومنكم من يريد الآخرة ، ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ، ولقد عفا عنكم ، والله ذو فضل على المؤمنين)[2] . . .

وعاد المشركون أدراجهم الى مكة ، وعاد المسلمون الى المدينة ، ولكن النبي ﷺ قرر القيام بحركة جريئة ترد الى المسلمين معنوياتهم ، وتدخل الى روع يهود والمنافقين الرهبة ، وتعيد الى المسلمين سلطانهم بالمدينة المنورة قوياً كما كان . . .

لذلك خرج بأصحابه الذين شهدوا غزوة (أحد) فقط ، في اليوم الثاني من يوم (أحد) لمطاردة المشركين . فلما وصل موضع (حمراء الاسد)[3] ، جاءه من يخبره أن قريشاً قررت السير اليه . . .

وقرر الرسول القائد عليه أفضل الصلاة والسلام لقاء قريش ، وبقي ينتظرهم هناك ثلاثة أيام ، ولكن المشركين المنتصرين خافوا لقاءه وحرصوا على الاحتفاظ بمكاسبهم . . .

---

(١) تحسونهم : تستأصلونهم بالقتل . قال ابن هشام : الحس : الاستئصال . يقال : حسست الشيء : أي استأصلته بالسيف وغيره . أنظر سيرة ابن هشام ٣ / ٦٦ .

(٢) الآية الكريمة من سورة آل عمران ٣ : ١٥٢ .

(٣) حمراء الاسد : موضع على ثمانية أميال من المدينة ، على طريق المدينة ـ مكة . أنظر التفاصيل في معجم البلدان ٣ / ٣٣٧ .

إن شجاعة النبي ﷺ في (أحد) تجل عن الوصف ، فقد استطاع أن يسيطر على الموقف الحربي تجاه تفوق ساحق للمشركين في معركة يائسة الى أبعد الحدود ، ثم يعيد تنظيم رجاله ويعيد اليهم معنوياتهم ويصد هجمات مضادة للمشركين ، فيحيل الهزيمة النكراء الى نصر ، لانه اضطر قريشاً الى اليأس من القضاء على المسلمين ، بعد أن كان فناء المسلمين أمراً حتمياً ، ثم اضطرهم الى الانسحاب من ساحة المعركة بعد اليأس من إبادة المسلمين . . .

ولم يكتف بذلك ، بل خرج في اليوم الثاني من المعركة ، لمطاردة المشركين ، حتى اضطرهم الى اتخاذ (الحيلة) بارسال معلومات كاذبة الى المسلمين حول اعتزامهم على إعادة الكرة على المسلمين ، فلم يكترث الرسول ﷺ بهذا التهديد والوعيد ، وانما أعد العُدة لمجابهة المشركين ، وقرر لقاءهم مهما تكن الظروف والأحوال . . .

إنني لم أقرأ في تاريخ الحرب ، قائداً تميز بمثل هذه الشجاعة الخارقة ، ولعل موقف النبي ﷺ في (أحد) هو من أعظم مواقفه العظيمة في الحرب التي تدل على شجاعته التي لا تتكرر أبداً . . .

٤



أ ـ وكان تعداد جيش المسلمين في غزوة (الخندق) ثلاثة آلاف رجل ، وكان تعداد الاحزاب عشرة آلاف مقاتل ، أربعة آلاف من قريش وستة آلاف من سليم وأسد وفزارة وأشجع وغطفان . . .

وحاصر المشركون المدينة المنورة ، واشتد القتال ، وكان رجحان كفة المشركين على المسلمين ظاهراً للعيان ، لذلك نكث يهود قريظة وانضموا الى المشركين . . .

وتحرج موقف المسلمين كثيراً ، إذ أصبح الخطر يتهددهم من داخل

المدينة بيهود ومن خارجها بالمشركين . . .

في ذلك الموقف العصيب ، الذي يفتت أصلب النفوس وأشجعها ، والذي وصفه القرآن الكريم وصفاً أبلغ وصف وأصدق وصف ، فقال تعالى: ﴿إذا جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم، وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا . هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً . وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض : ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً﴾[1] . وأشهد انني لا أكاد أقرأ هذه الآية بعد أربعة عشر قرناً من نزولها ، إلا وتكاد أعصابي تتمزق ويتملكني الشعور بالخوف الشديد والاشفاق على المسلمين من الموقف الرهيب الذي عاشوه يومذاك وعلى رأسهم النبي ﷺ في غزوة الأحزاب . . .

ومع ذلك ثبت الرسول القائد عليه أفضل الصلاة والسلام ثبات الجبال الشم الراسيات لا يتزعزع ولا يريم ، واثقاً بالله معتمداً عليه معتداً به . يقاتل كما يقاتل أصحابه ، ويحفر كما يحفرون[2] ، ويحرس كما يحرسون ، ويسهر كما يسهرون، بل كان يستأثر بالخطر ويؤثرهم بالأمن، ثم يحرضهم على القتال ويبشرهم بالنصر أو الجنة ، وإنما هي إحدى الحسنيين : انتصار أو شهادة . . .

ب ـ ويوم (حنين) كان خالد بن الوليد رضي الله عنه على مقدمة المسلمين في مائة فرس هي خيل بني سليم عند التقدم من مكة المكرمة الى الطائف لقتال هوازن وثقيف الذين أجمعوا على حرب المسلمين[3] .

وكان مالك بن عوف النصري قائد المشركين قد عبأ رجاله في وادي (حنين) ليلاً وأمرهم أن يحملوا على المسلمين حملة واحدة . . .

---

(١) الآيات الكريمات من سورة الاحزاب ٣٣ : ١٠ ـ ١٢

(٢) عمل النبي (ص) بحفر الخندق كأي فرد من المسلمين ، بل كان المسلمون يستعينون به عندما تصادفهم بعض العقبات والصعاب في أثناء الحفر ، كظهور الصخر ، فيحضر هو بنفسه لتفتيتها .

(٣) أنظر طبقات ابن سعد ١ / ١٤٩ ، والطبري ٢ / ٣٤٤ ، وسيرة ابن هشام ٣ / ٦٨ .

وانحدر المسلمون في عماية الصبح في وادي (حنين) على تعبية ، وهو واد من أودية (تهامة) أجوف حطوط[1] ينحدر انحداراً .

وهاجم المشركون المسلمين من كل جانب ، فانكشفت خيل بني سليم مولية وتبعهم أهل مكة وتبعهم الناس منهزمين . . .

ولكن الرسول القائد عليه أفضل الصلاة والسلام ثبت وثبت معه نفر قليل من أصحابه وأهل بيته لا يزيدون على العشرة رجال[2] .

وأخذ النبي ﷺ ينادي الناس إذ يمرون به منهزمين : « أين أيها الناس ؟ أين ؟ . . . هلموا إليّ ! أنا رسول الله ! أنا محمد بن عبد الله . . . ! » . . .

وتقدم عليه أفضل الصلاة والسلام وهو راكب بغلته البيضاء يركضها نحو العدو وهو يقول :

« أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب »

وأمر ﷺ عمه العباس رضي الله عنه أن ينادي : « يا معشر الأنصار ! يا أصحاب البيعة يوم الحديبية » . . .

وكرر العباس النداء ، حتى تجاوبت أصداؤه في جنبات الوادي . . . وسمع المهاجرون والأنصار النداء ، فكافحوا ليبلغوا مصدر الصوت ، ورمى أكثرهم درعه وترك بعيره واستصحب معه سيفه وترسه فقط ، ليبلغ مصدر الصوت بسرعة . . .

واجتمع حول الرسول القائد عليه أفضل الصلاة والسلام نحو مائة

---

(1) تهامة : ما انخفض من أرض الحجاز . وأجوف : متسع . وحطوط : منحدر .

(2) هم : أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب والعباس عم النبي (ص) وأبو سفيان بن الحارث وابنه جعفر والفضل بن العباس وربيعة بن الحارث وأسامة بن زيد وأيمن بن أم أيمن بن عبيد الذي قتل يومئذ .

مسلم وهم يتصايحون : « لبيك ... لبيك ... » ، فاستقبل بهم ﷺ المشركين ...

واشتد القتال ، وتقدم الرسول القائد عليه أفضل الصلاة والسلام برجاله ، ففر المشركون ... واستسلم كثير منهم أسرى ، فلما عاد المسلمون الذين هربوا وجدوا الكثيرين من المشركين أسرى مصفدين بالأغلال ...

ولولا ثبات النبي ﷺ ، لأصيب المسلمون بكارثة عسكرية ، ولصدق القائل حين رأى انهزام المسلمين : « لا تنتهي هزيمتهم دون البحر »[1] ...

ولكن شجاعة النبي ﷺ غيّرت الموقف من حال الى حال ...

قال البراء بن عازب رضي الله عنه : « كنا إذا حمي البأس نتقي برسول الله ﷺ ، وإن الشجاع الذي يحاذى به »[2] ...

وأخرج الشيخان واللفظ لمسلم عن أنس رضي الله عنه قال : « كان رسول الله ﷺ أجود الناس ، وكان أشجع الناس . ولقد فزع أهل المدينة ذات ليلة ، فانطلق ناس قِبَل الصوت ، فتلقاهم رسول الله راجعاً وقد سبقهم الى الصوت ، وهو على فرس لأبي طلحة رضي الله عنه عري ، في عنقه السيف ، وهو يقول : لم تراعوا ... لم تراعوا ... » .

لقد كان عليه أفضل الصلاة والسلام ، يقود رجاله من (الأمام) ، يقول لهم : « اتبعوني ... اتبعوني ... » ...

ولم يكن يقودهم من (الخلف) ، يقول لهم : « تقدموا ... تقدموا ... » ، ثم يأوي الى مقر آمن مريح ...

لذلك استحوذ بشجاعته وإقدامه ... بمثاله الشخصي الذي يضربه لرجاله في الشجاعة والإقدام ... ببذله وتضحيته واستئثاره بالأخطار وإيثار أصحابه بالأمن ... استحوذ على (ثقة) رجاله ، فقادهم من نصر الى

---

(١) أنظر التفاصيل في : الرسول القائد ٣٥٧ ـ ٣٦١ ، وخالد بن الوليد المخزومي ٨٠ ـ ٨٢ .
(٢) رواه البخاري .

نصر ، ومن فتح الى فتح ، حتى شمل الإسلام أرجاء شبه الجزيرة العربية ، فوحد العرب تحت لواء الإسلام . . .

ذلك هو الدرس العظيم الذي يعلمه الرسول القائد عليه أفضل الصلاة والسلام لاتباعه المسلمين ولقومه العرب . . . في هذه الأيام بالذات . . .

فما أحوج العرب والمسلمين أن يتلقوا هذا الدرس ، عن سيد القادات وقائد السادات ، رجل الرجال وبطل الأبطال ، أمام المجاهدين وقدوة المؤمنين وخاتم النبيين . . .

درسٌ في بناء الرجال
من الرّسول القائد

١

كفايات النبي ﷺ كثيرة متعددة الجوانب ، وكل صنف من أصناف الناس يستطيع أن يتخذ منه قدوة حسنة تفيده في حاضره ومستقبله ، إذ يمكن أن يجد فيه كفاية خاصة تكون مثالاً رائعاً يحتذى بها ، لاتصالها اتصالاً مباشراً بحياة ذلك الصنف من الناس .

وبالطبع فان النبي ﷺ كان مؤيداً من الله سبحانه وتعالى ، وكان لهذا التأييد الإلهي أثر حاسم في نجاحه بشيراً ونذيراً ، ومشرعاً وقاضياً ، وسياسياً وإدارياً ، وقائداً وجندياً .

وهذا التأييد الإلهي ، لا يمنع مطلقاً من أن يكون لكفاياته الشخصية أثر حاسم أيضاً في نجاحه ، وصدق الله العظيم : ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾[1] .

لقد كان النبي ﷺ الأسوة الحسنة لأصحابه عليهم رضوان الله في حياته المباركة ، وبقي الأسوة الحسنة لأتباعه بعد التحاقه بالرفيق الأعلى ، ولا يزال

---

(١) الآية الكريمة من سورة الانعام ١٢٤ .

الأسوة الحسنة للمسلمين في كل زمان ومكان حتى يرث الله الأرض ومَن عليها ، وصدق الله العظيم : ﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً ﴾[1] .

والأسوة الحسنة تكون اقتداء بأعماله وأقواله عليه أفضل الصلاة والسلام ، وتلك هي كفاياته العالية الفذة انساناً سوياً بعثه الله عزل وجل رحمة للعالمين.

٢

وكما يستطيع كل صنف من أصناف الناس اقتباس ما يفيدهم من كفاياته الانسانية المتميزة في حياتهم العملية ، فان تلك الكفايات يمكن أن تكون نبراساً للناس كافة في ظروف معينة من عمر الزمن تهدي للتي هي أقوم ، وتنير الطريق للسالكين في دروب الحياة تحقيقاً لأهداف باقية ومُثُل عليا .

والحرب اليوم هي حرب مصيرية ضد اسرائيل التي لديها مخططات توسعية استيطانية في البلاد العربية ، فما الذي يفيد العرب في حاضرهم ومستقبلهم في هذه الظروف العصيبة اقتباساً من نور كفايات الرسول القائد عليه أفضل الصلاة والسلام ؟

لقد وجدت بالدراسة المستفيضة لسيرة النبي ﷺ العطرة ، أن من كفايات النبي ﷺ المتميزة ، هي قابليته الفذة على اختيار الرجل المناسب للعمل المناسب .

وأستطيع أن أؤكد بكل وثوق ، بأن قابليته الفذة على اختيار الرجل المناسب للعمل المناسب ، هي من أهم الأسباب الدنيوية لنجاحه في السلم والحرب على حد سواء .

---

(١) الآية الكريمة من سورة الأحزاب ٢١ .

كان عليه أفضل الصلاة والسلام ، يعرف أصحابه معرفة دقيقة مفصلة ، وكان يعرف ما يمتاز به كل صحابي من مزايا تفيد المجتمع الإسلامي الجديد ، وكان يستغل تلك المزايا لخير هذا المجتمع وللمصلحة العامة العليا للمسلمين .

وكان في الوقت نفسه يعرف ما يعاني كل صحابي من مثالب ، وكان يتغاضى عن تلك المثالب ، ويغض الطرف عنها ، ويذكر أصحابه بأحسن ما فيهم ، ويأمر أصحابه أيضاً بالتغاضي عن المثالب ، والإشادة بأحسن ما في اخوانهم تقديراً وإعجاباً .

وكان عليه أفضل الصلاة والسلام بهذا السلوك الرائع الذي التزم به في كل حياته المباركة : يشيد بالمزايا وينتفع بها لخير المسلمين ، ويغض الطرف عن المثالب ويقوّمها بالحسنى ، ثم يداويها بما عرف عنه من حكمة وموعظة حسنة وتربية أبوية .

بهذه الخطة الرائعة والطريقة السليمة والأسلوب الحصيف ، يبني النبي ﷺ الرجال ولا يحطمهم ، ويقوّم المعوج ولا يكسره ، ويشيّد للحاضر والمستقبل لا للحاضر وحده أو للساعة التي هو فيها .

لقد كان يعلم علم اليقين ، أن كل إنسان يتسم بمزايا حميدة معينة ، وفي نفس الوقت يعاني من مثالب خاصة ، لأن الكمال لله وحده سبحانه وتعالى ؛ فكانت إشادته بالمزايا وإشادة أصحابه بها يقوي تلك المزايا ويشد إزرها ، وكان إغضاؤه عليه أفضل الصلاة والسلام وإغضاء أصحابه عن المثالب يقلل من أثرها ، ويستر عليها ، ويجعلها تتضاءل شيئاً فشيئاً حتى تتلاشى نهائياً أو يضعف تأثيرها ـ وقد تنتهي الى الأبد .

وكان عليه الصلاة والسلام يدرك كل الادراك ، أن كل إنسان لا بد من أن يعاني نقصاً في ناحية من نواحيه الخلقية ـ وكفى المرء نبلاً أن تُعَد معايبه ـ فكان يغض الطرف عن ناحية النقص في أصحابه ، ويستفيد لمصلحة المسلمين من ناحية الكمال ، فلا يكون ذلك النقص سبة ومثلبة على

صاحبه ، لأنه كان عليه أفضل الصلاة والسلام يبرز ناحية الكمال ، فينوه بصاحبها ويذكره بها ويثني عليه أعظم الثناء .

٣

كان من بين أصحاب النبي ﷺ من امتاز بالثراء ، فأفاد المسلمون من ماله ، ولم يكلفه عليه أفضل الصلاة والسلام بمصاولة الصناديد والأبطال .

وكان من بين أصحابه من امتاز بناحية القيادة ، فولاه قيادة الرجال في السرايا والغزوات .

وكان من بين أصحابه من امتاز بالشجاعة الفردية ولم تكن لديه قابلية قيادية ، فاستفاد منه في مبارزة الشجعان والأقران والقيام بالأعمال الفدائية جندياً من جنود المسلمين .

وكان من بين أصحابه من امتاز بالرأي الثاقب والتفكير العميق ، فأفاد عليه أفضل الصلاة والسلام من آرائه وحكمته ومشورته .

وكان من بين أصحابه من امتاز بالشعر المتين والبيان البليغ ، فأفاد المسلمون من شعره وبيانه .

وكان . . . وكان . . .

سأل رسول الله ﷺ وهو بمكة المكرمة في عمرة القضاء سنة سبع الهجرية الوليد بن الوليد المخزومي أخا خالد بن الوليد رضي الله عنهما قائلاً : « أين خالد » ! ؟ ثم قال : « ما مثل خالد من جهل الإسلام ، ولو كان جعل نكايته وجده مع المسلمين على المشركين ، لكان خيراً له ، ولقدمناه على غيره » .

وكتب الوليد بن الوليد بذلك الى أخيه خالد ، فكان ذلك سبب هجرته الى المدينة المنورة واعلان إسلامه .

وقدم خالد بن الوليد المدينة مهاجراً الى الله ورسوله في أول يوم من صفر سنة ثمان الهجرية .

قال خالد : «فلما طلعت على رسول الله ﷺ، سلمت عليه بالنبوة، فرد عليه الصلاة والسلام بوجه طلق ، فأسلمت وشهدت شهادة الحق ، فقال النبي ﷺ : قد كنت أرى لك عقلاً رجوت ألا يسلمك إلا الى خير . وبايعت رسول الله ﷺ وقلت : استغفر لي كل ما أوضعت فيه من صد عن سبيل الله ! فقال : إن الاسلام يَجُبُّ[١] ما قبله . قلت : يا رسول الله ! على ذلك . قال : اللهم اغفر لخالد بن الوليد كل ما أوضع فيه من صد عن سبيلك . . . فوالله ، ما كان رسول الله ﷺ يوم أسلمت يعدل بي أحداً من أصحابه فيما يجزئه »[٢] .

وولى النبي ﷺ خالداً قيادة الرجال في الحرب بعد إسلام خالد .

وما يقال عن خالد بن الوليد ، يقال عن عمرو بن العاص أيضاً ، فقد ولاه قيادة الرجال في الحرب بعد إسلامه ، وقال عن خالد وعمرو حين قدما المدينة المنورة مسلمين : « ألقت إليكم مكة أفلاذ كبدها »[٣] . . .

٤

وكان عثمان بن عفان رضي الله عنه غنياً ، فأفاد المسلمون من ثرائه : ابتاع للمسلمين مربداً[٤] بعشرين ألفاً ، وابتاع للمسلمين بئر (رومة)[٥] وجهز جيش العسرة الذي زحف من المدينة المنورة شمالاً بقيادة النبي ﷺ

---

(١) يجب : يقطع ويمحو ما كان قبله من الكفر .

(٢) طبقات ابن سعد ٤ / ٥٢ و ٧ / ٣٩٤ .

(٣) أسد الغابة ٣ / ٣٨٢ ، والاستيعاب ٣ / ١٠٣٤ .

(٤) مربد : موضع يجعل فيه التمر لينشف .

(٥) بئر رومة : بئر في عقيق المدينة المنورة وهي من ضواحي المدينة المنورة ، أنظر التفاصيل في معجم البلدان ٢ / ٤ .

لمواجهة جيش الروم في غزوة (تبوك) حتى ما يفقد هذا الجيش عقالاً ولا خطاماً ؛ ولم نسمع أن الرسول القائد عليه أفضل الصلاة والسلام كلف عثمان بمنازلة الأقران يوم الطعان .[1]

وكان حسان بن ثابت رضي الله عنه شاعراً مجيداً ، فاستفاد المسلمون من قابليته الشعرية ، ولكن النبي ﷺ كان يتركه مع النساء عندما يخرج للقتال .

وكان كثير من صحابة النبي ﷺ يعدون من أشجع الشجعان ، ولكنهم بقوا جنوداً في جيش المسلمين ولم يتولوا مناصب قيادية ، لأنهم كانوا جنوداً متميزين ولم يكونوا قادة متميزين .

وكان من بين أصحابه من يحسن القراءة والكتابة ، فجعلهم كتاباً للوحي ومحررين لرسائله الى الملوك والأمراء .

وكان من بينهم إداريون ودعاة وجباة وقضاة ، فولى كل واحد منهم ما يناسب قابلياته وكفاياته .

وقد سأله قسم من الصحابة أن يوليهم مناصب إدارية ، فرد الذين لا يستطيعون النهوض بهذا الواجب ، ثم ذكر لقسم منهم بصراحة متناهية سبب عزوفه عن توليتهم !

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : « دخلت أنا ورجلان من بني عمي على النبي ﷺ فقال أحد الرجلين : يا رسول الله ! أمّرنا على بعض ما ولاك الله . . . وقال الآخر مثل ذلك ، فقال النبي ﷺ : إنّا لا نولي هذا الأمر أحداً سأله ولا أحداً حرص عليه » .

وقال أبو ذر الغفاري رضي الله عنه : « يا رسول الله ! ألا تستعملني » ؟

فضرب النبي ﷺ بيده على منكبي أبي ذر ثم قال : « يا أبا ذر ! إنك ضعيف ، وإنها أمانة ، وإنها يوم القيامة خزي ندامة ، إلا الذي أخذها بحقها وأدّى الذي عليها » .

٥

وقبل حركة المسلمين لفتح مكة المكرمة حرص الرسول القائد عليه أفضل الصلاة والسلام على كتمان حركته من المدينة المنورة الى مكة المكرمة ، كما حرص على كتمان نياته العسكرية في الفتح ، حتى يباغت قريشاً ويجبرها على الاستسلام دون إراقة الدماء .

ولكن حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه ، كتب رسالة الى قريش وأعطاها امرأة متوجهة الى مكة المكرمة ، يخبر فيها قريشاً بنيات المسلمين في حركتهم لفتح مكة .

وعلم النبي ﷺ بهذه الرسالة ، فبعث علي بن أبي طالب كرم الله وجهه والزبير بن العوام رضي الله عنه ليدركا تلك المرأة التي تحمل تلك الرسالة ـ رسالة حاطب ـ ويأخذاها منها ، فأدركاها وأخذا الرسالة التي كانت معها .

ودعا النبي ﷺ حاطباً يسأله : « ما حمله على ذلك » ! ؟ فقال حاطب : « يا رسول الله ! أما والله إني لمؤمن بالله ورسوله ، ما غيرت ولا بدّلت ، ولكني كنت أمرأ ليس له في القوم من أهل ولا عشيرة ، وكان لي بين أظهرهم ولد وأهل ، فصانعتهم عليه » ، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « يا رسول الله ! دعني فلأضرب عنقه ، فإن الرجل قد نافق » . . . فقال النبي ﷺ : « أما إنه قد صدقكم ، وما يدريك ؟ ! لعل الله قد اطلع على من شهد (بدراً) فقال : اعملوا ما شئتم » . . .

شفع لحاطب ماضيه الحافل بالجهاد ، فعفا عنه النبي ﷺ ، وأمر المسلمين أن يذكروه بأفضل ما فيه .

وعاش حاطب في مجتمع الصحابة ، لا يشنع عليه أحد ، ولا يذكره الناس إلا بالخير ، ولا يسمعونه إلا ما يشتهي ، ولا يرددون عنه إلا أفضل ما فيه من مزايا وخصال .

كانوا يقولون عنه حين يرونه أو حين يذكرونه : انه بدري ، شهد بدراً مع النبي ﷺ وكفى بذلك فخراً .

٦

وبعد فتح مكة المكرمة ، أسلم عكرمة بن أبي جهل وحسن إسلامه ، ثم أصبح من أعاظم المجاهدين بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، ومن أكابر قادة الفتح الاسلامي العظيم .

وكان أبوه من أشد الناس عداوة للنبي ﷺ وللمسلمين كافة وللدين الحنيف ، وقد لاقى مصرعه في غزوة (بدر) الكبرى كما هو معروف ، فمات غير مأسوف عليه ، تخلص المسلمون بموته من خصم لدود .

وكان الصحابة يذكرون أبا جهل بن هشام بما فيه ، فلما أسلم ابنه عكرمة وحسن إسلامه قال النبي ﷺ لأصحابه عليهم رضوان الله : « عكرمة يأتيكم ، فاذا رأيتموه فلا تسبوا أباه ، فإن سب الميت يؤذي الحي »[١] .

هكذا يأمر النبي ﷺ أصحابه الكرام بالكف عن سب أعدى أعداء المسلمين إكراماً لولده المسلم ، حتى لا يتأثر هذا المسلم نفسياً بسبب أبيه ، فتتعقد نفسيته ويضيق ذرعاً بالمجتمع الإسلامي الذي كان يعيش بين أفراده وجماعاته : له ما لهم وعليه ما عليهم .

٧

لقد كان النبي ﷺ يعرف حق المعرفة كل مزايا أصحابه ، فيفيد من تلك المزايا ، ويبرزها للعيان مشجعاً ، ويثني عليها أطيب الثناء مقدراً ،

(١) الاستيعاب ٣ / ١٠٨٣ .

ويغض في الوقت نفسه عن نواقصه ويستر عليها .

وكان ذلك من أهم أسباب انتصار النبي ﷺ عسكرياً وسياسياً وإجتماعياً وإقتصادياً .

فلما التحق عليه أفضل الصلاة والسلام بالرفيق الأعلى ، كان بين المسلمين قادة وأمراء وولاة وقضاة وعلماء وفقهاء ومحدّثون قادوا الأمة الاسلامية سياسياً وإدارياً وفكرياً وإقتصادياً وإجتماعياً الى المجد والسؤدد والخير ، وإلى طريق الحق وسبيل الرشاد .

ذلك هو الدرس الذي يجب أن نتعلمه اليوم من سيد القادات وقائد السادات ، رجل الرجال وبطل الأبطال ، إمام المجاهدين وقدوة العاملين ، النبي العربي الأمي عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام .

هذا الدرس هو : اختيار الرجل المناسب للعمل المناسب ، وبناء الرجال لاعداد خير خلف لخير سلف .

إن العرب بخاصة ، والمسلمين بعامة مطالبون اليوم بأن يستفيدوا من طاقات كل فرد منهم مادياً ومعنوياً ، فكل فرد له طاقة معينة في ناحية من مناحي الحياة ، يمكن أن يفيد بها المجتمع الذي يعيش فيه ، وللمصلحة العامة التي ينبغي أن تكون هدفاً حيوياً للجميع ، يجب أن ننوه بالمزايا ونغض الطرف عن المثالب .

يجب ألا نبرز المثالب ، ونغض الطرف عن المناقب .

يجب ألا نخلق المثالب للناس خلقاً ، ونغمط المناقب غمطاً .

يجب أن نبني الرجال ولا نحطم الرجال .

إن الذين يعملون على تحطيم الرجال يخدمون إسرائيل وأعداء العرب والمسلمين في كل مكان .

إن إختيار الرجل المناسب للعمل المناسب هو من أهم عوامل بناء الرجال وبناء الأمم أيضاً .

وصدق الشاعر :

يبني الرجال وغيره يبني القرى   شتان بين قرى وبين رجال

والسؤال الآن : كيف استطاع النبي ﷺ بناء الرجال ، حتى أصبح قرنه بحق خير القرون ؟

ولماذا كان يحرص أعظم الحرص على اختيار الرجل المناسب للعمل المناسب ، فيعترف الناس من حوله ، ولا يزال الناس يعترفون حتى اليوم ، أن ذلك الرجل لذلك العمل هو من أعلى المستويات بالنسبة للمتيسر في حينه من الرجال ؟

الجواب بسيط ، هو أنه كان مثالاً حياً يمشي على الأرض في تطبيق أقواله على أعماله ، فيضرب بذلك للصحابة بمثاله الشخصي أروع الأمثال .

لقد نسي النبي ﷺ نفسه في سبيل المصلحة العليا للمسلمين ، لذلك استقطب حوله الرجال الأقوياء الأمناء من ذوي الكفايات العالية قوة للمجتمع الإسلامي وأمناً .

وصدق رسول الله عليه أفضل الصلاة والسلام : « من ولى رجلاً وهو يعلم أن هناك من هو أقدر منه ، فقد برئت منه ذمة الله » .

ترى !!

هل نقتبس هذا الدرس من سيرة النبي ﷺ لنستريح ونريح ، أم لا نزال بحاجة الى كثير من النكسات والنكبات حتى نعود الى طريق الحق والصواب ؟!

فوائد الصوم العسكرية

١

حل شهر رمضان المبارك على طلاب الكلية العسكرية سنة (١٣٥٦ هـ - ١٩٣٧ م) وغمرت أنواره قلوب المؤمنين في كل مكان ، فاستقبله قسم من الطلاب العسكريين بما يستحقه من حفاوة بالغة وصمموا على الصيام مهما تكن الصعوبات والمشاكل . . .

لقد تعوّد هؤلاء على صيام هذا الشهر المبارك حين كانوا تلاميذ في المدارس المدنية ، وليس من السهل على من اعتاد الصوم أن يتخلى عنه ، فهم قد تذوقوا فرحة الصائم ، وبركات الصوم ، وحلاوة الإيمان ، وليس من ذاق كمن حرم ، ومتاع الدنيا كله لا يساوي شيئاً بالنسبة الى ما تذوقوه . . .

ومضى اليوم الأول من أيام الصيام ، وإجتمع الطلاب الصائمون على مائدة الافطار والسحور ، تحف بهم الملائكة ، وترتسم على وجوههم سمات العزم والانشراح . وكما عزموا على الصوم ، عزموا على إبراز أثر الصوم في الصائم الحق : معاملة حسنة للناس ، واخلاقاً محببة للنفوس ، ومضاعفة للعمل المثمر البناء ، وامتيازاً في النجاح دون الاكتفاء بالنجاح وحده .

كان الصائمون من طلاب الكلية العسكرية أقلية ، وكانت الأكثرية

تشك في إمكان الصوم وتحمل المشاق العسكرية في آن واحد ، وكان المسئولون في الكلية والطلاب يتوقعون الاخفاق للصائمين في مجالي العلوم العسكرية والتدريب العسكري ، وكانوا ينتظرون أن يتناقص عدد الصائمين بالتدريج حتى يتلاشى ، وكانوا بين مشفق على الصائمين ومستقبلهم وبين مستهجن لاصرارهم على الصوم .

ومضت أيام رمضان يوماً بعد يوم ، وعدد الصائمين يزداد كل يوم ، ومضى الصائمون يثبتون عملياً أن الصوم حافز من أقوى حوافز العمل والانتاج والنجاح . وكان من أشد المقاومين للصائمين ضابط برتبة نقيب ، وكان هذا الضابط قائداً لفصيلة من فصائل الكلية العسكرية ، وكان قادة الفصائل يتنافسون فيما بينهم على التفوق ، وحين تفشى الصوم بين طلابه تنادي بالويل والثبور . وقد كانت فصيلته متميزة قبل رمضان ، فظن بعد حلوله أنها ستصاب بنكسة قاصمة . ولم ينقض الشهر المبارك إلا ولمس تقدماً مذهلاً في فصيلته ، فقد كان طلابه الصائمون يرتفعون كل يوم وينالون قصب السبق في التدريب والالعاب والدروس ، فما حل العيد الصغير إلا وكانت فصيلته قد بلغت درجة من التفوق لا تضاهى ، حتى أصبحت فصيلته بفضل الصائمين ، هي الفصيلة النموذجية بين فصائل الكلية العسكرية قاطبة ، وأصبحت مضرب الأمثال في التدريب والتهذيب والعلوم العسكرية والألعاب الرياضية .

وصادفت هذا الضابط بعد عشر سنوات وقد أصبح برتبة عقيد قائداً لوحدة من وحدات المشاة في فلسطين سنة (١٩٤٨ م) ، وزرت وحدته في شهر رمضان من تلك السنة ، فرأيته صائماً يقاوم الافطار ويأمر بالصوم ، ووجدت وحدته كلها ضباطاً وضباط صف وجنود صائمين ، ووجدته مهتماً إلى أبعد الحدود باحضار الافطار والسحور لرجاله ، فرحاً غاية الفرح بإجماع أتباعه على الصوم وحرصهم الشديد عليه .

وقال معللاً سر تحوله عن مقاومة الصوم والصائمين : « لقد تعلمت من طلاب الكلية العسكرية الصائمين أن الصوم سر من أسرار التفوق

والامتياز ، وكنت قبل ذلك واثقاً من أن الصوم يضعف الهمم ، ويحث على الكسل ، ويقلل من الانتاج وفرص النجاح » . . .

إن كل فرائض الاسلام وكل تعاليمه خير وبركة ، اذا طبقها المسلمون كما ينبغي . ولو طبق المسلمون اليوم تعاليم دينهم تطبيقاً سليماً ، لقادوا العالم ، وسيطروا على مقاليده عسكرياً وسياسياً وحضارياً . . . ولكن أين من يطبق تعاليم الاسلام كما يجب . . . أين ؟

٢

وطالما سمعت غير الصائمين يقولون : كيف تستطيعون الصوم عن الطعام والشراب ساعات وساعات ؟ هؤلاء وأمثالهم لم يؤمروا بالصوم حين كانوا صغاراً ، ولم يشاهدوا آباءهم وأمهاتهم يصومون ، فلما كبروا استقر في أذهانهم أن الصوم صعب لا يحتمل ولا يطاق ! ولو أنهم صاموا وهم صغار وشاهدوا أبويهم يصومون لتغلغل حب الصوم في أفئدتهم ومعه نور الله ، ولأصبحوا يقولون : كيف يستطيع المسلم القادر على الصوم، الافطار في رمضان ؟ كيف يصبح المرء عبداً لبطنه ؟ كيف يعصى المؤمن الحق أوامر الله ؟

قبل بضع عشرة سنة ظهر طبيب ألماني كبير درس آثار العقاقير في الجسم البشري ، فوجد أن قسماً منها يفيد من ناحية ويضر من ناحية أخرى ، فهي تبني وتهدم ، وقد يكون ضررها أكبر من نفعها . كما وجد أن قسماً من هذه العقاقير الطبية تترك آثاراً سيئة في الجسم ، إذا لم تظهر اليوم فإنها تظهر غداً ، لأنها تعتمد على المواد السامة في تركيبها .

وبعد بحوث مستفيضة أجراها ذلك الطبيب ، وجد أن العلاج الطبيعي الذي يعتمد على الحمية والهواء الطلق ، والتعرض لأشعة الشمس ، والإيمان بالقضاء والقدر هو أنجع علاج لأمراض البشر .

وألف هذا الطبيب كتاباً عن العلاج الطبيعي ، أشاد فيه بالصوم الاسلامي ، وبالإيمان بالقضاء والقدر ، وقال : « إن هذين العلاجين أنجع العلاجات على الاطلاق » . . .

فقد ذكر أن المعدة وأجهزة الهضم الأخرى تضرها التخمة ، وأن فضلات الطعام تترك سموماً قاتلة في الجسم وأن الصوم يذيب هذه السموم بالتدريج حتى يتخلص الانسان منها ، فتعود اليه صحته ويتعافى .

كما ذكر أن المكثرين من تناول الأدوية الصناعية ، تكون نسبة السموم في أجسادهم أكثر من المقلين من تناول تلك الأدوية ، وقد أورد قول الكاتب البريطاني برنارد شو عن مضار العقاقير : « لو ألقينا الأدوية في البحر لمات السمك » . . .

وأنشأ هذا الطبيب في ألمانيا مصحاً صغيراً لم يفتأ أن أصبح مستشفى ضخماً يقصده المرضى من جميع أنحاء العالم للتطبب بالعلاج الطبيعي ، ثم انتشرت مستشفيات العلاج الطبيعي في المانيا وفي العالم المتمدن ، وأصبح لهذا العلاج كراسي في كليات الطب ومختصون من الأطباء ، كما تخرج في تلك الكليات أطباء عرب يمارسون مهنتهم في البلاد العربية ويلاقون النجاح ويحظون بثقة المرضى .

وكما علل الطبيب الالماني أهمية الصوم في تخليص الأجسام من السموم ، علل أهمية الإيمان بالقضاء والقدر في العلاج الطبيعي . فقد ذكر أن المريض الذي تنتابه الهواجس يكون قلقاً خائفاً ، والقلق يقوض الجسم والخوف يحطم البدن ، وهما عاملان من عوامل استشراء المرض وتفاقمه . أما الإيمان بالقضاء والقدر ، فيدخل الهدوء الى روع الانسان ويصاول القلق والخوف ، ويشيع الاطمئنان في النفوس ، مما يؤدي الى شفاء المريض .

والإسلام هو الرائد في الصوم والإيمان بالقضاء والقدر خيره وشره من الله سبحانه وتعالى ، ولم يكن الطبيب الالماني هو الرائد على الرغم من ادعاءاته وادعاءات غيره من الأطباء والناس .

ولكن الاسلام ـ مع الأسف الشديد ـ مظلوم حتى بين معتنقيه جغرافياً وبالوراثة ، وما أكثرهم عدداً وأقلهم جدوى ، وصدق الشاعر :

إني لافتح عيني حين أفتحها على كثير ولكن لا أرى أحدا

٣

إن فوائد الصوم العسكرية ظاهرة للعيان ، ولعل إبرازها في مثل هذه الأيام له أهمية خاصة نظراً للظروف العصيبة التي يجتازها العرب والمسلمون وهم في حرب مصيرية على إسرائيل وعلى مَن وراء إسرائيل من دول الاستعمار القديم والجديد .

وإحراز النصر على أعدائنا لا يكون إلا بالإيمان العميق ، وهذا الايمان هو السلاح الذي نتفوق به على الأعداء ، فإذا تخلينا عنه تفوق علينا أعداؤ نا بما يمتلكون من سلاح وعتاد ومكر وخداع .

في العسكرية نوع من التدريب يطلق عليه : (التدريب العنيف) وهو تدريب العسكريين على النهوض بواجباتهم في ظروف صعبة ، كالحرمان من الطعام والماء والترفيه عن النفس ، وتحمل التعب والسهر ، وقطع المسافات الشاسعة ، واجتياز العقبات وعبور الموانع واقتحام العراقيل .

وأهم ما في هذا التدريب العنيف ، هو الحرمان من الطعام والماء ، لأن الجيش يمشي على بطنه كما يقول نابليون ، وهذا الحرمان هو الصوم .

إن الصوم يهيء الأسباب للتدريب على الحرمان عن الطعام والشراب ، أما بقية فروع التدريب العنيف ، فهي ميسورة لكل شاب سليم الصحة ، ومعظم عناصر كل جيش في العالم هم الشباب .

إن ظروف الحرب قد تقتضي انقطاع سابلة الطعام والماء من جراء القصف الجوي أو نسف الجسور ، فإذا لم يكن الجندي قادراً على تحمل الجوع

والعطش يوماً أو أياماً عند الضرورة فإنه بدون شك يستسلم للأعداء ويرضخ لارادتهم .

أما اذا كان الجندي قادراً على تحمل الجوع والعطش حتى تنجلي الغمة ، فإنه يقاوم الأعداء ويصاولهم ويحبط محاولاتهم لإجبارهم على الرضوخ والاستسلام .

والتدريب على الحرمان عن الطعام والشراب ، هو في نفس الوقت تدريب على الصبر الجميل ، ومن المعلوم أن الجندي الصابر يتغلب دوماً على الجندي الذي يعوزه الصبر ، وما أصدق المثل العربي : « الحرب صبر ساعة » . . .

ثم إن أعدى أعداء المرء نفسه ، والرجل إذا استطاع السيطرة على هوى نفسه ، فأدى ما « يجب » أن يؤدي لا ما « يهوى » أن يؤدي ، أصبح جندياً مثالياً في تصرفه ورجولته وإقدامه وتضحيته . وما الصوم إلا سيطرة على النفس الأمارة بالسوء ، يوجهها الى ما « يجب » أن تعمل لا إلى ما « تحب » أن تعمل .

فإذا كان الجندي مسيطراً على نفسه ، فإنه يحول بينها وبين وساوسها في التولي يوم الزحف وغيره ، ويحملها على التمسك بفضائل الجندية الحقة .

وصوم رمضان يحتاج الى عزم صادق ، وهذه المزية من مزايا الجندي المتميز ، إذ لا فائدة من القرار الصائب بدون عزم على تنفيذه ، ولا نصر في الحرب بدون عقد العزم على تحقيقه .

وكيف يمكن أن ينتصر الجندي ، إذا كان متردداً لا يقر له قرار على خطة أو رأي ؟

إن الصوم يربي مزية العزم في النفوس ، ويقضي على رذيلة التردد .

٤

والصوم الاسلامي يطهر النفس وينقيها من الدرن ، ويرتفع بها الى معالي الأمور ، ويقتلع منها الخبث ، وحينذاك تقبل على التضحية بالمال والنفس وتطلب الشهادة أو النصر ، والحرب في الاسلام هي إحدى الحسنيين : الشهادة أو النصر .

فما أحوجنا اليوم الى جنود طاهرة نفوسهم ، يقبلون ولا يدبرون ، ويؤثرون ولا يستأثرون .

والصوم يحثّ على التعاون الوثيق ، لأن الصائم الحق يكون قريباً من الله بعيداً من الشيطان ، فيعاون إخوته في الدين أفراداً ، ويعاونهم جماعات ، والتعاون مبدأ من مبادىء الحرب ؛ فاذا تألف الجيش من أفراد متعاونين على النطاقين الفردي والجماعي ، أصبح قوة لا تقهر ، لأنه سيكون متعاوناً على نطاق الأسلحة المختلفة والقيادات المختلفة ، ويكون هدف رجاله المصلحة العليا للأمة دون المصلحة الشخصية للفرد . . .

والصوم يغرس الخلق الكريم في النفوس ، لأن الصائم الحق متسامح دمث ، يحب لغيره ما يحبه لنفسه ، يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر ، وقد يبدأ الصائم في التمسك بالخلق الرفيع في أول أمره (تطبعاً) ، إذا غاضبه أحد قال : إني صائم . . . ثم يمسي التطبع بالتدريج (طبعاً) فيه .

والدين المعاملة ، والنبي ﷺ بعث ليتمم مكارم الأخلاق ، وقد وصف الله سبحانه وتعالى النبي ﷺ فقال : « وإنك لعلى خلق عظيم » . وقد كان عليه أفضل الصلاة والسلام أعظم القادة ، لأنه كان أعظمهم أخلاقاً ، والقائد المتمسك بالخلق الكريم ، والجندي المتمسك بالخلق الكريم ، عناصر مفيدة ودعائم قوية لكل جيش في العالم .

فما أحوجنا اليوم إلى قادة وجنود متمسكين بخلق القرآن الكريم .

والصائم يطيع الله وينفذ تعاليمه ، فيحرم نفسه من الطعام الشراب ومتاع الدنيا حتى يفطر .

وقد يكون جائعاً فيخلو الى نفسه ويجد الطعام الشهي والشراب الهني ، ولكنه يمتنع عن تناولهما مرضاة لله وتنفيذاً لأوامره .

هذه الطاعة في السر والعلن هي أرقى درجات « الضبط المتين » التي تنص على : إطاعة الأوامر وتنفيذها عن طيبة خاطر في مختلف الظروف والأحوال دون رقيب أو حسيب . . .

ومن المعلوم أن الفرق بين الجندي الجيد والجندي الرديء هو تحلي الأول بالضبط المتين وتحلي الثاني بالتسيب والتمرد والعصيان .

ومن المعلوم أيضاً أن الفرق الأساسي بين الجيش القوي ، والجيش الضعيف ، انّ الأول قوي الضبط والثاني ضعيفه لا يتميز عن العصابات بشيء .

أعرف أشخاصاً يخشون رؤساءهم كخشيتهم لله أو أشد خشية ، ولكنهم يعصون الله خالق الكون وفالق الحب والنوى القوي العزيز .

وطاعة المرءوس للرئيس ما أطاع الرئيس الله واجبة ، ولكن طاعة الله هي من أوجب الواجبات .

فمتى يعرف الانسان قدر نفسه ، فيطيع الذي منحه الصحة والعافية والرزق والحياة ؟

٥

تلك هي مجمل فوائد الصوم العسكرية ، اذا استغلها العرب اليوم واستغلها المسلمون تبدل حالهم الى أحسن حال .

إنها تطبيق لمبادىء التدريب العنيف ، وسيطرة على النفس الأمّارة

بالسوء ، والتحلي بالعزم الصادق ، وتطهير النفس من الخبث والدرن ، والتمسك بمبدأ التعاون الوثيق الذي هو مبدأ من مبادىء الحرب ، والتخلق بالخلق الكريم أفراداً وجماعات ، والالتزام بالضبط المتين الذي هو من أهم مزايا الجندية ، والتشبث بالصبر الجميل الذي هو قوة كل جيش منتصر .

والذي أريده من إخواني قادة العرب والمسلمين أن يأمروا بالصوم ويشجعوا الصائمين ، وأن ينهوا عن الافطار ويؤنبوا المفطرين ، حتى يحققوا لأمتهم وجيوشهم تلك الفوائد الحيوية ، والله مع المتقين ، وما النصر إلا من عند الله .

عامل الوقت مع العرب على إسرائيل

١

قيل لعنترة بن شداد العبسي : ما الذي جعلك أشجع الشجعان ، يخافك الأبطال ويخشاك الرجال ؟ !

قال عنترة : « إنني أخاف الموت كما تخافون ، ولكنني أكثركم صبراً ، وبالصبر الجميل أنتصر على الأقران » !

قيل له : وكيف ذلك ؟ !

قـال عنترة : « ليتقـدم أشجعكم جنانـاً حتى أريكم كيف أنتصر عليـه بالصبر » .

وقدّم المتسائلون أحدهم ، وكان معروفاً بشجاعته ، مشهوراً برجولته ، له مكانة بين الشجعان ، ومكانٌ بين الرجال .

وقال عنترة للرجل الشجاع : « ضع اصبعك في فمي ، وهذا اصبعي في فمك ، وليحاول كل واحد منا أن يعض اصبع صاحبه بشدة وقسوة وإصرار » .

ووقف المشاهدون ينظرون ، وبدأ كل واحد من الرجلين يضغط بعنف على اصبع صاحبه .

واحتقن الدم في وجهيهما ، وتدفق الدم من اصبعيهما ، ومضت لحظات قصار ولكنها بدت طويلة كأنها ساعات ، وكتم المشاهدون أنفاسهم ، وخيم عليهم الصمت الرهيب .

وقال صاحب عنترة : « آه ... آه ... لقد آلمتني أشد الألم يا عنترة » ! !

وضحك عنترة ما وسعه الضحك ، وأرخى أسنانه عن اصبع صاحبه ، وقال له : « والله لو لم تقل آه ... قبلي ، وصبرت لحظة واحدة على ما حاق بك من ألم ، لسبقتك الى قول آه ... ، ولانتصرت عليّ » .

إن مزية الصبر من المزايا التي تقود الى النصر ، وقد انتصر العرب المسلمون في أيام الرسول القائد عليه أفضل الصلاة والسلام وفي أيام الفتح الاسلامي العظيم ، لأنهم صبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله .

ولقد وردت كلمة (صبر) ومشتقاتها في ثلاث ومائة آية من آيات الذكر الحكيم ، والعرب أولى الناس بالتمسك بأهداب الدين الحنيف وتعاليمه ومنها (الصبر) ، لأنهم سادة الإسلام .

والصبر ثبات في الحرب ، وثبات بعد الحرب : ثبات في الحرب مهما طالت ، ومهما كانت التضحيات بالأموال والأنفس . وثبات بعد الحرب في مقاومة الحرب النفسية ، وفي التصميم على إحراز النصر ، وفي إعداد متطلبات النصر المادية والمعنوية .

هذا الصبر في الحرب وبعدها ، هو الذي يطلق عليه العسكريون تعبير : عامل الوقت .

٢

في تقدير الموقف العسكري الذي يعده القائد قبل الحرب بعامة وقبل كل معركة بخاصة ، يدخل فيه : عامل الوقت ، كأحد العوامل المهمة .

كما أن عامل الوقت ، يدخل في تقدير الموقف السياسي قبل الحرب وفي أثنائها وبعد الحرب .

والغرض من اجراء تقدير الموقف العسكري أو تقدير الموقف السياسي ، هو اعداد الخطط التفصيلية لتطبيقها في الحرب وفي المعارك الحربية وبعد الحرب سياسياً وعسكرياً ، لذلك كان تقدير الموقف هو الأساس لبناء الخطط السليمة في المجالين العسكري والسياسي .

تقدير الموقف السياسي يبنى عليه القرار الذي يقرره السياسيون بمعاونة مستشاريهم من عسكريين وغير عسكريين وهو : هل هناك حرب ، ومتى وكيف وأين ؟

فإذا كان قرار السياسيين يعتمد الحرب ، فإن القائد العسكري يبدأ عمله بتقدير الموقف العسكري ، ليبني عليه خطته العسكرية ، وليقود المعارك بموجبها ، حتى تضع الحرب أوزارها .

ولعل أهم عامل من عوامل تقدير الموقف السياسي ، وتقدير الموقف العسكري ، خاصة في تقدير الموقف السوقي (الاستراتيجي) هو عامل الوقت .

وأترك أثر عامل الوقت في تقدير الموقف السياسي الذي يقرر بموجبه السياسيون ، هل يحارب جيشهم وأمتهم أم يستطيعون التغلب على مشاكلهم بالوسائل السياسية . ولكن لا بد لي من التنويه بأن السياسيين يجب ألا يقرروا إعلان الحرب ، ما لم يكونوا متأكدين بأن النصر الى جانبهم . فاذا قرروا إعلان الحرب ، ثم جرت الرياح بما لا تشتهي السفن ، فلا بد لهم - وهذا بالنسبة للعرب في حرب إسرائيل - من الثبات الى النهاية ، لأن العرب متفوقون على إسرائيل بتعداد السكان بنسبة أربعين ضعفاً ، ومتفوقون على اسرائيل بمساحة البلاد العربية بأكثر من ألف ضعف ، واسرائيل لا تستطيع تحمل أعباء الحرب مدة طويلة ، كما أن احتلالها للأرض لا يعني شيئاً مهماً ، وجيشها كلما تقدم في البلاد العربية قل عدده وضعفت قابلياته ، حتى يتلاشى

أو يكاد ، وحينذاك يستطيع العرب القيام بالهجوم المضاد على جيش اسرائيل ، والنتيجة مضمونة في هذه الحالة ، وهي لصالح العرب بدون أدنى شك[١] .

ولدينا شواهد من تاريخ الحرب ، يمكن أن تكون فيها دروس قيمة للعرب ، ولو أردت أن أضرب الامثال لطال المدى وبعد الشوط ولكن لا بأس من ايراد مثالين : الاول من تاريخ العرب ، والثاني من تاريخ الحرب العالمية الثانية .

من التاريخ العربي نذكر الحروب الصليبية التي انتصر فيها الصليبيون بمنطقة الشرق الأوسط في عشرات المعارك على العرب لمدة أكثر من سبعين سنة ، ولكنهم طردوا بعد ذلك من المناطق التي احتلوها بعد انتصار العرب عليهم في معركة (حطين) بقيادة البطل المؤمن صلاح الدين الأيوبي ، فأسدل الستار على الحروب الصليبية بانتصار المسلمين واندحار الصليبيين .

ومن تاريخ الحرب العالمية الثانية ، فقد اكتسح الالمان تشيكوسلوفاكيا في ربيع عام ١٩٣٩ ، واكتسحوا بولندا في خريف ذلك العام .

واكتسح الالمان فرنسا بحرب الصاعقة عام ١٩٤٠ ، كما اكتسحوا هولندا وبلجيكا فأصبحت بريطانيا مهددة بالغزو الالماني .

وفي عام ١٩٤١ اكتسح الالمان الاتحاد السوفياتي حتى هددوا (موسكو) و (ستالين غراد) وانحدروا جنوباً باتجاه (سوباستبول) و (شبه جزيرة القرم) .

وفي شمال افريقية اندفع (رومل) الى حدود مصر ، واستعد (موسوليني) لدخول القاهرة على حصانه الأبيض المطهم عام ١٩٤٢ .

وامتدت انتصارات الالمان شمالاً ، فشملت النرويج .

---

(١) أنظر تفاصيل ذلك في كتابنا : الأيام الحاسمة قبل معركة المصير وبعدها ، بيروت ، ١٩٦٧ ، ص ٨٣ - ٩٢ .

وبدا للعالم كله أن كل شيء يسير في الحرب لصالح الالمان والمحور ، وأن النصر أصبح منهم قاب قوسين أو أدنى ! ! !

ولكن الحرب انتهت في إفريقية باندحار المحور ، فانحازت ايطاليا الى الحلفاء في تشرين الأول (أكتوبر) عام ١٩٤٣ ، وبدأ غزو الحلفاء لنورماندي في فرنسا ليلة ٥ / ٦ حزيران (يونيو) ١٩٤٤ ، واجتاح الروس الجبهة الشرقية الالمانية في أول كانون الثاني (يناير) ١٩٤٥ ، واجتاح الحلفاء نهر الراين في شباط (فبراير) ١٩٤٥ .

وفي ٩ آذار (مارس) ١٩٤٥ استسلمت المانيا للحلفاء ! !

وكانت انتصارات الالمان في الصفحة الأولى من صفحات الحرب العالمية الثانية انتصارات تعبوية ، لها تأثير على الدعاية وعلى السمعة و (الهيبة) ، ولا شيء غير ذلك .

وكانت انتصارات الحلفاء في (العلمين) وفي (نورماندي) وفي الجبهة الشرقية انتصارات سَوْقية (استراتيجية) ، لذلك خسرت المانيا الحرب في النهاية .

واليوم تعاني المانيا المنتصرة في أول الحرب العالمية الثانية ، والمندحرة في نهايتها ، من تقسيمها الى شطرين : شرقي وغربي ، ومن وجود قوات الحلفاء من أمريكيين وفرنسيين وبريطانيين وروس في عقر دارها .

إن الانتصارات المحلية في ابتداء الحرب ، قد لا تؤدي الى الانتصارات في النهاية ، والعبرة في خواتم الأمور لا في مقدماتها .

ولو أن العرب ثبتوا شهراً واحداً لانهارت اسرائيل حتى ولو احتلت أضعاف ما احتلته من الارض العربية بعد حرب حزيران (يونيو) ١٩٦٧ .

على كل ما فات فات ، وما مضى لا يعود ، والمهم هو أن نعتبر بما فات ومضى ، وألا يدب الينا النسيان سريعاً ، فنحتاج الى عبر ودروس جديدة .

٣

والسؤال الآن : لماذا عامل الوقت مع العرب على اسرائيل ؟

إن اسرائيل أول من يعرف أن عامل الوقت مع العرب ، وأن انتصاراتهم عام ١٩٤٨ وعام ١٩٥٦ وعام ١٩٦٧ ، لن تجديهم نفعاً في المدى البعيد ، وهم إذا ربحوا معارك كثيرة في أوقات متفاوتة ، فانهم ينهارون حتماً إذا خسروا معركة واحدة .

وحين تبنت الصهيونية العالمية في المؤتمر الصهيوني الأول الذي عقد عام ١٨٩٧ في مدينة (بال) السويسرية قضية اقامة الدولة الاسرائيلية في أرض فلسطين ، عارض هذا المشروع عقلاء يهود معارضة شديدة ولا يزال عقلاؤهم يعارضونه حتى اليوم ، وقد كتبوا حول ذلك العديد من المؤلفات ونشروا الكثير من البحوث والدراسات ، ذكروا فيها أن مصلحة يهود تناقض على خط مستقيم كل تجمع لهم في الأرض المقدسة لتكوين دولة . وحجتهم الدامغة هي أن بني إسرائيل عاشوا عشرات القرون في دول كثيرة بين أمم شتى ، فاذا اضطهدوا في بقعة من بقاع الارض أو من أمة من الأمم ، فان الأخرين في البقاع والأمم الأخرى يبقون بدون اضطهاد ، وهكذا يستمر العنصر اليهودي في الحياة . وقد مرت على يهود فترات قاسية عانوا خلالها ما عانوه محلياً ، وفي هذا العصر اضطهدهم قيصر روسيا ثم اضطهدهم هتلر ، ولكنهم في الاقطار الأخرى لم يعانوا الاضطهاد . أما اذا تجمعوا في قطر واحد أو في مكان واحد ، فان احتمال القضاء عليهم مرة واحدة متوقع ـ خاصة اذا عاشوا في منطقة يعادونها وتعاديهم ، ويتنكرون لأهلها ويتنكرون لها .

تلك هي آراء عقلاء يهود بإيجاز شديد ، وهي بحق نصيحة ثمينة قدمها أولئك العقلاء لقومهم ، ولكن آراء هيرتزل وأشياعه من الصهاينة المتعصبين تغلبت على صوت العقل والحكمة ، فكانت المنظمة الصهيونية العالمية التي عملت لتشكيل دولة اسرائيل ، فلما أصبحت تلك الدولة حقيقة راهنة عام ١٩٤٨ في جزء من فلسطين بتأييد من الدول الكبرى باسم هيئة

الأمم المتحدة وبمعاونة الأيدي الخفية وعلى رأسها الماسونية ، بدأت سلسلة من الحروب التي يشتد أوارها ويتصاعد لهيبها كلها كلما تقادم مولد اسرائيل ، حتى أصبحت إسرائيل تنفق على جيشها الشطر الأكبر من ميزانيتها ومن دخلها القومي لتستطيع الدفاع عن نفسها ولتحقيق أهدافها التوسعية الاستيطانية ، وحتى أصبحت اسرائيل في وسط خضم من الأعداء : اللاجئون الذين بلغ تعدادهم اليوم أكثر من مليون ونصف إنسان يتطلعون الى أرضهم وأملاكهم ، ومائة مليون عربي يحيطون بإسرائيل من كل جانب ، وستمائة مليون مسلم من المحيط الى المحيط يعادون اسرائيل ويحقدون على تصرفاتهم اللاإنسانية وعلى أعمالها الوحشية البربرية ويتربصون بها الدوائر ، وكل إنسان في العالم يستشعر معاني الانسانية ولا يرضى الظلم والعدوان يرى في إسرائيل دولة معتدية عنصرية تتميز بالظلم والعدوان .

ولعل من الغريب أن إسرائيل يتزايد قلقها ويتناقض أمنها ، كلما ازدادت توسعاً ونفوساً وانتصارات . فقد كانت تظن أن العرب لا يخشون غير القوة ولا ينصاعون إلا للقوة ، وأن بإمكانها فرض الاستسلام باسم السلام على العرب بالقوة ، وهذا ما كان يصرح به قادة اسرائيل وما يسطرونه في مؤلفاتهم ومقالاتهم ولكن اسرائيل خاب ظنها ، لأن العرب لم يستسلموا لها ، ولم يخضعوا لشروطها وبقوا مصممين على استعادة حقوقهم المغتصبة ، متحملين من أجل تحقيق هذا الهدف كثيراً من التضحيات بالأرواح والأملاك والأموال .

بعد حرب عام ١٩٤٨ ، كان تعداد الجيش العامل في اسرائيل عشرة آلاف مقاتل ، وكانت نفوسها أقل من مليون يهودي .

وبعد حرب عام ١٩٥٦ ، كان تعداد جيشها ستة عشر ألف مقاتل ، وكان نفوسها مليوناً ونصف المليون .

وقبل حرب عام ١٩٦٧ ، كان تعداد جيشها النظامي اثنين وعشرين ألف مقاتل وكان تعداد سكانها مليونين ونصف المليون !

وبعد حرب عام ١٩٦٧ ، ظلت اسرائيل في حالة النفير الخاص ، وبقي تحت السلاح ما لا يقل عن ثمانين ألف جندي !

وبقاء حالة النفير الخاص ، وعدم عودة اسرائيل الى حالتها الطبيعية من الناحية العسكرية ، دليل على أن أمنها مهدد بأفدح الاخطار ، وأن جيشها النظامي والإحتياطي هو لحمايتها والدفاع عنها وضمان الأمن لسكانها .

وليس بقاء أكثر من ثمانين ألفاً من جنودها الاحتياط لمدة طويلة بالأمر الهين على دولة قليلة السكان فقيرة الموارد ، تعتمد الاعانات الخارجية لدعم اقتصادها الوطني . إن بقاء هذا العدد الضخم من الجنود الاحتياط يكلف اسرائيل يومياً ما يزيد على خمسة ملايين دولار ، بالاضافة الى ترك هؤلاء الجنود الاحتياط واجباتهم ووظائفهم ومهنهم وأعمالهم المدنية ، مما يؤثر أسوأ الأثر في الاقتصاد القومي الاسرائيلي .

وكانت خسائر اسرائيل بالأرواح بعد حرب عام ١٩٤٨ أقل منها بعد حرب عام ١٩٥٦ ، وكانت هذه الخسائر أقل من خسائرها بعد حرب ١٩٦٧ .

وقد صرح موشي دايان يوم ١٥ نيسان (أبريل) ١٩٧٠ ، بأن المقاومة الفلسطينية تضاعفت منذ حرب عام ١٩٦٧ حتى اليوم ، فأصبحت أربعة أمثال ما كانت عليه بعد ترك الحرب .

وخسائر إسرائيل تزداد كل يوم ، باعتراف قادة إسرائيل العسكريين وإستناداً الى بلاغاتهم الرسمية .

إسرائيل إذن لم تحقق هدفها الذي تحلم به وهو استسلام العرب .

والمقاومة العربية لم تضعف ، بل ازدادت تصاعداً وقوة .

ونتائج توسعها أصبح يكلفها نفقات باهظة لا تستطيع تحملها مدة طويلة ، ولا بد لها من أن تجد حلاً يخرجها من مأزقها .

لذلك يتجول[1] (سيسكو) المستشار الأول للرئيس نيكسون رئيس الولايات المتحدة الأمريكية في قضايا الشرق الأوسط متنقلاً بين عواصم الدول العربية وإسرائيل ليجد لإسرائيل المخرج المناسب من ورطتها .

وتجوله أول الغيث ، ومن المتوقع أن يزداد النشاط الامريكي لإيجاد حل لمشكلة الشرق الأوسط .

ولكل هذا معنى واحد ، هو أن الوقت مع العرب على إسرائيل ثمرة الثبات العربي وعدم استسلام العرب .

٤

كيف نجد الوضع داخل إسرائيل ؟

عندما بدأت الهجرة اليهودية الى فلسطين عام ١٩٠٧ بشكل منظم مدروس قدم فلسطين (الرواد) كما يطلق عليهم الصهاينة في مؤلفاتهم وفيما يكتبون ويذيعون ، وكان هؤلاء المهاجرون الأولون في أوج شعورهم الديني تضحية وبذلاً وتحملاً للأخطار .

واستمرت الهجرة تصاب بالمد تارة وبالجزر أخرى ، حتى عام ١٩٤٨ ، وكان في أذهان يهود حلم يراود مخيلاتهم هو : إنشاء دولة إسرائيل ، والعودة الى أرض الميعاد ، وإعادة بناء هيكل سليمان في القدس .

يهود العراق مثلاً تركوا قصورهم في شارع (أبي نواس) على دجلة في مدينة بغداد ، وتركوا أراضيهم ومزارعهم ، وقصدوا فلسطين ليعيشوا في الصحراء وفي الأراضي الوعرة عيش الكفاف ، وتلك تضحية لا شك فيها .

وما يقال عن يهود العراق ، يقال عن يهود الأقطار الأخرى .

---

(١) كان يتجول خلال شهر نيسان (أبريل) ١٩٧٠ .

وبعد حرب عام ١٩٤٨ حتى حرب ١٩٦٧ ، تضاعف عدد المهاجرين اليهود ، ولكن عدد المهاجرين النسبي كان أقل مما كان يتوقعه زعماء الصهاينة ، مما جعلهم يصابون بخيبة الأمل ، حتى صرح بن غوريون عام ١٩٦٠ : « إن كل يهودي لا يعود الى إسرائيل محروم من رحمة إله إسرائيل » .

وبعد انتصار إسرائيل في حرب عام ١٩٦٧ ، توقع قادة إسرائيل وزعماء الصهيونية العالمية بأن الهجرة اليهودية ستنطلق بغزارة نظراً لتوسع رقعة إسرائيل أولاً ، ولحاجة أرضها الى الدفاع عنها بعد توسعها ثانياً ، حتى قدر أحد زعماء إسرائيل أن سكان إسرائيل سيصبحون أربعة ملايين في عام ١٩٧٠ !!

ولكن توقع قادة اسرائيل وزعماء الصهيونية في تزايد الهجرة اليهودية لم يتحقق ، بل ان قسماً من المهاجرين الذين عاشوا ردحاً طويلاً في اسرائيل هربوا من اسرائيل الى بلادهم ، كما جرى في قسم من يهود الاتحاد السوفياتي والعراق وقد أصدر هؤلاء الهاربون بيانات تفضح ما يلاقيه المهاجرون في اسرائيل من عنت وشقة وإرهاق .

إن بقاء ثمانين ألف مقاتل باستمرار في بلد تعداده مليونان ونصف المليون نسمة ، فيه صعوبة على السكان ، وفيه استنزاف للاقتصاد القومي ، وهذا ما لا تستطيع اسرائيل تحمله طويلاً . ولو أن الهجرة اليهودية تدفقت بعد حرب عام ١٩٦٧ بغزارة كما كان متوقعاً لها ، لكان من السهولة بقاء ثمانين ألف مقاتل باستمرار تحت السلاح .

وليس أمام اسرائيل اليوم بعد اخفاق مخططات الهجرة اليهودية إليها ، إلا أن تجد لها حلاً سريعاً تتنازل بموجبه عن معظم الأرض العربية المحتلة في حرب عام ١٩٦٧ ، وتستبقي تحت سيطرتها ما تعتقد أنه ضروري لها من ناحية أمنها ومن الناحية الدينية أيضاً .

ولكن إسرائيل تفعل ذلك مضطرة بالنسبة لظروفها الراهنة لكي تحظى

بالسلام ، لأنها تعلم بأن المهاجرين اليهود لا يمكن أن يتركوا أوطانهم ويهاجروا الى بلد لا يأمنون فيه على حياتهم وأموالهم والسلام الذي تريده إسرائيل هو سلام مرحلي يهيء لها أسباب الهجرة إليها ويدعم اقتصادها القومي ، مما يؤدي بالتالي الى تزايد قوتها البشرية والمادية ، وحينذاك تسترد ما تنازلت عنه من الأرض العربية أولاً وتتوسع في مناطق جديدة ثانياً تحقيقاً لأحلامها التوسعية : من النيل الى الفرات !!!

لذلك أحذر العرب والمسلمين من أحبولة السلام التي تتظاهر بها اسرائيل بين حين وآخر ، لأن واقع اسرائيل هو أنها دولة معتدية لها أطماع توسعية في البلاد العربية ، وما تظاهرت اسرائيل بالرغبة في السلام الا وأضمرت الحرب ، وما أصدق القائل : « إذا تكلمت اسرائيل عن السلام فإنها تريد الحرب » .

إن الطريق أمام العرب والمسلمين واضح المعالم لا يحتاج الى دليل ، وهو أنه لا سلام في المنطقة ما لم تسترد حقوق العرب كاملة ويعود اللاجئون الى وطنهم ، ثم تنشأ دولة في فلسطين لسكانها كلهم لا لليهود وحدهم ولمصلحة شعب فلسطين كله لا لمصلحة الصهيونية العالمية وحدها .

٥

وكانت اسرائيل تتوقع أن تتدفق إليها رؤوس الأموال الضخمة من الخارج ، والواقع أن الأموال تدفقت إليها بعد مولدها عام ١٩٤٨ ، ولكن هذا التدفق قل بعد حرب ١٩٥٦ وتلاشى تقريباً بعد حرب ١٩٦٧ .

إن المال هو عصب الحرب ، والحرب تلتهم الأموال التهاماً ـ خاصة الحروب الحديثة التي تحتاج الى أسلحة وعتاد بغير حدود والى ابتكار أسلحة جديدة غير تقليدية والى تطوير الاسلحة التقليدية ، فمن أين تأتي اسرائيل بالاموال الجسيمة ؟ أمن المعونات والاعانات وسندات القروض والتبرعات ؟ لكل ذلك حدود قد تؤمن العيش الرغيد لإسرائيل في أيام السلام ، ولكنها لا

تسد حاجة إسرائيل - وهي دولة عسكرية - في أيام الحرب أو في أيام ما يشبه الحرب !

صحيح أن اسرائيل أصبحت لها صناعة كبيرة وتجارة في كثير من الأقطار الافريقية والآسيوية ، وأنها تبذل أقصى جهدها بموجب تخطيط سليم لتوسيع تجارتها وصناعتها ، كما أن تجارتها ازدادت بنسبة ٢٣٪ مع الدول الافريقية والآسيوية بعد حرب ١٩٦٧ لإغلاق قناة السويس الذي حرم تلك الدول من تجارة أوروبا .

ولكن اقتصاد الحرب ونفقات العسكرية الاسرائيلية أضخم بكثير من طاقات اسرائيل الاقتصادية في الوقت الحاضر ، لذلك لجأت اسرائيل الى الولايات المتحدة الأمريكية لسد عجزها المالي ، كما أفادت من التعويضات الالمانية التي قدمتها إليها المانيا الغربية حتى عام ١٩٦٤ لسد هذا العجز ولتغطية نفقاتها العسكرية .

إن إسرائيل لا يمكن أن تعيش الى الأبد على المعونات والاعانات والتبرعات والقروض ، وليس في الدنيا دولة تستطيع أن تبقى الى الأبد وهي لا تعتمد على اقتصادها القومي أولاً وقبل كل شيء .

٦

وكان من جملة خطط اسرائيل الاقتصادية الاعتماد على تزايد السياحة الى بلادها للاستفادة من العملة الصعبة ولنشر الدعاية لمنجزاتها العلمية والاجتماعية والزراعية والصناعية .

وقد بذلت اسرائيل قصارى جهودها لاستقدام السياح بأعداد وفيرة الى بلادها ، فأقامت الفنادق الفخمة وضاعفت النوادي الليلية وغابات العراة وأماكن الميسر وأراقت دماء الفضيلة وأشاعت الجنس .

كانت سفاراتها - خاصة في الدول الافريقية والآسيوية - إذا علمت بأن

موظفاً كبيراً في تلك الدول لديه إجازة سنوية ، تطوعت بتقديم تذاكر السفر بالدرجة الأولى في الطائرات الاسرائيلية اليه وعرضت عليه أن يحل ذلك الموظف ضيفاً على اسرائيل ما أقام فيها . وكان كل موظف أجنبي كبير يجد تذاكر السفر ورسالة الدعوة على مكتبه قبل أن يحل موعد إجازته بأيام ، فإذا تقبل الدعوة حظي في إسرائيل بأيام سعيدة وليال حمراء ، حتى إذا عاد الى بلاده أطلق لسانه بالثناء العاطر على الحفاوة البالغة التي قوبل بها وعلى التطور العلمي والاقتصادي والعسكري والسياسي والاجتماعي في اسرائيل .

وكان في تقدير اسرائيل أن السواح سيزدادون بعد حرب عام ١٩٦٧ ، خاصة بعد احتلال الاماكن المقدسة الاسلامية والمسيحية . ولكن لم يصدق هذا التقدير ، لأن الأمن ليس مستتباً داخل اسرائيل ، مما حرمها من العملة الصعبة ومن الدعاية لها أيضاً .

فإذا قارنا طاقات اسرائيل البشرية والمادية بطاقات العرب ، وجدنا أن الطاقات العربية متفوقة على الطاقات الاسرائيلية تفوقاً ساحقاً .

تعداد العرب مائة مليون أو يزيدون ، وهم يتزايدون بسرعة داخل اسرائيل وخارجها ، وعلى سبيل المثال فإن نفوس الجمهورية العربية المتحدة يتزايد مليون نسمة كل عام . وفي داخل اسرائيل يتزايد العرب بنسبة ثلاثة الى واحد من تزايد يهود ، وسيكون عدد العرب داخل اسرائيل خلال عشرة أعوام مساو لعدد يهود فيها ، وبعد هذا التاريخ تصبح النسبة العددية للعرب أكثر من النسبة العددية ليهود .

ويقطن العرب رقعة واسعة متصلة تجمع بين آسيا وافريقية من المحيط الى الخليج ويتسلطون على أخطر الممرات والمعابر البحرية .

وتضم بلادهم ثلاثة من أعظم أنهار الدنيا البالغ عددها ثلاثين نهراً كبيراً في العالم كله : النيل والفرات ودجلة .

في هذه الأرض العربية ٢٣٪ من بترول العالم ، و٦٠٪ من احتياطي بترول العالم ، ويبلغ مجموع الأراضي الزراعية فيها أكثر من مائة ألف فدان

تحوي على أكثر من مائة مليون رأس من الماشية ، وتنتج ٨٥٪ من محصول التمور في العالم ، و٧٪ من القطن و٨٥٪ من الأقطان الطويلة التيلة و٨٪ من الكروم و٩٪ من الموالح و١٤٪ من الزيتون .

هذه الأرض العربية التي تبلغ مساحتها (٤٥٠٠٠٠٠) ميل مربع أو نحو (١١٠٠٠٠٠٠) كيلو متر مربع ، يمكن أن يتضاعف اقتصادها القومي بإدخال الأساليب الحديثة على الزراعة والصناعة ، وقد كان العراق وحده يضم ثلاثين مليوناً من السكان في أيام العباسيين ، وقد أطلق عليه هيرودوتس أبو التاريخ أسم : « مستودع الحبوب في العالم » .

إن طاقات اسرائيل البشرية والمادية قليلة بالنسبة للطاقات العربية .

ولكن الطاقات الاسرائيلية (منظمة) ، والطاقات العربية غير (منظمة) .

والطاقات القليلة (المنظمة) تتغلب دوماً على الطاقات الكبيرة غير (المنظمة) .

فأين تصبح اسرائيل لو نظم العرب طاقاتهم ؟

وإذا كانت الطاقات العربية مبعثرة وغير منظمة اليوم ، فلن تبقى كذلك غداً وهذا معناه أن الوقت مع العرب على اسرائيل .

٧

إن الاخبار التي تتسرب من إسرائيل تؤكد أن التذمر بين سكانها يتزايد يوماً بعد يوم ، فقد كانت العسكرية الاسرائيلية تمني شعب اسرائيل بأنهم سيعيشون بأمن وسلام واطمئنان بعد كل نصر تحرزه تلك العسكرية على العرب .

وبعد نصر اسرائيل في حرب عام ١٩٦٧ ، بدا قادة اسرائيل واثقين بأنفسهم وباستسلام العرب دون قيد أو شرط .

ولكن لم يتحقق كل ذلك . . . بالعكس تصاعد الرعب في اسرائيل ، وأصبحت كل بقعة فيها غير آمنة ، كما أصبح العرب أشد اصراراً على المطالبة بحقوقهم الكاملة .

هذا التذمر الاسرائيلي ، وهذا الصمود العربي ، جعل ثقة شعب اسرائيل بحكومته وجيشه متزعزعة ، وتعالت صيحات كثيرة تتساءل بحيرة وجزع : الى متى ؟ لقد ضحينا كثيراً من أجل العسكرية الاسرائيلية دون جدوى ، فمتى تتحقق الأحلام ؟؟ متى ؟

وفي إسرائيل تناقضات لا تعد ولا تحصى : أحزاب كثيرة من أقصى اليمين الى أقصى اليسار وفيها تمييز عنصري بين يهود الشرق ويهود الغرب ، بل هناك تمييز عنصري بين كل قسم من هؤلاء اليهود ، فمكانة يهود العراق مثلاً ليست كمكانة يهود اليمن ، وهناك فروق طبقية وفروق اجتماعية وفروق اقتصادية وفروق سياسية بين سكانها .

هذه التناقضات مكبوتة في الوقت الحاضر لخوف الشعب الاسرائيلي من العرب ، ولعل التصريحات غير المسئولة التي صرح بها قسم من زعماء العرب قبيل حرب عام ١٩٦٧ لها نصيب عظيم في هذا الخوف . ان العرب لم يضطهدوا العنصر اليهودي في كل تاريخهم الطويل ، وقد أعطى عمر ابن الخطاب رضي الله عنه مرتباً شهرياً ليهودي من بيت مال المسلمين لأنه كان بغير معيل ، وقد قال النبي ﷺ : « من عادى ذمياً فقد عاداني » . وقد وصل قسم من يهود الى منصب الوزارة في العهد العباسي ، وكان منهم أطباء للخلفاء وقد اضطهدهم الاسبان قبل فتح الاندلس فعاشوا بعد فتح المسلمين للأندلس عيشة رغيدة يذكرونها حتى اليوم . تلك لمحات من معاملة العرب ليهود ، فلمصلحة من يصرح بعض زعماء العرب بأنهم سيفنون الصهاينة ويقضون عليهم قضاءاً مبرماً ، ومتى أفنى العرب أهل الذمة في تاريخهم العريق ؟

وقد قرأت أكثر ما كتبه المؤلفون اليهود بعد حرب عام ١٩٦٧ ، فوجدت أن تصريحات بعض زعماء العرب المتطرفة مسجلة حرفياً في كتبهم

لاستثارة الجماهير الصهيونية بها ولاظهار دولة اسرائيل بمظهر المدافع عن حياة شعبها ومصيره !!

والدرس الذي يجب أن نتعلمه هو أن نفكر قبل أن ننطق ، وألا نذيع التصريحات المرتجلة التي تضر مصالحنا وتفسد قضيتنا دون مسوغ .

والحرب دماء ودموع وموت ودمار ومشاكل ومشاق ، يتحملها الطرفان المتحاربان بكميات وكيفيات متفاوتة .

أما النصر فلا يكون الا للأكثر صبراً من الطرفين ، وعمر الشعوب لا يقاس بالساعات والأيام والأشهر والسنوات . . .

وصدق الله العظيم : ﴿ إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله ، وتلك الأيام نداولها بين الناس ﴾[1] .

وصدق الله العظيم : ﴿ ولا تهنوا في ابتغاء القوم ، أن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون ، وترجون من الله ما لا يرجون ، وكان الله عليماً حكيماً ﴾[2] .

ولكن اذا كان عامل الوقت مع العرب على اسرائيل ، وأن المعركة الأخيرة للعرب على اسرائيل ، فليس معنى ذلك أن ننام أو نستنيم للأماني والاحلام ، ونترك أعداءنا يعدون ويستعدون .

ليس معنى ذلك أن تبقى اسرائيل في أعلى درجات الاستعداد والحذر واليقظة ، ويبقى العرب لا يبدون ولا يعدّون في سبات عميق .

ان العرب يجب أن يعدوا ما استطاعوا من قوة ، وأن يتطوروا علمياً في ميدان العلوم التطبيقية ، وأن يرتفعوا بمستواهم العسكري تدريباً وتسليحاً وتجهيزاً وتنظيماً وقيادة ، وأن يحشدوا كل طاقاتهم المادية والمعنوية للحرب ، وأن يعودوا الى تعاليم دينهم الحنيف وعلى رأسها الجهاد بالأموال والأنفس في

---

(١) الآية الكريمة من سورة آل عمران ٣ : ١٤٠ .
(٢) الآية الكريمة من سورة النساء ٤ : ١٠٤ .

سبيل الله ، وأن يطهروا أنفسهم ويتوبوا توبة نصوحاً .

على العرب أن يستعدوا للحرب وأن يعدوا كل متطلباتها ، ليستفيدوا من عامل الوقت الذي هو في جانبهم ، ولينتصروا حتماً على اسرائيل بأقرب وقت ممكن وبأسرع مدة ممكنة .

أما اذا بقوا يغطون في نومهم : طاقاتهم المادية تذهب بدداً ، وطاقاتهم المعنوية معطلة ، فإنهم لن ينتصروا أبداً حتى ولو أصبح تعدادهم أضعاف تعدادهم اليوم ، وأصبحت مواردهم الاقتصادية أمثال ما هي عليه اليوم . . .

وصدق رسول الله عليه أفضل الصلاة والسلام : « يوشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة الى قصعتها » ، فسأله أحد أصحابه : « أمن قلة نحن يومئذ يا رسول الله » ؟؟ قال : « بل انتم يومئذ كثير ، ولكنكم كغثاء السيل » .

أقولها صريحة حاسمة : ان العرب اذا وجدوا طريقهم السليم اليوم اعداداً واستعداداً وإيماناً بالله والعلم ، فالنصر لهم بإذن الله وهو نصر فاصل قريب .

وإذا بقوا على ما هم عليه متواكلين متفرقين ، اعدادهم للحرب قليل ، واستعدادهم للقتال تافه ، وايمانهم بالله ضعيف ، وايمانهم بالعلم طفيف ، فإن النصر منهم بعيد .

ولكنني أضيف ، أن النصر النهائي مهما طال الوقت مضمون للعرب ، لأن جيل النكبة اذا نام ساعة ، فلن ينام أولادهم وأحفادهم الى قيام الساعة .

في الصحيحين حديث عن مقتلة تقع في المستقبل بين يهود والمسلمين وتكون النصرة فيها للمسلمين على يهود .

جاء في صحيح مسلم عن ابن عمر رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ قال : « لتقاتلن اليهود فلتقتلنهم حتى يقول الحجر : يا مسلم هذا

يهودي . . . تعال فاقتله » . وعن ابن عمر أيضاً أن رسول الله ﷺ قال : « تقاتلكم اليهود فتسلطون عليهم ، حتى يقول الحجر : يا مسلم ! هذا يهودي ورائي فاقتله » . وفي رواية عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ قال : « لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود ، فيقتلهم المسلمون ، حتى يختبىء اليهودي وراء الحجر والشجر ، فيقول الحجر أو الشجر : يا مسلم ! . . يا عبد الله ! . . هذا يهودي خلفي ، فتعال فاقتله » .

وجاء في صحيح البخاري عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، أن النبي ﷺ قال : « تقاتلون اليهود ، حتى يختبىء أحدهم وراء الحجر فيقول : يا عبد الله ! هذا يهودي ورائي فاقتله » . وفي رواية عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا اليهود ، حتى يقول الحجر وراءه يهودي : يا مسلم ! هذا يهودي ورائي فاقتله » .

تلك بشارة من وراء الغيب لا بد وأن تتحقق اليوم أو غداً .

وأن غداً لناظره قريب .

الوحدة العسكرية
في التاريخ العربي الإسلامي

١

القاعدة الثابتة التي لا يمكن أن تتغيّر، ليس بالنسبة الى العرب وحدهم ، بل بالنسبة إلى شعوب العالم كلها ، هي أن الشعب - كل شعب - لا يكون قوياً ما لم يكن موحّد الصفوف والأهداف .

ولم نسمع بأمة من الأمم استطاعت أن تكون قوية ، لها مكانة مرموقة بين الأمم ، وهي متفرقة الصفوف والأهداف .

الوحدة تجعل من الأمة قوة ضاربة لا تغلب من قلة أبداً ، والفرقة تجعل من الأمة غثاء كغثاء السيل لا قيمة لها في حرب ولا في سلام . ولو أردنا أن نضرب الأمثال من الأمم غير العربية ، لضاق بنا المقام ولاحتجنا الى مجلدات ، وحسبنا أن نذكر أن ألمانيا وإيطاليا مثلاً ، كانتا قبل الوحدة مستعمرتين للنمسا تارة ولفرنسا تارة أخرى ، ولكنها أصبحتا بعد الوحدة دولتين من الدول العظمى ، وقد استطاعتا أن تفرضا على الدول احترامها بعد الوحدة وهددتا العالم كله بسيطرتها القاهرة خلال النصف الأول من الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٢) . والولايات المتحدة الاميركية نفسها كانت مستعمرة كبيرة من مستعمرات بريطانيا ، ولكنها بالوحدة

استطاعت أن تنال استقلالها أولاً ، وأن تتضخم قوتها بعد ذلك حتى أصبحت أقوى قوةً وأعظم مكانةً من بريطانيا سيدتها أمس .

٢

وقد كان للعرب دول محلية قبل الإسلام : في اليمن السعيد ، وفي العراق ، وفي سورية ، عاشت فترة من الزمن ولكنها لم تترك لها أثراً ذا قيمة عالمية ، كما فعل العرب بعد الاسلام . وكان الموقف العربي قبل الاسلام يتلخص بما يلي :

اليمن السعيد فيه نفوذ الأحباش والفرس وفيه قبائل مستقلة ـ خاصة في الجبال ـ عن هذين النفوذين .

وفي العراق دولة المناذرة ، خاضعة للفرس ، وفي الشام دولة الغساسنة خاضعة للروم . وفي الجزيرة[١] عرب خاضعون للروم . وفي نجد والحجاز قبائل عربية ، كل قبيلة مستقلة عن الأخرى . كان العرب حينذاك في جاهلية فكرية ، وفي جاهلية استعمارية وفي جاهلية عصبية ، وفي جاهلية دينية ، وفي جاهلية التمزق والتفرق والتناحر والاختلاف

وجاء الاسلام ، فوحّد صفوف العرب وجمع كلمتهم وحدّد أهدافهم ، فأصبحوا في شبه الجزيرة العربية صفاً واحداً يعملون بقيادة واحدة هي قيادة الرسول القائد عليه أفضل الصلاة والسلام ، فلم يلتحق النبي ﷺ بالرفيق الأعلى إلا وكان عرب شبه الجزيرة العربية التي تتصل بتخوم أرض الشام ومشارف العراق من الشمال وبالبحر الأحمر من الغرب وبالمحيط الهندي من الجنوب وبالخليج العربي من الشرق ، وحدة تحت لواء الاسلام . وارتد قسم من العرب بعد وفاة النبي ﷺ فقاتلهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، حتى

(١) انظر التفاصيل في : قادة فتح الشام ومصر ١٨١ ـ ١٨٢ .

استطاع أن يعيد الوحدة الى عرب شبه الجزيرة العربية ، وبذلك أصبحوا قوة هائلة وجدت لها متنفساً في الفتح الاسلامي العظيم . وفي أواخر أيام أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، توجهت طلائع الفتح الاسلامي الى العراق وأرض الشام ، فاستطاع المثنى ابن حارثة الشيباني وخالد بن الوليد رضي الله عنهما أن يربحا معارك كثيرة في العراق ، كما استطاع جيش المسلمين في (اليرموك) أن يربح معركة حاسمة في أرض الشام .

وارتفع مد الفتح الاسلامي ارتفاعاً مذهلاً في أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فاستطاع قادة الفتح الاسلامي في أيامه فتح العراق والجزيرة وأرض الشام ومصر وشطراً من بلاد فارس .

وبقي مد الفتح الاسلامي طاغياً عاتياً في النصف الاول من حكم عثمان بن عفان رضي الله عنه ، فلما نشب الشغب في النصف الثاني من حكمه بين المسلمين ، توقف الفتح ، واستطاع الفرس استعادة قسم من بلادهم في خراسان من المسلمين .

وبقي الفتح الاسلامي مجمداً في أيام الفتنة الكبرى ، بل أصبحت البلاد الاسلامية مهددة بالغزو من الروم ، فزحف قيصر الروم في جموع كثيرة وخلق عظيم على بلاد الشام . وخاف معاوية بن أبي سفيان أن يشغله ذلك عما يحتاج الى تدبيره وإحكامه ، فوجه الى الروم وصالحهم على مائة ألف دينار ، وهكذا أصبح الطالب مطلوباً بفضل التفرق والانقسام . وحين استتب الأمر لمعاوية أغزى أمراء الشام على الصوائف ، فسبوا في بلاد الروم سنة بعد سنة . عند ذاك طلب قيصر الروم الصلح على أن يضعف ما يقدمه للمسلمين من مال ، فلم يجبه معاوية الى طلبه . واستأنف الفتح الاسلامي سيره المتدفق في الشرق والغرب بعد أن وضعت الفتنة الكبرى أوزارها ، فاستعاد العرب المسلمون فتح (سجستان) وفتحوا (كابل) كما اجتازت رايات المسلمين نهر (جيحون) ففتحوا بخارى وسمرقند و (ترمذ)، كما فتح عقبة بن نافع (تونس) واختط القيروان وسكن المسلمون (إفريقية) وأسلم البربر واتصل الاسلام ببلاد السودان وبالمحيط الأطلسي .

وفي الشمال حاصر المسلمون القسطنطينية ، وهناك توفي أبو أيوب الأنصاري صاحب رحل رسول الله ﷺ ، ولا يزال قبره محفوظاً مشهوراً الى اليوم[1] .

وكان هذا الفتح كله بفضل الوحدة أيضاً .

٣

وبعد معاوية بن أبي سفيان بدأت الفتن الداخلية : في استشهاد الحسين بن علي رضي الله عنه ، وحركات المختار بن أبي عبيد الثقفي ، وبعده مصعب بن الزبير ، وثورة الخوارج ، وثورة عبد الله بن الزبير . . . الخ . فاضطربت أمور العرب المسلمين وتفرقت كلمتهم ، فكان من نتيجة ذلك أن الروم استعادوا إفريقية من المسلمين ، كما استطاع قيصر القسطنطينية أن يهدد بلاد الشام ، فاضطر عبد الملك بن مروان الى عقد هدنة مع الروم . وفي المشرق توقف الفتح تماماً واستعاد الفرس من المسلمين خراسان وسجستان .

وبعد حروب دامية استطاع عبد الملك بن مروان أن يعيد الوحدة عام ثلاثة وسبعين الهجرية ، فأرسل حسان بن النعمان الغساني لاستعادة إفريقية ، ففتح (قرطاجنة) وأتم تحرير المغرب العربي من الروم .

وفي سنة ثلاث وسبعين الهجرية وهو عام الوحدة ـ عيّن عبد الملك أخاه محمد بن مروان والياً على الجزيرة وأرمينية ، وقطع النقود التي كان يرسلها للروم لقاء سكوتهم عن حرب المسلمين ، واستطاع المسلمون سنة أربع وسبعين الهجرية الانتصار على الروم وتوغلوا في بلادهم . وفي سنة ثمان وسبعين الهجرية ، استعاد المسلمون خراسان وسجستان وفتحوا مدناً

---

(١) جزيرة ابن عمر .

أخرى[1] ، واستطاع موسى بن نصير فتح المغرب الأقصى وفتح طنجة وغزا صقلية وفتح الأندلس[2] وكان ذلك كله بفضل الوحدة .

٤

وبعد الوليد بن عبد الملك توقف الفتح الاسلامي حتى سنة انهيار الدولة الأموية ، وهي سنة اثنتين وثلاثين ومائة الهجرية حيث بدأت صفحة الدولة العباسية في التاريخ . وبعد سنة من مولد الدولة العباسية أي سنة ثلاثة وثلاثين ومائة الهجرية استطاع الروم الانتصار على المسلمين في (ملطية) واستعادوها منهم فهدموا المدينة والجامع وأجلوا المسلمين الذين بقوا على قيد الحياة من هذه المدينة[3] . وتوالت الفتن والمشاكل منها طائفية ومنها سياسية لعل أعظمها كان انفصال الأندلس سنة تسع وثلاثين ومائة عن الدولة العباسية[4] فأصبحت الدولة الاسلامية الواحدة دولتين : دولة في المشرق ودولة في المغرب . وكانت الدولتان قويتين في ابتداء أمرهما ، ولكن استقلال الأمصار عنها بالتدريج أدى في النهاية الى سقوط الدولة العباسية بيد التتار وخروج العرب من الأندلس واستيلاء الصليبيين على قسم كبير من سورية ولبنان وفلسطين وشمال إفريقية .

ومر على العرب فترة كان لهم في كل بلد دولة ، وهذا التفرق هو الذي أدى بهم الى الضعف والهوان ، فطمع ببلادهم الصليبيون وغير الصليبيين ، ولولا نور الدين الشهيد ومن بعده صلاح الدين اللذان جاهدا من أجل الوحدة ووحدا من أجل الجهاد لما استطاع العرب استعادة القسم الأكبر مما اغتصبه الصليبيون من بلادهم .

---

(١) انظر التفاصيل في : قادة فتح المغرب العربي ٢ / ٩٩ - ١٠١ .

(٢) انظر التفاصيل في : قادة فتح المغرب العربي ١ / ٢٣٢ - ٢٧٣ .

(٣) العبر ١ / ١٧٩ .

(٤) الطبري ٢ /٢ ١٤٤ .

٥

وبقي العرب ضعفاء لتفرقهم مستعبدين لغيرهم من الأمم حتى انتهاء الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٨ ، فاحتل المستعمرون بلادهم وأقاموا الحدود والسدود بين الأقطار العربية ، وشجعوا الروح الاقليمية والطائفية على مبدأ : (فرق تسد) ، وأشاعوا الانحلال الخلقي ، ونشروا المبادىء الوافدة ، وجعلوا العرب يشيحون بوجوههم عن تراثهم العريق ، وعمقوا في عقولهم آثار الاستعمار الفكري البغيض .

ثم خلقوا اسرائيل في بقعة من بقاعنا المقدسة ، لتكون قاعدة ضخمة لهم يعتمدون عليها في أيام السلام والحرب . لقد قدر الاستعمار أن العرب لن يبقوا في سبات عميق الى قيام الساعة ، ولمس بحق عزم العرب على أخذ حقوقهم كاملة من المستعمرين ، فخلقوا اسرائيل لتكون عوناً لهم على إضعاف العرب ، واستنزاف طاقاتهم المادية والمعنوية : كلما أرادوا تطوير بلادهم والتحرر والانطلاق من ربقة الاستعمارين القديم أو الجديد ، كانت اسرائيل قاعدة الاستعمار في الشرق الأوسط في أيام السلام ، لأن العرب مضطرون على تقوية جيوشهم عدداً وسلاحاً ، وهذا يحتاج الى المال الوفير والجهد المضني ما كان أحوج العرب إليهما في تطوير بلادهم لولا وجود إسرائيل .

وإسرائيل قاعدة للاستعمار في الشرق الأوسط في أيام الحرب ، لأن الاستعمار يزودها بالسلاح وبالخبرات الفنية لتكون قوية دائماً قادرة على ضرب الدول العربية التي تخرج على مصالح الاستعمار وتعمل من أجل بلادها ومصالحها العليا . وهي قاعدة للاستعمار أيضاً في حالة نشوب حرب عالمية ثالثة بين الشرق والغرب لذلك فمن مصلحة الاستعمار أن تكون اسرائيل قوية وأن تتوسع على حساب البلاد العربية . إن الاستعمار الذي خرج من باب الدول العربية دخل الى الشرق الأوسط من نافذة اسرائيل ، لهذا دأب المستعمرون على الادعاء بأن اسرائيل خلقت لتبقى ؛ ذلك لأن

بقاءها من مصلحة الاستعمار ؛ والاستعمار كما هو معلوم مسيطر سيطرة كاملة على الهيئات الدولية ، وعلى مجلس الأمن وهيئة الأمم المتحدة بالذات . فلا مجال للعرب أن يأخذوا حقوقهم بالوسائل السياسية في أروقة الأمم المتحدة ومجلس الأمن أو في المجالات السياسية الأخرى . وعلى ذلك لم يبق أمام العرب غير طريق واحد هو أن يأخذوا حقوقهم بالقوة . . . وبالقوة وحدها .

وسبيل القوة هي الوحدة ، والوحدة العسكرية على الأخص بين العرب .

أقولها صريحة واضحة :

إذا لم يضع العرب الوحدة العسكرية العربية في حيز التنفيذ فوراً ، فانهم بعد سنوات سيكونون إما عبيداً في بلادهم أو لاجئين خارج بلادهم .

وقد أعذر من أنذر . . .

التطبيق العملي للجهاد

١

في يوم الخميس الثامن من جمادى الثانية سنة (١٣٨٩) الهجرية الموافق ٢١ آب (أغسطس) سنة (١٩٦٩ م) ، حرقت إسرائيل بالنار المسجد الأقصى المبارك ، وقد دمر الحريق القسم الجنوبي الشرقي من المسجد ، كما أتى على منبره الأثري .

وبهذا الاعتداء الصارخ بلغت إسرائيل أوج استهانتها بمقدسات العرب والمسلمين .

ومن المؤسف حقاً ، أن حرق المسجد الأقصى - أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين - لم يكن مفاجأة لأحد من الناس ، وأن العرب والمسلمين لم يؤخذوا على غرة حين أقدم الصهاينة على تدمير المسجد الأقصى ، لأن نيات الصهيونية العالمية المبيتة للقضاء المبرم على المسجد الأقصى وإزالته من الوجود وإقامة هيكل سليمان على أنقاضه معروفة قبل أن يكون لإسرائيل وجود في الأرض المقدسة وبعد أن أصبح لها كيان في فلسطين .

ولو أردت تعداد ما ورد من وثائق وتصريحات تكشف نيات الصهاينة حول تدمير المسجد الأقصى وبناء هيكل سليمان على أنقاضه ، لطال المدى

وبعد الشوط ، وحسبي أن أذكر لمحات منها هي في الواقع غيض من فيض .

أ ـ قبل مولد إسرائيل عام ١٩٤٨ :

جاء في دائرة المعارف اليهودية[١] : « إن يهود يجمعون أمرهم بغية الزحف على القدس وقهر العرب وإعادة العبادة الى الهيكل واقامة ملكهم هناك » .

وجاء في دائرة المعارف البريطانية[٢] : « إن يهود يتطلعون الى امتداد اسرائيل واستعادة الدولة اليهودية واعادة بناء الهيكل » .

وقد طالب يهود أثناء الانتداب البريطاني على فلسطين الحكومة البريطانية أن تسلمهم الحرم الشريف في القدس بحجة أنه ملك لهم .

وفي سنة (١٩٢٩) ، أعلن الزعيم اليهودي (كلوزتز) : « إن المسجد الأقصى القائم على قدس الأقداس ملك لهم » .

وقال الوزير البريطاني اليهودي اللورد (متشت) : « إن اليوم الذي سيعاد فيه بناء الهيكل أصبح قريباً جداً ، وإنني أكرس ما بقي من حياتي لبناء هيكل سليمان في مكان المسجد الأقصى » .

ب ـ بعد مولد إسرائيل :

أما بعد مولد إسرائيل عام (١٩٤٨) ، فقد كانت نيات الصهاينة مكشوفة الى أبعد الحدود حول هدم المسجد الأقصى واقامة هيكل سليمان في مكانه .

في يوم ٦ حزيران (يونيو) ١٩٦٧ ، احتلت اسرائيل مدينة القدس القديمة ، فبادر رئيس الدولة الاسرائيلية ورئيس وزراء اسرائيل ووزراء اسرائيل يتقدمهم الحاخام الأكبر الاسرائيلي الى الزحف نحو حائط المبكى ،

---

(١) دائرة المعارف اليهودية ، لندن ، ١٩٠٤ .

(٢) Encylopedia Brittanica- London- 1960 .

وهناك قال موشي دايان : « اليوم أصبح الطريق الى المدينة[1] مفتوحاً » .

واستباح يهود حرمة المسجد الأقصى بالسماح للاسرائيليين من المجندين والمجندات والمدنيين بدخوله مرتدين ملابس فاضحة وهم سكارى كأنهم في الحانات أو في أماكن الدعارة .

وانتهك جيش اسرائيل ويهود حرمة المسجد الأقصى ، فكانوا يهزجون في باحاته يوم ٦ حزيران (يونيو) ١٩٦٧ : « مات محمد مات . . . خلّف بنات » !

وبدأت إسرائيل بهدم جميع الأبنية الأثرية الملاصقة للمسجد الأقصى والكائنة حوله ، وباشرت باجراء حفريات في أرجائه ، وذلك من عام (١٩٦٧) بحثاً عن آثار عبرانية يمكن أن تكشف عن بقايا هيكل سليمان .

وقد صرح وزير الأديان الاسرائيلي في مؤتمر ديني عقد في القدس عقب احتلالها قال فيه : « أرض الحرم (المسجد الأقصى) ملك يهودي بحق الاحتلال وبحق شراء أجدادهم لها منذ ألفي سنة » .

وقد أنشأت إسرائيل صندوقاً لجمع التبرعات من أجل اعادة بناء الهيكل ، وهذه التبرعات تجمع من يهود وأشياعهم في جميع أنحاء العالم .

وفي ٣٠ آذار (مارس) سنة (١٩٦٨) كتب أمريكي من الولايات المتحدة الامريكية رسالة الى المجلس الأعلى للشئون الاسلامية في القدس قال فيها : « إن هيكل سليمان كان المحفل الماسوني الأصلي ، وأن سليمان كان رئيس المحفل ، وأن مسجد عمر (يريد : المسجد الأقصى) واقع على الهيكل هو والصخرة التي قدم عليها ابراهيم ولده اسحق قرباناً لله . وإنني كماسوني أرأس جماعة في أمريكا تطمح أن ترى هيكل سليمان وقد أعيد بناؤه ، وأن هذه الجماعة تقوم بجمع مائة مليون دولار لهذا الغرض »[2] .

---

(١) يقصد المدينة المنورة .

(٢) أنظر نص الرسالة في مجلة : الوعي الاسلامي ، الكويت ، العدد ٤٩ الصادرة في غرة المحرم =

وكان بن غوريون يردد ولا يزال : « لا معنى لإسرائيل بدون القدس ، ولا معنى للقدس بدون الهيكل » .

وقد مهدت الصحف الاسرائيلية قبل شهر واحد من حرق المسجد الأقصى بالنار، الجو المناسب لازالة المسجد الأقصى المبارك من الوجود ، فدعت الى اتخاذ اجراءات عاجلة لتحقيق هذا الهدف . وكمثال على ذلك ، فقد نشرت صحيفة (لا مرحاب) الصهيونية مقالاً تحت عنوان : (هيكل سليمان بالقدس) قالت فيه حرفياً : « يجب الاستيلاء بسرعة على المقدسات الاسلامية ووضعها تحت سلطة اسرائيل مهما كان الثمن » .

وبعد حرق المسجد الأقصى بالنار ، استولت اسرائيل يوماً واحداً على الحرم الابراهيمي في مدينة الخليل الذي كان مسجداً إسلامياً منذ الفتح الاسلامي ، واتخذت منه كنيساً لليهود ومنعت المسلمين من الصلاة فيه ذلك اليوم تحدياً للعرب والمسلمين واستهانة بهم وذلك يوم ٦ رجب (١٣٨٩) الهجرية الموافق ١٨ ايلول (سبتمبر) سنة (١٩٦٩) .

ومن المؤكد أن الصهاينة استولوا على الحرم الابراهيمي لمدة محدودة لجس النبض تمهيداً للاستيلاء عليه نهائياً .

وكشف المجلس الاسلامي الأعلى في القدس استمرار المؤامرة الصهيونية على المسجد الأقصى ، فطالب كولدا مائير رئيسة وزراء إسرائيل بأن توقف فوراً أعمال الحفر التي تقوم بها السلطات الاسرائيلية أسفل المسجد الأقصى ، وأنذر بأن هذا الحفر يهدد بتقويض المسجد من أساسه .

وأعرب زعماء المسلمين في القدس عن مخاوفهم من أن تسفر أعمال الحفر هذه التي وصلت الى عمق أربعين قدماً على تعريض المسجد للخطر ، وقد سبق لأعمال الحفر أن أصابت الجانب الجنوبي من المسجد بأضرار

= ١٣٨٩ ه الموافق ١٩ آذار (مارس) ١٩٦٩ م . وقد قدمت لجنة انقاذ القدس الى الجامعة العربية نص هذه الوثيقة ، كما قدم نصها وفد الاردن الى مؤتمر مجمع البحوث الاسلامية الرابع الذي عقد في القاهرة عام ١٣٨٨هـ .

جسيمة قبل جريمة حرق المسجد الأقصى .

وذكر هؤلاء الزعماء المسلمون ، أن التقارير تشير الى اعتزام السلطات الاسرائيلية الدينية بناء معبد ليهـود تحت الأرض أسفل المسجد الأقصى مباشرة[1] ، ليكون الخطوة الأولى لبناء هيكل سليمان .

وقد ذهب احتجاج المجلس الاسلامي الأعلى أدراج الرياح !

٢

لقد عقدت مؤتمرات إسلامية في القاهرة ومكة المكرمة وعمان سنة (١٩٦٨) ، وعقد مؤتمر إسلامي في (كوالا لامبور) بماليزيا سنة (١٩٦٩) ، وقد شهد هذه المؤتمرات قسم من علماء المسلمين وقسم من السياسيين المسلمين .

وعقدت مؤتمرات إسلامية كثيرة بعد ذلك !

وأعلنت المؤتمرات الاسلامية الجهاد بإجماع آراء علماء المسلمين الذين شهدوا هذه المؤتمرات والذين لم يشهدوها : « إن أسباب وجوب الجهاد التي حددها القرآن الكريم قد أصبحت كلها متوافرة في العدوان الاسرائيلي ، بما كان من اعتداء على أرض الوطن العربي الاسلامي ، وانتهاك لحرمات الدين في أقدس شعائرها وأماكنها ، وبما كان من اخراج المسلمين والعرب من ديارهم ، وبما كان من قسوة ووحشية في تقتيل المستضعفين من الشيوخ والأطفال .

« لذلك كله صار الجهاد بالأموال والأنفس فرضاً عينياً[2] في عنق كل

(١) أنظر التفاصيل في صحيفة الاهرام القاهرية وصحيفة الجمهورية القاهرية الصادرتان يوم الاربعاء ١٩ رجب ١٣٨٩ هـ الموافق ١ تشرين الاول (أكتوبر) ١٩٦٩ .

(٢) فرض عين : هو النفير العام (التعبئة العامة) كما يعبر عنه العسكريون المحدثون .

مسلم يقوم به على قدر وسعه وطاقته مهما بعدت الديار»[1] .

ومعنى ذلك أن الجهاد أصبح (أمانة) في عنق كل مسلم ومسلمة ، لا يتخلف عن تحمل أعبائه المادية والمعنويا أحد الا ويرمى بالنفاق ويعاقب بأشد العقاب : ﴿يا أيها الذين آمنوا ، ما لكم اذا قيل لكم : انفروا في سبيل الله اثاقلتم الى الارض ؟ ! أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ؟ ! فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل . إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ، ويستبدل قوماً غيركم ، ولا تضروه شيئاً ، والله على كل شيء قدير﴾[2] .

وقد فرضت الحرب على المسلمين فرضاً ، بعد الغزو الاسرائيلي التوسعي الاستيطاني لبلادهم ، وبعد طرد العرب والمسلمين من فلسطين ، وبعد الظلم والتعذيب الذي لاقاه الفلسطينيون على أيدي الصهاينة ، وبعد حرق المسجد الأقصى بالنار ، وبعد تهديم مساجد المسلمين والاستيلاء عنوة على قسم منها ، وبعد انتهاك حرمات أقدس مقدسات العرب والمسلمين في الأرض المقدسة ؛ لذلك وجب على كل قادر على حمل السلاح أن ينهض بواجبه جهاداً بالروح ، ووجب على كل قادر على بذل الأموال أن ينهض بواجبه جهاداً بالمال ، فليس عربياً ولا مسلماً من يتخلف عن الجهاد في مثل هذه الظروف والأحوال .

إن الطاقات العربية والاسلامية المادية والمعنوية متفوقة على الطاقات الاسرائيلية المادية والمعنوية فواقاً ساحقاً .

ولكن الطاقات الاسرائيلية (منظمة) ، والطاقات العربية والاسلامية غير (منظمة) ، لذلك تغلبت الطاقات القليلة (المنظمة) على الطاقات الكثيرة غير (المنظمة) .

وما يحتاج إليه العرب والمسلمون اليوم ، هو (التنظيم) السليم .

---

(١) قرارات وتوصيات المؤتمر الرابع لمجمع البحوث الاسلامية ، القاهرة ، ١٣٨٨ هـ .
(٢) الآيتان الكريمتان من سورة التوبة ٩ : ٣٨ - ٣٩ .

٣

لقد أظهر العرب والمسلمون شعوراً طيباً منذ مولد إسرائيل حتى اليوم .

وحين أحرق المسجد الأقصى المبارك بالنار ، طغى هذا الشعور العربي والاسلامي الطيب ، فأصبح خطراً داهماً يهدد الحاكمين الذين بقوا متمسكين بالمواقف السلبية تجاه القدس وفلسطين .

إن الطريق لبلورة الشعور العربي والاسلامي الطيب ليكون عملاً إيجابياً طيباً واضح كل الوضوح ، وسلوك هذا الطريق يؤدي الى وضع حد حاسم لمطامع إسرائيل التوسعية في البلاد العربية وإلى استعادة حقوق العرب والمسلمين في الأرض المقدسة .

وما لم يسلك العرب والمسلمون هذا الطريق ، فإن إسرائيل ستمتد من (النيل) الى (الفرات) اليوم أو غداً .

إن الصهيونية العالمية تطبق مخططاً رهيباً مدروساً لتحقيق أهدافها التوسعية ، ومن يمعن النظر في مخططها ويفكر ملياً بإنجازاته ، يجد أن الصهيونية العالمية تسير سيراً حثيثاً نحو تحقيق أهدافها العسكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية .

في سنة (١٨٩٧) عقد المؤتمر الصهيوني الأول في مدينة (بال) السويسرية ، وقد أقر هذا المؤتمر دستور الصهيونية العالمية لتحقيق دولة اسرائيل ، وأنشأ المنظمات السياسية والاقتصادية واللجان لوضع هذا الدستور في حيز التنفيذ .

وفي سنة (١٩٠٧) بدأت هجرة اليهود المنظمة الى فلسطين ، وبدأ إنشاء المستعمرات الصهيونية على أرض فلسطين حسب خطة مرسومة بدعم مادي ومعنوي من الصهيونية العالمية .

وفي سنة (١٩١٧) صدر وعد بلفور ، وهو مكسب سياسي كبير

للصهيونية العالمية ، لأنه يسر لها الدعم السياسي المنشود من أكبر دولة استعمارية في حينه وهي بريطانيا .

وفي سنة (١٩٢٧) زادت كثافة الهجرة اليهودية الى فلسطين وزاد عدد المستعمرات على الأرض الفلسطينية ، وسيطرت الصهيونية العالمية على مساحات كبيرة من الأراضي العربية بالشراء وبالاغتصاب بمعاونة الاستعمار البريطاني .

وفي سنة (١٩٣٧) بدأ إنشاء القوات النظامية لليهود في الأرض المقدسة بشكل واسع وأصبح للصهاينة عصابات إرهابية مسلحة وكميات ضخمة من السلاح والذخيرة .

وفي سنة (١٩٤٧) صدر قرار التقسيم الذي أقرته المنظمة الدولية ، فأصبح للصهاينة حق شرعي معترف به دولياً في إنشاء وطن قومي لليهود في جزء من فلسطين .

وفي سنة (١٩٥٧) انطلقت التجارة الاسرائيلية عبر خليج العقبة الى آسيا وافريقية ، وأصبحت اسرائيل تمتلك حرية الملاحة في هذا الخليج مستندة على ميناء (ايلات) الاسرائيلي .

وفي سنة (١٩٦٧) استولت اسرائيل على الضفة الغربية من الأردن وعلى قطاع غزة وصحراء سيناء حتى قناة السويس من جمهورية مصر العربية وعلى الهضبة السورية المسيطرة سيطرة تامة على شمال اسرائيل ، والتي لها أهمية سَوْقيّة (استراتيجية) خاصة بالنسبة لمصير سورية ولبنان والأردن .

ومن الملاحظ هنا ، أن اسرائيل تحقق كل عشر سنوات هدفاً حيوياً من أهدافها المرسومة .

إن معظم المؤرخين متفقون على أن (بروتو كولات حكماء صهيون) قد وضعت وأقرت في المؤتمر الصهيوني الأول الذي عقد في مدينة (بال) السويسرية سنة (١٨٩٧) ، وقد قدر ذلك المؤتمر لتنفيذ مخطط الصهيونية

العالمية التوسعي الاستيطاني كما جاء في (البروتو كولات) مائة سنة (١٨٩٧ - ١٩٩٧) .

فهل يترك العرب والمسلمون الحرية الكاملة للصهيونية العالمية لتحقيق مخططها ؟

٤

إن الطريق الذي يؤدي الى انتصار العرب والمسلمين على إسرائيل ويضع حداً لما يحيق بهم من أخطار جسام تهدد مصيرهم السياسي والحضاري ، هو في (تنظيم) طاقاتهم المادية والمعنوية ، لتصبح قوة ضاربة تفرض السلام في منطقة الشرق الأوسط وتزيل خرافة إسرائيل وتحطم مخططها التوسعي الاستيطاني على حساب الدول العربية .

والمساعي السياسية والحلول السياسية لن تنجح ما دام العرب والمسلمون ضعفاء ، وستحقق حتماً تلك المساعي والحلول إذا أصبح العرب والمسلمون أقوياء .

ومنذ حرب ١٩٦٧ حتى اليوم صدرت قرارات من مجلس الأمن وهيئة الأمم المتحدة تدين إسرائيل بالعدوان وتقضي بانسحابها من الارض العربية التي احتلتها بعد تلك الحرب ، ولكن إسرائيل ضربت بتلك القرارات عرض الحائط .

وقد بذلت مساع سياسية تحت إشراف الهيئة الدولية وبمحاولات الدول الأربع الكبرى ، ولكنها باءت كلها بالاخفاق الذريع .

لم يبق أمام العرب والمسلمين غير الحل العسكري الذي يعتمد القوة سبيلاً ومنهجاً ، فكيف يتم ذلك ؟

* * *

٥

في سنة ثلاث عشرة الهجرية كان خالد بن الوليد رضي الله عنه على رأس جيش المسلمين لفتح أرض الشام[١] ، فكان عليه أن يقاتل الروم بنفس الأساليب التعبوية التي يقاتلون بها أعداءهم .

وكانت أساليب الروم التعبوية في القتال ، تستند على تقسيم قواتهم الى مقدمة ومؤخرة وميمنة وميسرة وقلب على رأس كل منها قائد مسئول ، وكان كل قسم من هذه الأقسام يضم مجموعات ، كل مجموعة منها مؤلفة من ألف مقاتل تحت قيادة قائد من قادتهم العسكريين وكانوا يطلقون تعبير : (كردوس)[٢] على كل مجموعة من هذه المجموعات .

وبدأ خالد بن الوليد رضي الله عنه يُعِدّ جيشه للقتال ، فخرج في تعبية لم تعبها العرب من قبل[٣] ، إذ نظم جيشه في ستة وثلاثين كردوساً ، وصاول الروم بهذا التنظيم العسكري المشابه لتنظيمهم ، وبذلك استطاع إحراز النصر عليهم في معركة اليرموك الحاسمة .

ولو أن خالداً قاتل الروم بأسلوب (الكر والفر) ، أو بأسلوب (الصف) اللذين كان العرب يقاتلون بهما من قبل ، لما انتصر على الروم في تلك المعركة .

إن إسرائيل تقاتل اعتماداً على : (الحرب الاجماعية) ، وهي الحرب التي ترتكز على حشد كل الطاقات المادية والمعنوية للأمة لتكون في خدمة المجهود الحربي .

---

(١) أرض الشام : سورية ولبنان وفلسطين والأردن .

(٢) كردوس : جمعها كراديس ، وهو كتلة من الجنود يتألف من ألف مقاتل . ويقسم الكردوس الى أجزاء عشرية : العريف يقود عشرة رجال ، والنقيب يقود مائة رجل . وكلمة كردوس معربة عن اللغة الرومانية وأصلها كلمة (كورتيس) . أنظر التفاصيل في : قادة فتح العراق والجزيرة ١٢٧ .

(٣) الطبري ٢ / ٥٩٣ ، وابن الاثير ٢ / ١٥٨ .

فقد استطاعت إسرائيل حشد ١١ ٪ من طاقاتها البشرية في حرب حزيران (يونيو) سنة (١٩٦٧) للحرب ، بينما حشد العرب ثلاثة بالألف من طاقاتهم البشرية للحرب !

واستطاعت اسرائيل حشد كل طاقاتها المادية الأخرى للحرب ، حتى العربة اليدوية التي يستعملها البائع المتجول كان لها مكان معيّن في ميدان القتال ، فكم استطاع العرب أن يحشدوا من طاقاتهم المادية الأخرى للحرب ؟ !

واستطاعت إسرائيل حشد كل طاقاتها المعنوية للحرب ، فكم حشد العرب من طاقاتهم المعنوية ؟ !

إن على العرب والمسلمين أن يطبقوا الحرب (الاجماعية) ، وقد طبقها المسلمون قبل أربعة عشر قرناً ، تنفيذاً لما جاء في القرآن الكريم : ﴿انفروا خفافاً وثقالاً ، وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ﴾[1]، فهل يعجز أحفادهم عن تطبيق الحرب (الاجماعية) في القرن العشرين ؟

إن الجيش النظامي لم يعد وحده مسئولاً عن احراز النصر ، بل المسئول عن احراز النصر هو الشعب كله بما فيه الجيش النظامي ، وهذا الجيش هو رأس الرمح للشعب فقط ، فلا يصح أن يدعي أحد من العرب والمسلمين غير العسكريين بأنه غير مسئول عن احراز النصر فيقف موقف المتفرج .

وبالنسبة للطاقات البشرية للعرب والمسلمين ، فان هذه الطاقات يجب أن تحشد للمجهود الحربي بموجب تنظيم دقيق بحيث يعرف كل قادر على حمل السلاح تفاصيل واجبه في الحرب وكيف يستطيع تنفيذه .

ومعنى هذا أنّ كل قادر على حمل السلاح ، يجب أن يكون مدرباً على

---

(١) الآية الكريمة من سورة التوبة ٩ : ٤١ ، وانظر تفسيرها في تفسير الكشاف للزمخشري لتجد أن المسلمين طبقوا الحرب الاجماعية قبل أربعة عشر قرناً ، وليس كما استقر في الافكار ، وهو أن الألمان أول من طبقها في الحرب العالمية الثانية . وانظر ما جاء عن الحرب الاجماعية في كتاب : الأمة في الحرب للمشير لودندروف .

استعمال سلاحه وعلى التعاون في القتال مع أقرانه وأن يكون مجهزاً بالتجهيزات الضرورية للقتال ، وأن يكون مسلحاً بالسلاح الذي يستعمله في القتال ، وأن يكون (منظماً) ضمن جماعة لها قائد مسئول .

هذه الطاقات البشرية للعرب والمسلمين يمكن تقسيمها الى قسمين :

أ - المجاورة لإسرائيل :

ويكون القادرون على حمل السلاح إما جنوداً في الجيش النظامي أو حراساً للأماكن الحيوية التي يستهدفها العدو أو فدائيين ضمن المنظمات الفدائية أو مجاهدين .

يجب أن يكون لكل فرد واجب في خدمة المجهود الحربي ينهض به ويحرص عليه .

ب - غير المجاورة لاسرائيل :

يجب أن يكون القادرون على حمل السلاح إما في الجيش النظامي أو في المناطق التي يستطيعون منها مباشرة واجباتهم القتالية : في الأردن أو في سورية أو في مصر .

٦

إنّ تدريب الطاقات البشرية القادرة على حمل السلاح من العرب والمسلمين وتسليحها وتجهيزها وتنظيمها تحتاج الى قيادات عسكرية ذات كفايات عالية .

وهذه القيادات ترتكز على دعامتين : الأولى دعامة معنوية ، والثانية دعامة مادية .

إن الدعامة المعنوية[1] لها أثر حاسم في كل ارادة التصميم على القتال

---

(١) انظر التفاصيل في فصل : المعنويات .

حتى إحراز النصر مهما كانت تكاليف القتال على الأرواح والأموال .

والمعنويات هي العقيدة ، ولا نصر للمحاربين ولا لأي شعب لا عقيدة له : يدافع عنها دفاع المؤمن بها ، ويضحي بما يملك من روح ومال .

إن العقيدة هي التي تشيع الانسجام الفكري في العقول والقلوب معاً بين أبناء الشعب الواحد وبين أفراد القوات المسلحة وبين المحاربين ، وهذا يؤدي الى التعاون بين الافراد والجماعات خدمة للمصلحة العليا .

واختلاف العقيدة في الجيش الواحد أو الشعب الواحد ، يحول دون تعاونه ويجعل من الجيش عصابات مسلحة ومن الشعب كتلاً متناقضة .

والعقيدة بالنسبة الى العرب هي الإسلام الذي قادهم الى النصر قروناً طويلة ، فلما ضعفوا صانهم من الانهيار .

لقد غرس الاسلام في نفوس العرب حب الضبط والنظام ، وحبب اليهم الاستشهاد في سبيل الحق ، وجعلهم يرون هذا الاستشهاد نصراً دونه كل نصر ، كما بعث فيهم الاعتزاز بالنفس والشعور بأن عليهم رسالة واجبة الأداء للعالم .

وقد انتبه ابن خلدون الى أهمية العقيدة للعرب ، فقال في مقدمته : « ان العرب لا يحصل لهم الملك إلا بصبغة دينية من نبوة أو ولاية أو أثر عظيم »[١] .

ان العرب بالاسلام كل شيء ، والعرب بدون اسلام لا شيء[٢] ، وما يقال عن العرب يقال عن المسلمين في كل مكان .

ثم إن العرب والمسلمين يقاتلون الصهاينة ، وهؤلاء متمسكون بعقيدتهم الصهيونية التي ترتكز على الدين اليهودي أولاً وآخراً وقبل كل شيء .

---

(١) انظر التفاصيل في مقدمة ابن خلدون ، بيروت ، ١٩٦٧ (١ / ٢٦٦) .
(٢) أنظر التفاصيل في : الوحدة العسكرية العربية ١٣٤ - ١٣٥ .

في الجيش الإسرائيلي حاخامات على رأسهم حاخام الجيش الأكبر وهم يتمتعون بسلطة لا مثيل لها ولا نظير في الجيوش الاخرى .

وفي جيش إسرائيل تجرى مسابقات سنوية في التوراة ، يكرم المتفوقون فيها أعظم التكريم وينالون أكبر الجوائز .

كما أن الجيش ضباطاً وضباط صف ومراتب أخرى ، يقيمون الشعائر الدينية عند حائط المبكى ، وأفراد قوات المظلات الاسرائيلية تؤدي يمين الولاء أمام هذا الحائط : يحملون البندقية بيدٍ والتوراة في اليد الأخرى[1] .

وحين هرّب الصهاينة ستة زوارق حربية من ميناء (شربورغ) يوم ٢٦ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٧٠ ووصلت سالمة الى ميناء (حيفا) ، قال دايان : « ان الزوارق الستة أبحرت دون أسلحة ودون حراسة ، واستطاعت التزود بالوقود في البحر . . . ذلك لأنها لم تكن مزودة بأربعة محركات فحسب ، بل وأيضاً بنغمة إلهية وبروح علوية ! . . . وهو ما أشار اليه الكتاب المقدس : كانت الفوضى تعم الأرض ، وروح الله تشمل الماء »[2] .

والعقيدة ـ كما هو معروف ـ لا تحارب إلا بعقيدة ، والفكرة لا تقاوم إلا بفكرة .

من هنا تبرز أهمية القيادة الدينية للمحاربين من العرب والمسلمين .

٧

أما الدعامة الثانية التي ترتكز عليها القيادة العسكرية للمجاهدين العرب والمسلمين ، فهي المال .

(١) جريدة الكارديان البريطانية ، نقلاً عن جريدة الجمهورية القاهرية الصادرة في ٣١ / ٨ / ١٩٦٩ .

(٢) نقلاً عن جريدة الجمهورية القاهرية الصادرة يوم ١٦ / ١ / ١٩٧٠ .

والمال هو عصب الحرب ، وبدونه يصاب المجهود الحربي بالشلل التام .

إن المجاهدين بحاجة الى التدريب والتسليح والتجهيز والقضايا الادارية (إعاشة ، طبابة ، تنقل . . . الخ) والقيادة .

فإذا تيسر المال بشكل مستدام منظم ، أمكن إنجاز التدريب والتسليح والتجهيز والقضايا الإدارية . وإذا لم يتيسر المال فلا يمكن انجاز ذلك بأي شكل وبأية صورة : بالشكل الذي يدوم فيه الجهاد ، وبالصورة التي يستطيع فيها المجاهدون أن ينهضوا بواجباتهم كما يرام .

وما يقال عن المجاهدين يقال عن الجيوش النظامية وعن الفدائيين .

إن المعنويات العالية للمجاهدين ضرورية لإحراز النصر ، فإذا لم يطمئنوا الى مصير أسرهم المعاشي ، فلن تكون معنوياتهم عالية على أي حال .

وعوائل الشهداء التي تعيش بكرامة ، سبب من أسباب رفع معنويات المجاهدين وأسرهم على حد سواء ، والعكس صحيح .

والجهاد يحتاج الى التفرغ ليؤتي ثمراته مرتين ، فلا بد من دفع مرتبات مناسبة للمجاهدين المحتاجين الى العون المادي تكفي لمعيشة أسرهم ومعيشتهم ، فليس من المعقول أن يقاتل المجاهد كما يقاتل الرجال في ظروف يكون فيها فكره موزعاً بعيداً عن ساحة القتال ، خاصة إذا كان هذا المجاهد هو المسئول الوحيد عن إعالة أسرته وبدونه تتضور جوعاً .

لذلك لا بد من أن تكون للمجاهدين موارد مالية ثابتة ، والاعتماد على التبرعات التي قد تكون كبيرة في مدة معينة من الزمن وقليلة في مدة أخرى ، لا يكفي لتصعيد الجهاد وقد يقضي عليه .

في المؤتمر الصهيوني الاول الذي عقد سنة (١٨٩٧) في مدينة (بال) السويسرية تقرر جمع الاموال لاستعمار فلسطين .

ولم تمض فترة وجيزة على عقد هذا المؤتمر ، إلا وظهرت التنظيمات المالية لجمع تلك الاموال : تأسس المصرف اليهودي للمستعمرات سنة (١٨٩٨) ، وظهر الصندوق القومي اليهودي سنة (١٩٠١) .

وانتشرت لجان جمع التبرعات الصهيونية في جميع أرجاء العالم لجمع التبرعات من الصهاينة ومن غيرهم بشتى الطرق والأساليب .

كل يهودي في العالم ، عليه أن يدفع مقداراً معلوماً من المال شهرياً ، لا يستطيع أن يتخلف عن دفعه لحظة واحدة ولا يستطيع أن يستقطع منه قرشاً واحداً : بإمكانه فقط أن يضاعف المبلغ المفروض عليه تبرعاً وتطوعاً ، وليس بامكانه التخلف عن أداء المبلغ الواجب عليه دفعه شهرياً .

هذه النسبة التي يدفعها كل يهودي في العالم ، تتناسب مع دخله الشهري ، بحيث لا يرهقه الدفع ولا يحمله من أمره ما لا يطيق .

وهذا التنظيم الدقيق لجباية الأموال بهذا الأسلوب وبكميات معلومة ، جعل للصهاينة ميزانية ثابتة ، لا يمكن أن تؤثر الازمات والاحداث فيها .

إن تعاون الحكومات العربية والشعوب العربية مع الحكومات الاسلامية والشعوب الاسلامية ضروري للنهوض بمهمة جمع المال للمجاهدين .

يجب إنشاء (صندوق فلسطين) لتمويل المجاهدين ورعاية أسرهم وأسر الشهداء منهم ، والعمل على أن تكون للصندوق فروع في كل بلد عربي وكل بلد إسلامي ، وتخصيص قدر من الزكوات لتمويله ، فإن الانفاق في سبيل الله من البر الذي أمر الله به ومصرف من مصارف الزكاة الشرعية التي نص القرآن الكريم عليها .

ولست أذهب بعيداً في طريق التفاؤل ، ولكنني واثق بأن في العرب والمسلمين خيراً كثيراً ، وهم مستعدون للجهاد بأموالهم في سبيل الله ، ولكن الذي يحول دون جباية مبالغ خيالية في ضخامتها من المال أن قسماً منهم لا

يعرف لمن يسلم ما تجود به نفسه من مال ـ خاصة بعد تكاثر لجان جمع التبرعات .

إن انبثاق لجان جمع المال لصندوق فلسطين في كل قرية وكل قصبة وكل مدينة ، على أن تكون مؤلفة من أشخاص معروفين يتميزون بالنزاهة المطلقة والاخلاص العميق ، ثم جمع التبرعات بموجب مستندات رسمية معتمدة ، سيؤدي الى انهمار المال للفدائيين الفلسطينيين والمجاهدين انهماراً .

وسيزداد المال انهماراً بعد أن تظهر آثار الفدائيين والمجاهدين في إسرائيل .

إن رجال الدين يستطيعون أن يخدموا الجهاد والمجاهدين وقضية فلسطين بصورة عامة في هذا المجال أعظم الخدمة ، وبذلك يثبتون وجودهم ايجابياً ولا يبقى كلامهم أقوالاً تذروها الرياح .

٨

إن القيادة العسكرية للمجاهدين هي التي تخرج الجهاد من نطاق الفتاوى إلى نطاق العمل الايجابي البناء .

ونبدأ بتفصيل تنظيم القيادة العسكرية للمجاهدين من القاعدة حتى القمة (أنظر تفاصيل منظومة قيادة المجاهدين في الملحق (أ) المرفق) .

أ ـ يجب أن يكون في كل مدينة عربية أو إسلامية قيادة عسكرية للمجاهدين ، وهذه القيادة تتألف من ضباط وضباط صف من الجيوش النظامية أو من المتقاعدين المعروفين بالكافية العالية والاخلاص العظيم .

واجب هذه القيادة هو جمع المجاهدين وتجهيزهم وتسليحهم وتدريبهم وتنظيمهم في فصائل وسرايا وكتائب ، وبعد انجاز كل ذلك تنقل المجاهدين من مركز (التجمع) للحركة إلى ميدان القتال .

وتعاون هذه القيادة في أداء واجباتها : القيادة الدينية المؤلفة من رجال الدين المشهورين بالتدين والورع والاستقامة والعلم ، ويكون واجب هذه القيادة شحن نفوس المجاهدين بطاقات روحية ، تدفعهم الى الاستقتال في الحرب وحث الناس على الجهاد بالأموال والأنفس .

ولكي يكون أثر القيادة الدينية ايجابياً ، فلا بد من أن يتطوع قسم من رجال الدين للجهاد .

وتعاون القيادة العسكرية في واجباتها أيضاً ، القيادة المالية المؤلفة من أنزه رجال المدينة وأكثرهم أمانة ، ويكون واجب هذه القيادة جمع الأموال وشراء التجهيزات العسكرية والذخيرة والسلاح ، وضبط الموارد المالية وتوزيع المرتبات على المجاهدين ورعاية أسرهم بعد حركتهم للجهاد والعناية بأسر الشهداء .

ب - ويجب أن يكون في كل دولة عربية أو إسلامية قيادة قطرية للمجاهدين تتألف من ضباط ذوي رتب عالية وضباط صف متطوعين .

واجب هذه القيادة هو حشد مجاهدي المدن والقرى القادمين من قيادات المدن والتأكد من اكمال تسليحهم وتدريبهم وتنظيمهم ، ومن ثم نقلهم إلى ساحة القتال .

وتعاون هذه القيادة ، القيادة الدينية والقيادة المالية أيضاً ، وتكون واجبات هاتين القيادتين مشابهة لواجبات القيادتين الدينية والمالية في القيادات العسكرية للمدن ولكن على نطاق أوسع .

ج - القيادة العامة للمجاهدين ، وتكون في ميدان القتال ، واجبها الأول هو قيادة المجاهدين القادمين من الدول العربية والإسلامية .

تتألف من ضباط ذوي رتب عالية معروفين بتدينهم وتجربتهم العملية وعلومهم العسكرية وشجاعتهم وإقدامهم .

إن صفات القائد المتميز معروفة ، ولكن يجب أن أركز هنا على صفة

التدين التي يجب أن تتوفر في القائد .

وما يقال عن القادة يقال عن الجنود أيضاً .

٩

لقد حاولت التركيز على التنظيم العسكري للمجاهدين ، لكي أدل على الطريق لإخراج ركن الجهاد الإسلامي من حيز الفتاوى الى حيز التطبيق العملي في حرب حديثة في عصر حديث لمجابهة جيش حديث هو جيش اسرائيل .

ولم أتطرق للتنظيم العسكري للفدائيين والجيوش النظامية ، لأنهما موجودان في الوقت الحاضر .

وبالامكان الافادة من قيادة الفدائيين لتكون النواة الصالحة لقيادة المجاهدين ، لأن تلك القيادة لديها تجربة عملية في القتال .

لقد كان للعمل الفدائي آثار واضحة في الأرض المحتلة وفي النطاق العربي وفي البلاد الأجنبية .

في النطاق العربي ، رفع الفدائيون الروح المعنوية ، ونظموا صفوف الفلسطينيين ، وجعلوا منهم قوة ضاربة ذات شأن ، كما برزت من صفوف الفلسطينيين قيادة فلسطينية أثبتت عملياً بأنها قادرة على تنغيص حياة الصهاينة المحتلين .

وفي البلاد الأجنبية ، استطاع الفدائيون الاستحواذ على أجهزة الاعلام العالمية ، وبرهنوا بالدم أنّ حقهم في فلسطين وراءه مطالب ، وأن شعب فلسطين لا يمكن أن يتخلى عن حقوقه ، مهما طال الزمن وتضاعفت الخسائر .

واستطاع الفدائيون في نطاق الهيئات الدولية أن يبرزوا قضية فلسطين ، فأصبحت تلك الهيئات تهتم بها وتخشى عواقبها . بينما كانت قضية

فلسطين قبل أن يتكلم الفدائيون بالدم مجرد فقرة في جدول أعمال الأمم المتحدة ومجلس الأمن يتكرر ذكرها بدون نتيجة ملموسة .

وفي نطاق الأرض المحتلة ، استطاع الفدائيون أن يجعلوا من اسرائيل منطقة غير آمنة على الحياة والمال والممتلكات ، مما أشاع الرعب بين سكانها وحرصها من تدفق المهاجرين الجدد والأموال الاجنبية والسياح اليها ، وضاعف من نفقات اسرائيل على قواتها المسلحة .

تلك هي لمحات مختصرة جداً من انجازات الفدائيين ، وهي تستحق أعمق التقدير وأعظم الاعجاب .

والفدائيون مجاهدون ، وتجربتهم الرائدة أثبت وجودها عملياً في الميدان ، ولكن تعداد الفدائيين قليل بالنسبة لتعداد العرب والمسلمين .

فماذا سيحدث لو تضاعف عددهم بالمجاهدين المؤمنين الصادقين ؟

إن الصهاينة ستميد بهم الأرض في إسرائيل ، وسيقولون كما قال أسلافهم من قبل : (ان فيها قوماً جبارين) .

ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله .

وصدق الله العظيم : ﴿ يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ؟ تؤمنون بالله ورسوله ، وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ، ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون . يغفر لكم ذنوبكم ، ويدخلكم جنات تجري من تحتها الانهار ومساكن طيبة في جنات عدن ، ذلك الفوز العظيم . وأخرى تحبونها : نصر من الله وفتح قريب ، وبشر المؤمنين ﴾[1] .

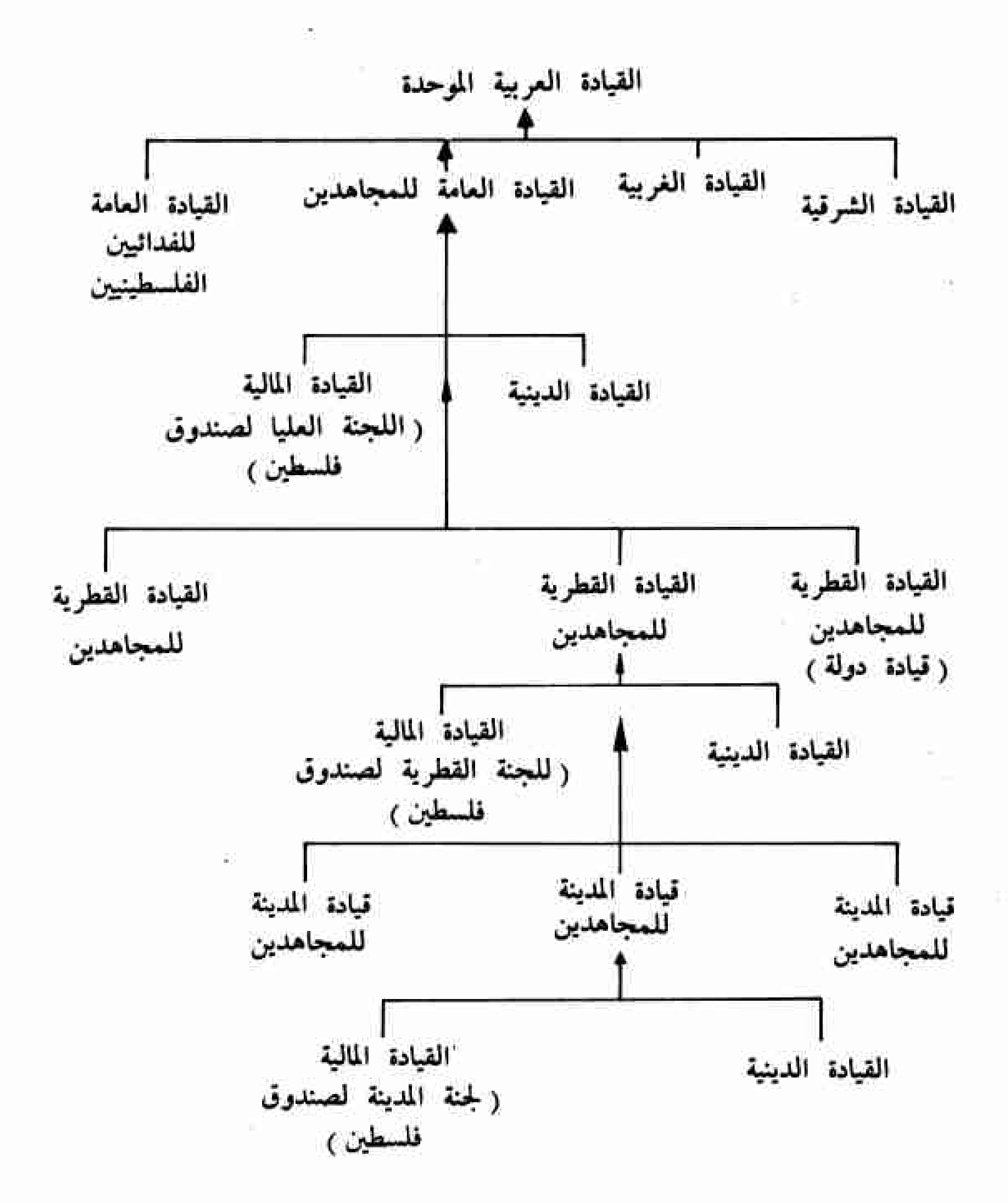
ذلك هو طريق النصر : إيمان عميق بالله ورسوله ، وجهاد في سبيل الله بالأموال والأنفس .

---

(١) الآيات الكريمات من سورة الصف ٦١ : ١٠ - ١٢ .

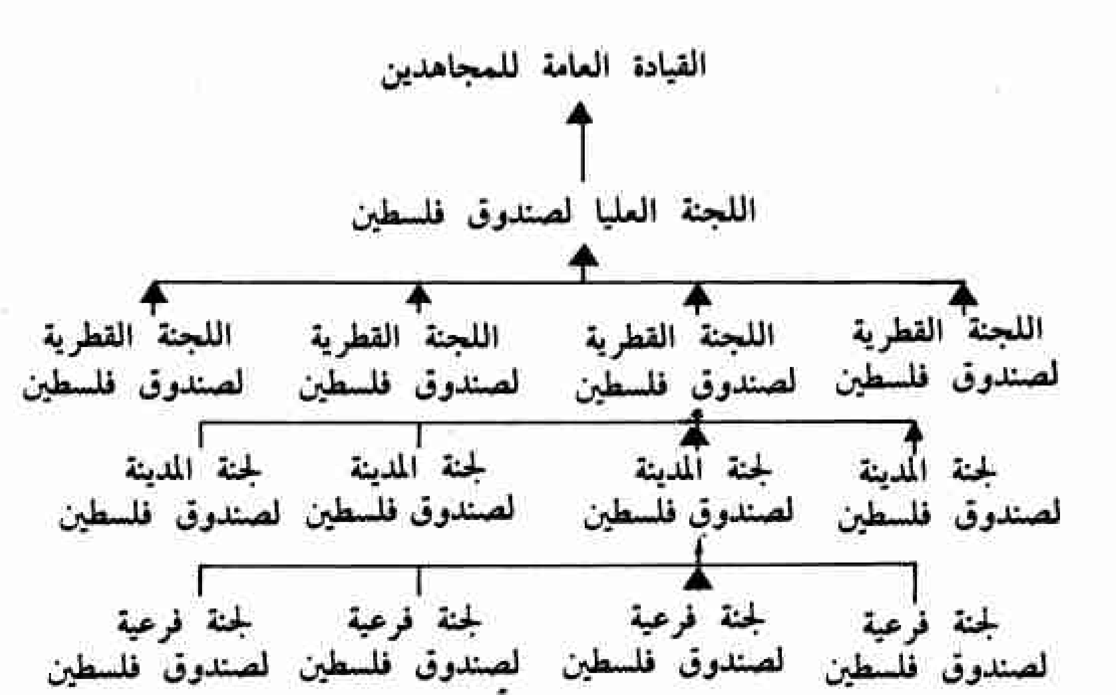
الملحق (أ) :

تنظيم قيادة المجاهدين



الملحق (ب) :

تنظيم القيادة المالية لصندوق فلسطين



ملحوظات :

١ - تصدر اللجنة العليا لصندوق فلسطين مستندات رسمية معتمدة توزعها على اللجان القطرية .

٢ - تودع الأموال المجباة في المصارف : كل لجنة يكون لها اعتماد في مصرف معين باسم : صندوق فلسطين .

٣ - كل لجنة من اللجان تخول بجمع الأموال من اللجنة التي هي أعلى منها ، وذلك منعاً لتعدد اللجان دون مسوغ .

٤ - لكي يكون لصندوق فلسطين مورد ثابت ، اقترح أن يقدم كل عربي وكل مسلم ما لا يقل عن واحد بالمائة من دخله الشهري الى صندوق فلسطين شهرياً .

أما الزكاة فيكون تقديمها للصندوق بخيار صاحب الشأن .

٥ ـ أماكن اللجان :

أ) اللجنة العليا بالقرب من جبهة القتال بتماس شديد مع القيادة العامة للمجاهدين .

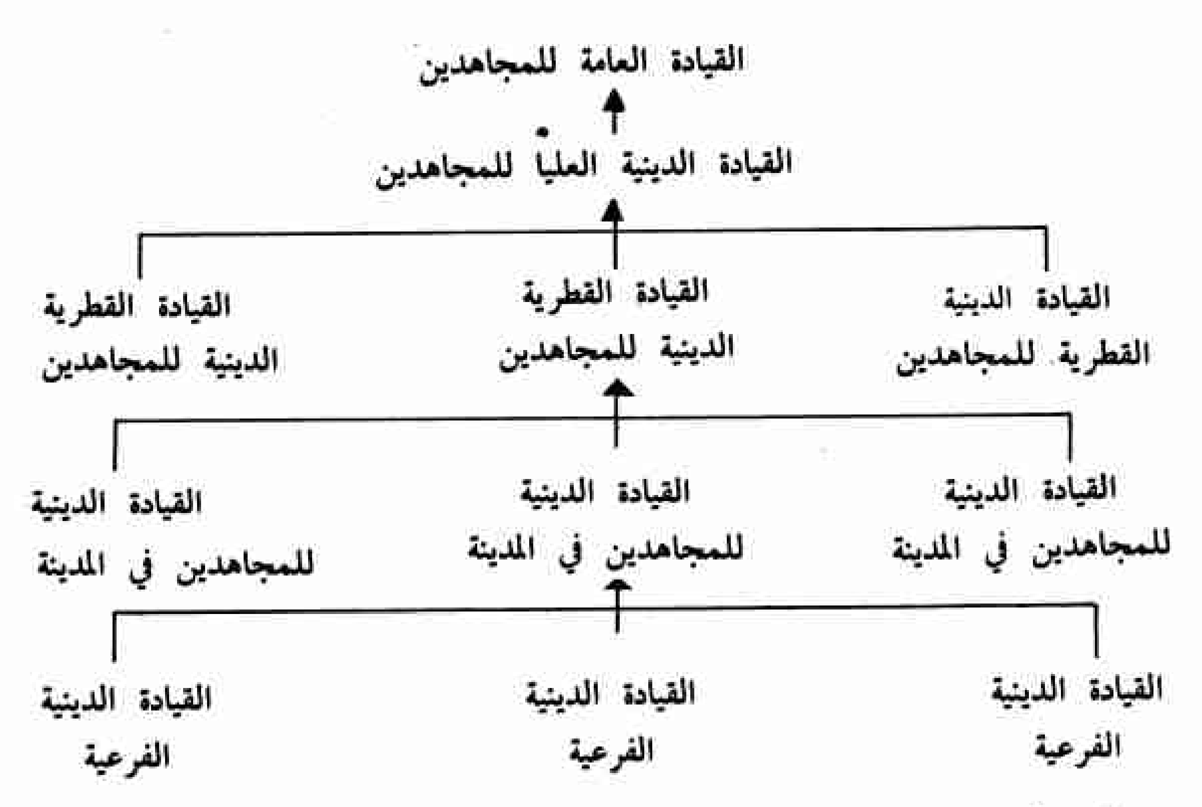
ب) اللجنة القطرية في عاصمة الدولة أو المملكة العربية أو الاسلامية قريباً من القيادة القطرية للمجاهدين .

جـ) لجنة المدينة : في المدينة العربية أو الاسلامية بجوار قيادة المدينة للمجاهدين .

د) تكون اللجان الفرعية في الأماكن التي تنسبها لها لجنة المدينة .

الملحق (جـ) :

تنظيم القيادة الدينية للمجاهدين



ملحوظات :

١ - القيادة الدينية العليا للمجاهدين تكون برئاسة شيخ الأزهر الشريف وعضوية عالم عامل من كل قطر عربي وإسلامي .

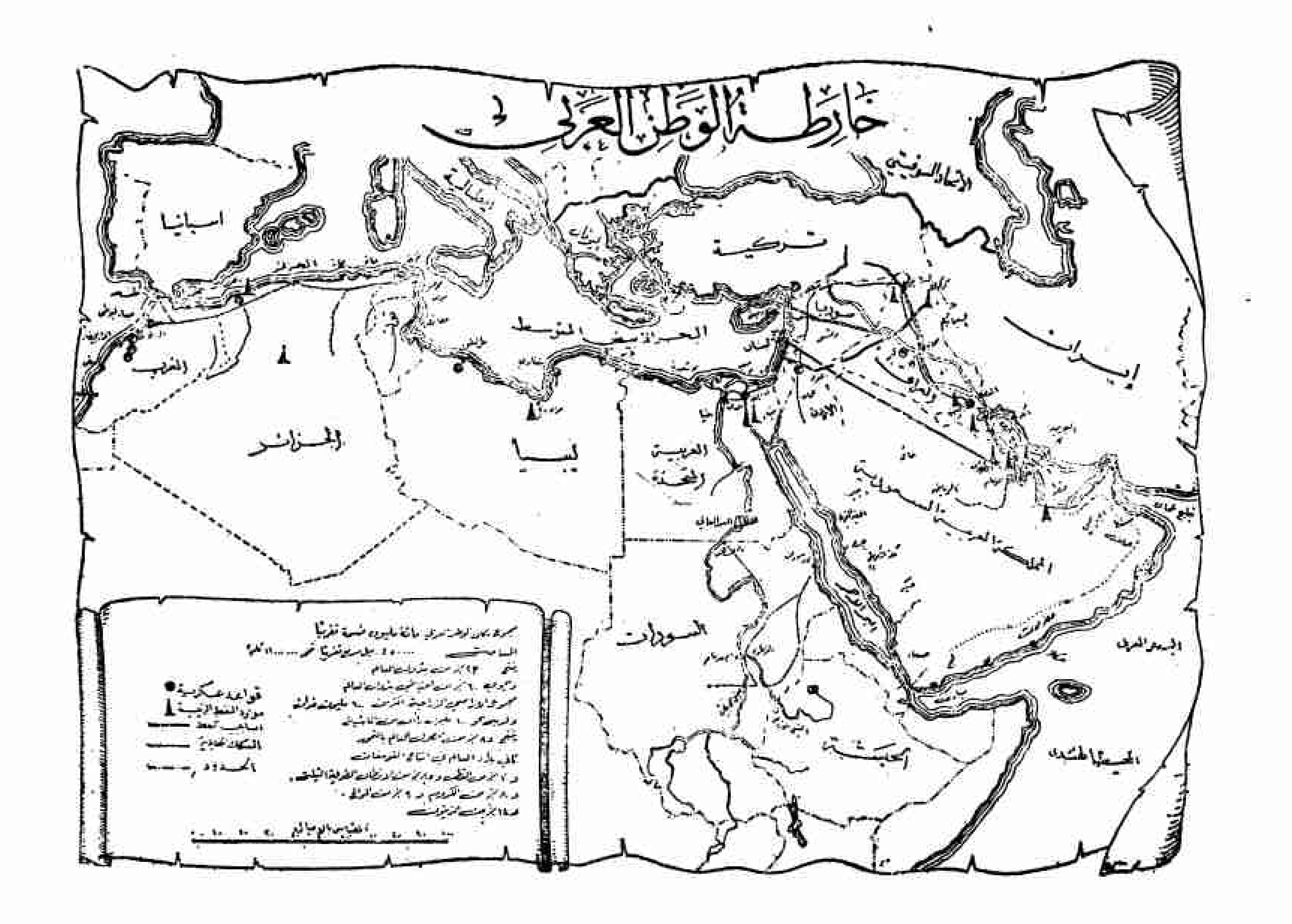
وتضع هذه القيادة منهجاً للمحاضرات التي تلقى على المجاهدين وتضع الخطوط العريضة لكل محاضرة .

٢ - القيادة الدينية القطرية للمجاهدين تكون برئاسة مفتي القطر أو أكبر عالم عامل فيه .

٣ - القيادة الدينية للمدينة تكون برئاسة شيخ علماء تلك المدينة .

٤ - القيادة الدينية الفرعية ينهض بها عالم القرية أو القصبة ، فإذا لم يتيسر فيمكن ايفاد عالم من المدينة .

٥ - يجب أن يكون العالم جاهزاً للنهوض بأعباء الجهاد بنفسه وماله .

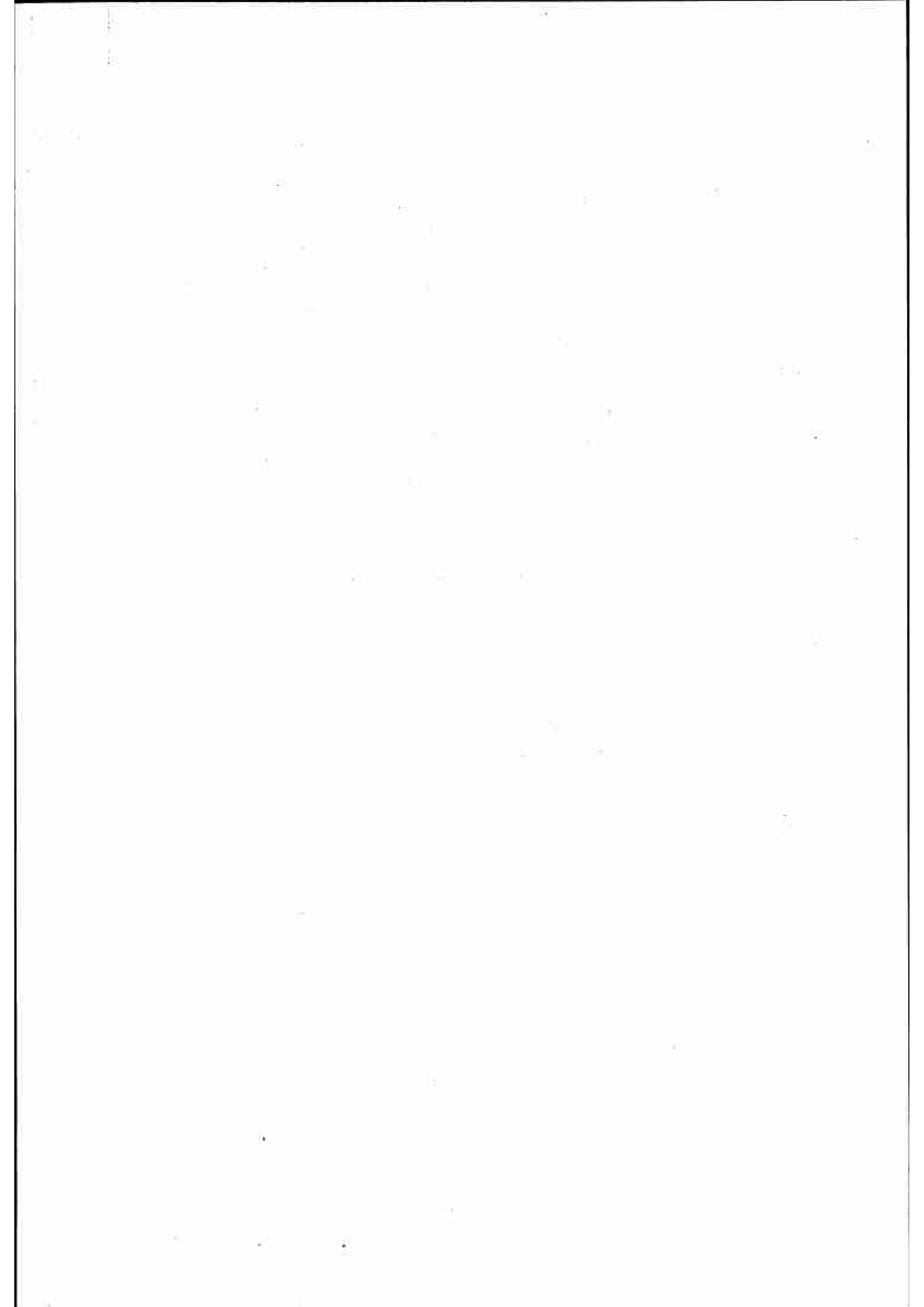

خارطة الوطن العربي
اسبانيا
المغرب
الجزائر
ليبيا
البحر الأبيض المتوسط
تركية
الاتحاد السوفيتي
ايران
العراق
سوريا
العربية المتحدة
السودان
الحبشة
البحر العربي
المحيط الهندي
قواعد عسكرية
موارد النفط الرئيسية
السكك الحديد
الحدود



خريطة « إسرائيل من الفرات إلى النيل » كما رسموها على باب الكنيست « برلمانهم » وكما وزعوها في نيويورك قبل العدوان بأيام ويبدو فيها كيف أنهم لا يكتفون بفلسطين بل يتطلعون إلى ضم العراق والأردن وسوريا والمدينة المنورة وجزء من مصر .

الخاتمة

الكاتبون في الدّين



١

كنت ولا أزال وسأبقى أعتقد أن الكتابة في الدين والتكلم في الدين سلاح ذو حدين : إذا أحسن الكاتب أو المتكلم رفع من شأن الدين وجعل الناس يقبلون على قراءة ما يكتبه الكاتبون وسماع ما يقوله المتكلمون بلهفة وشوق ، وإذا أساء الكاتب أو المتكلم حط من شأن الدين وجعل الناس ينفرون من الدين ويعرضون عن قراءة ما يكتبه الكاتبون فيه وسماع ما يقوله المتكلمون عنه .

وقد يكتب كاتب في الجغرافية أو التاريخ أو الكيمياء أو الفيزياء أو العلوم الأخرى ، وهو لا يؤمن بهذه العلوم من قريب أو بعيد ، ومع ذلك قد يفيد القارىء بما يكتب وقد يستمتع القارىء بما يقرأ .

ولكنّ الذي يكتب في الدين ، لا بد له من الإيمان المطلق بعظمة الدين ، وأن يعمل بتعاليمه نصاً وروحاً ، حتى يستطيع أن يفيد قارئه ويؤثّر فيه .

والكاتب الذي لا يؤمن إيماناً مطلقاً بعظمة الدين وأهميته منهجاً للحياة وسبيلاً إلى الدار الآخرة ، لا يمكن أن يفيد قارئه بما يكتب ولا يؤثّر فيه .

ومن العجيب أن القارىء يستطيع أن يكتشف بسهولة ويسر ، بعد قراءة بضعة سطور مما يكتبه الكاتبون في الدين : هل الكاتب يؤمن حقاً بما يقول ، أم هو يكتب ما يكتبه ارتزاقاً أو طلباً للشهرة والسمعة أو تظاهراً ورياء .

فإذا ما وجد القارىء حرارة الايمان في السطور وبين السطور أيضاً ، مضى في قراءته واستفاد منها واقتنع بها ، وإلا ترك القراءة غير آسف على ما ترك ، حرصاً على وقته من الضياع ، وحرصاً على الدين من التشويه .

وقد دأب كثير من القراء في بلاد المسلمين ، على قراءة المقالات والكتب والمجلات الدينية .

ولكنّ هؤلاء القراء - على كثرتهم وعلى اختلاف بلادهم وجنسياتهم - يكادون يجمعون على قراءة ما يكتبه الكتّاب المؤمنون حقاً بالدين وعظمته والمطبّقون (عملاً) ما يكتبونه على أنفسهم قبل أن يطالبوا غيرهم بتطبيقه (عملياً) على أنفسهم .

وقد رأيت صدفة جماعة من الأزهريين يقلّبون صفحات مجلة إسلامية، صدرت حديثاً ، وجدوها عند أحد الوراقين حول الأزهر الشريف ، ولكنهم أعادوا المجلة الى صاحبها ، لأنهم لم يجدوا مقالاً لكاتبهم الذين يثقون بدينه واستقامته .

وما رأيته في القاهرة ، رأيته في مكة المكرمة ، وفي المدينة المنورة ، وفي بغداد والموصل الحدباء ، وفي دمشق وحلب الشهباء ، وفي بني غازي وطرابلس الغرب .

إن الحاسة السادسة للقراء التي لا تخطىء ، هي التي تدلهم على الكاتب المؤمن الحق الذي يصوغ ما يكتبه بأعصابه قبل أن يصوغه بقلمه .

ونصيحتي للكاتب الذي يكتب في الدين من أجل الارتزاق أو

الشهرة ، أن يكتب في مجالات أخرى غير الدين ، لأنه سيخفق حتماً في مقالاته وأبحاثه الدينية ، وقد يكتب له النجاح في مجالات أخرى غير مجال الكتابة في الدين .

وأقصد بأنه سيخفق ، هو إخفاقه في تكوين مدرسة من قرائه ، يؤمنون إيماناً عميقاً بالدين .

ولست أجهل أن قسماً من الكتّاب الذين كتبوا في الدين ، وكانت حياتهم الخاصة سلوكاً وأفكاراً تناقض تعاليم الدين الحنيف ، قد نجحوا فيما كتبوه من مقالات وكتب نجاحاً (نسبياً) ، نظراً لشهرتهم السابقة وقوة أسلوبهم الكتابي وذكائهم وعمق ثقافتهم ، ولكن مقالاتهم وكتبهم لم تستطع أن تغرس الايمان العميق بالدين في أحد من القراء ، كما لم يستطيعوا تكوين مدرسة من القراء تهتدي بهدي آرائهم الدينية وتتلقف أقوالهم وتذيعها بين الناس . وربما استطاعوا تكوين جماعة من الأدباء يكتبون في الدين ويرتزقون بما يكتبون ، فهؤلاء أدباء دينيون ـ إن صح التعبير ، وليسوا أدباء متدينين لهم رسالة في الحياة .

وشتان بين الأدباء الدينيين ، والأدباء المتدينين .

إن الهدف الحيوي للكاتبين في الدين ، هو غرس الايمان العميق في النفوس والعقول معاً ، لا المتاجرة بالدين والتظاهر به والارتزاق منه .

وقد كان السلف الصالح يعتبر العلوم الدينية (عبادة) ، لذلك بارك الله في مؤلفاتهم وأبقاها نبراساً للمؤمنين .

وخلف من بعدهم خلف اعتبروا العلوم الدينية (تجارة) ، لذلك ذهبت مؤلفاتهم صرخة في وادٍ ، وماتت في مهدها وأصحابها أحياء .

* * *

٢

ولكن القول بأن الكاتب في الدين ، يجب أن يتحلى بمزية الإيمان المطلق بعظمة الدين ، وأن يعمل بتعاليمه نصاً وروحاً لا يغني عن كل قول .

فالواقع أن الكاتب في الدين يجب أن يتحلى بمزايا أخرى ، ولو أن المزية السابقة هي الأساس الذي لا يكون الكاتب في الدين بدونها كاتباً نافعاً وداعية موفقاً .

يجب أن يكون الكاتب في الدين عالماً متيناً بمبادىء الدين ، متخصصاً بفرع من فروعها كالفقه أو الحديث أو التفسير أو التاريخ الاسلامي . . . الخ . . . وأن يكون قادراً على وضع أفكاره في صيغ كتابية سهلة الفهم مقبولة الأسلوب بعيدة عن الأخطاء اللغوية والبيانية .

وأن يكون قادراً على الدخول في (موضوعه) مباشرة ، دون مقدمات لا لزوم لها وبغير إطناب محل ، يبدد المعاني ويشتت الأفكار ويضيّع الوقت سدى .

وإذا استطاع الكاتب في الدين ، أن يبرز فكرته في سطور ، فذلك أفضل من إبرازها في صفحات .

وصفحة واحدة أو بعض صفحة مركزة ، أفضل من صفحات مطولة . وأبلغ الكتاب وأكثرهم تمكناً من الكتابة والعلم وأعرفهم بموضوعه وهدفه المباشر لما يكتب ، هو أقلهم كلاماً وأوجزهم عبارة .

وكثير من القراء لا يطيقون قراءة الكتب الضخمة والمقالات المستفيضة ، وأكثرهم يفضل الكتب الصغيرة والمقالات المختصرة .

فإذا أراد الكاتب في الدين أن يفيد قراءه بما يكتب ، فليختصر ما استطاع الى ذلك سبيلاً ، وليملأ ما يكتبه بالمعلومات القيمة بدون حشو لا مسوّغ له ، فإن ذلك سيضاعف عدد قرائه ويزيد في فائدتهم .

ويجب أن يكون حريصاً على إبراز الدروس والعبر الدينية التي تناسب الظروف الراهنة للأمة والوطن وللعقائد السائدة في تلك الظروف .

فإذا كانت البلاد والأمة في ظروف حربية كالظروف التي تمر بالعرب والمسلمين اليوم ، فلا بد من أن يكتب الكاتبون في الدين بحوثاً ودراسات لها علاقة بالجهاد .

وهناك بحوث لها أعظم الفائدة ، تستثير الهمم وتشحذ النفوس ، يمكن استنباطها من تعاليم الدين الحنيف .

وعلى سبيل المثال لا الحصر ، يمكن الكتابة في : الجهاد بالأنفس ، الجهاد بالمال ، التطبيق العملي للجهاد ، الاسلام والحرب النفسية ، التولي يوم الزحف ، الشهيد في الاسلام ، الحرب الشاملة في الاسلام ، عقاب المتخلفين في الاسلام ، الكتمان في الاسلام ، إرادة القتال في الجهاد ، بطولات إسلامية ، سير قادة الفتح الاسلامي ، رجال الدين في الحرب . . . الخ . . .

٣

كما أن الشباب ـ وهم يعانون صراعاً فكرياً لا هوادة فيه ، محتاجون الى دراسات عن الفكر الاسلامي الأصيل ، وكيف يعالج هذا الفكر القضايا الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والفكرية والعسكرية المعاصرة .

إن العقيدة لا تقاوم إلا بعقيدة أفضل منها ، وفي الاسلام ـ والحمد لله ـ مزايا لو أبرزها الكاتبون في الدين كما ينبغي ، لاستطاعوا مصاولة الغزو الفكري المعاصر الذي يعاني منه الشباب بفكر إسلامي بنّاء ولانتصروا على هذا الغزو الفكري المقيت .

اما أن يبقى الكاتبون في الدين حريصين على ترديد الأفكار القديمة لكتاب قدماء كتبوا مشكورين ما يناسب عصرهم وظروفهم ـ تلك الأفكار

التي أصبحت معروفة من القاصي والداني - فلا يفيد أحداً من القراء، ويكون وبالاً على الدين نفسه وعلى الكاتب أيضاً .

ولست أكتم ما يجول في خلدي حين أقرأ بعض المقالات الدينية التي تكتب في الصحف والمجلات أو تسطر في الكتب ، فكل مرة أقول لنفسي : « ترى !أيعيش هؤلاء الكتّاب في الدنيا ، أم هم يعيشون في الآخرة » ؟ إذ لا علاقة بين ما يكتبونه وبين ظروف الأمة والبلاد .

وعلى الكاتبين أن يبتعدوا عن الكلام المعاد ، وأن يفكروا في المبتكر الجديد ، وأن يجوّدوا ما يكتبونه بالدراسة العميقة المستفيضة والتفكير العميق الصادق ، لكي يفيدوا ويستفيدوا . . .

وعليهم أن يفكروا بالهدف مما يكتبون ، ويتوخوا هذا الهدف ولا يحيدون عنه أبداً .

اما أن يكتب قسم منهم مقالات وبحوثاً (مرنة) ، لا هدف لها ولا غاية ، تصلح للتهاني والتعازي في آن واحد ، وتصلح للمدح والهجاء ، وتصلح للأعياد والمآتم . . . مقالات وبحوث عامة ، لا تضر عدواً ولا تفيد صديقاً ، يخيل إليك حين تقرؤها أن رائحة (الجنيهات) أو (الدنانير) أو (الريالات) أو (الليرات) أو (الدولارات) التي يتقاضاها الكاتب مكافأة له عن كتابتها - تفوح منها أكثر مما يفوح العلم والارشاد والتوجيه - فان ما يكتب في مثل هذه الحال (كارثة) من الكوارث الفكرية ومصيبة من المصائب العقلية .

وهو بدون أدنى شك ، يضر بالدين ، ويجعل الناس لا يقبلون على قراءة ما يكتب فيه وينشر عنه .

* * *

٤

وعلى الكاتبين في الدين ألا يقتصروا على الناحية (السلبية) فيما يكتبون ، بل عليهم أن يهتموا بالناحية (الإيجابية) أيضاً .

وأقصد بذلك أن كثيراً من هؤلاء يقتصر على ذكر الحقائق النظرية المجردة ، دون أن يبدي رأيه صريحاً واضحاً قاطعاً في الحلول العملية أو في التطبيق العملي لتلك الحقائق النظرية المجردة .

فالذين يكتبون في الجهاد مثلاً ، يجب ألا يقتصروا على ذكر الآيات والأحاديث الواردة في ذلك ، وأمثلة مما فعل السلف الصالح ، بالرغم من أهمية ذكر كل ذلك .

بل عليهم أن يبدوا رأيهم في كيفية تطبيق الجهاد بالمال عملياً في مثل هذه الأيام : هل تتولى الدولة ذلك وكيف ؟ ! أم هل تتولى الدولة ولجان من الشعب وضع الجهاد بالمال في نطاق التطبيق العملي ، وكيف يتم ذلك ؟

هل من المفيد إنشاء صناديق الجهاد ، وكيف السبيل الى ذلك ؟

أريد من الكاتبين في الدين ، أن يتحدثوا عن (المقدمات) وهي الحقائق الدينية المستمدة من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف آراء الأئمة وأعمال السلف الصالح كما سجلها التاريخ الاسلامي العظيم .

ولكن هذه (المقدمات) المجردة لا تكفي ، لأنها تذكر الناحية (السلبية) فقط أو الناحية (النظرية) وحدها ، إذ يجب أن تقرر (النتائج) بعد المقدمات ، وهذه النتائج هي : كيف يمكن تطبيق الناحية السلبية أو النظرية الواردة في المقدمات ، على الظروف الراهنة ، لتكون أعمالاً إيجابية في مجال التطبيق العملي .

إن (المقدمات) لا تكفي بدون (نتائج) ، والنظريات السلبية ناقصة بدون اقتراح طريقة للتنفيذ الإيجابي في مجال التطبيق العملي ووضع الخطة اللازمة للتنفيذ .

٥

إن الكتابة في ، الدين تحتاج الى الاخلاص المطلق للدين ، وتطبيق تعاليمه نصاً وروحاً ، والعلم الراسخ بالدين واللغة ، والصبر الجميل على الدراسة ، والتفكير العميق لتحديد الهدف واقتناص الجديد المبتكر ، وإبراز الدروس والعبر بالنسبة للظروف الراهنة ، وعدم الاكتفاء بالسلبية بل إبراز الايجابية .

وكل هذا يحتاج الى التفكير العميق ، والسهر الطويل ، والصبر الجميل ، والاخلاص النادر ، والعمل الدائب ، والتنظيم الدقيق .

لذلك كان الكاتبون في الدين قليلين في كل زمان ومكان ، إذا أدخلنا في اعتبارنا أن هؤلاء الكاتبين أصحاب مدارس للدعوة ، وقادة طلاب من الدعاة ، وراجون ما عند الله من أجر لا ما عند الناس من مال .

يريدون وجه الحق ، والحق أحق أن يتبع .

يقولون الحق ويغضبون له ، ولا يغضبون من الحق ، ولا يخشون في قوله لومة لائم .

وفي تطبيق هذه المقاييس على الذين يكتبون في الدين اليوم ، كم يبقى منهم في قوائم الحساب ؟

إن الكاتبين في الدين يجب أن يقدموا (فكراً اسلامياً) واضح المعالم ، يمكن أن يسد الفراغ الذي تعانية رؤوس شباب العرب والمسلمين ، ويمكن أن يقاوم الغزو الفكري الاجنبي .

وإلا فالأمر جد خطير ، لأن كل فراغ لا بد له من أن يملأ ؛ فاذا عجزنا عن إملائه بالفكر الاسلامي الذي لا بد من أن يقنع الشباب بأنه أفضل من الأفكار الأجنبية الوافدة ، فإن الفراغ الفكري الذي تعاني منه

رؤوس الشباب سيملأ حتماً بالأفكار المستوردة والمبادىء الوافدة .

وهنا الطامة العظمى .

والله أكبر كبيراً ، والحمد لله كثيراً ، وسبحان الله بكرة وأصيلاً .

وصلى الله على سيدي ومولاي رسول الله ، وعلى آله وأصحابه أجمعين .

●

محتويات الكتاب

الفهرس

الفهرس

تنويه: هذا الفهرس ليس من أصل الكتاب ؛ وإنما أعددته تسهيلاً للوصول الى المواضيع . م. سرمد حاتم شكر السامرائي

